النور السائر

من

خطب المنابر

النور السائر
من
خطب المنابر

777 966 145
الأهدل
775 924 328
التنسيق والإخراج طالب عفو ربه الأكمل
هشام بن حسين بن علي الأهدل

النُّورُ السَّائِرُ

مِنْ

خُطَبِ المَنَابِرِ

المَجْمُوعَةُ الرَّابِعَةُ

تَأْلِيفُ الشَّيْخِ :

عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِهِ العَوَاضِي

2

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن خطبة الجمعة موسم عظيم من مواسم الخير في ديننا الإسلامي الحنيف؛ فالمسلمون ينجفلون إليها يوم الجمعة تاركين دنياهم وما يشغلهم عن هذا الموعد المقدس خلف ظهورهم، مقبلين على بيوت الله تعالى بقلوب راغبة، ملبين نداء الله تعالى في قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الجمعة:٩].

لقد أقبلوا إلى المساجد الجوامع ليسمعوا الكلمة الطيبة، والموعظة الحسنة، التي يتعلم منها الجاهل، ويتذكر بها الغافل، ويتعظ فيها العالم. إنهم وصلوا إلى مكان في زمان يجلسون فيه منصتين بآذانهم وقلوبهم.

ولما كان هذا الجمع المسلم الكثير يجتمع كل أسبوع في مجمع إسلامي كبير هو المسجد مصاحبًا وجوبَ الإنصات، وحرمةَ الكلام والعبثِ أثناء الخطبة؛ كان على خطيب ذلك المحفل الطاهر أن يُعنى بهذه المناسبة، ويوليها اهتمامًا بالغًا، وبذلاً سخيًّا من وقته وجهده، وعلمه ونصيحته؛ حتى يكون لموعظته الأسبوعية أثرها في القلوب والعقول والأعمال، فيصدر الناس بعد ذلك عن نبعه العذْب بالرِّي الذي يصحح لهم المفاهيم، ويرشدهم إلى جادة الصواب، ويحذرهم سبل الهلكة والشقاء.

وبعد:

فهذه المجموعة الرابعة من مجموع خطب الجمعة التي ألقيتها، تنتظم في سلك: "**النور السائر من خطب المنابر**" الذي قدر صدر منه مجموعات ثلاث.

وقد اشتملت هذه المجموعة الرابعة على أربعين خطبة يحتاجها المسلم في إصلاح دينه ودنياه، روعي فيها الشمول للجوانب العقدية والفكرية، والعملية التشريعية، والأخلاقية والسلوكية.

وقد أحببت أن يكون بين يديها مقال كتبته قبل عدة سنوات بعنوان "حتى تنفخ الروح في كلماتنا"(١)، يكشف عن أمور مهمة يحتاجها الخطيب والمستمع لخطبة الجمعة.

وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن ينفع به عباده، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه: عبد الله بن عبده نعمان العواضي

الإمام والخطيب في جامع ابن الأمير الصنعاني

١٦/٢/١٤٣٨هـ، ١٦/٢/١١:٢-١٦م.

Moh3517@gmail.com

(١) نشر في موقع: منبر علماء اليمن، وموقع: المختار الإسلامي.

حتى تنفخ الروح في كلماتنا

أهل العلم والدعوة إلى الله تعالى هم أهل الكلمة الصادقة المتألقة بنور الحق، الحاملون مشاعل الهداية في مجاهل الظلام إلى الخلق. نصبهم الله أدلة هدى للناس، وقادة عدل إلى الصراط المستقيم. ورثوا عن الأنبياء أمانة البلاغ ومهمة الدعوة إلى الرشاد، فحازوا بين الناس أسمى وسام، وأرقى مقام.

لا تصلح حياة المسلمين إلا بوجودهم هداة بينهم؛ لأنهم يعيشون بين الناس كالأرواح للأبدان، وكالشمس للدنيا، وكالعافية للأجسام. ينفون عن الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويحيون ما اندرس من الإسلام في أوساط العباد؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ولكيلا تزل قدم بعد ثبوتها، وتذوق السوء بضلالها وانحرافها.

رزقوا بين الناس الكلمة المسموعة التي تستطيع أن تحرّك وأن تسكّن، وأن تغير وأن تحوّل، وتستطيع أن تطلق وأن تعقل. ويمتلكون الأقلام النقية التي تجد من يقرأ حروفها القادمة من آفاق الوفاء لأمتهم. فرفرف لهم بين العباد عَلم الهيبة والمنزلة المرموقة، فمن ذلك المقام ومن تلك المكانة العالية يقدرون على التأثير والقرب من مشاعر الناس لدعوتهم إلى الحق والهدى.

غير أنا لو قرأنا الواقع الدعوي الذي نعيشه فسنجد أن الأثر ما زال محدوداً أمام ما نرى من جهود أهل الباطل في إظهار باطلهم، وانجفال الناس إليهم. ولو بحثنا عن الأسباب التي جعلت كلمة الحق ضعيفة التأثير في خطابنا الدعوي المعاصر لرأينا أن

من الأسباب: أن الكلام الدعوي غدا- عند بعض الناس- مصدرَ رزق، فصارت الخطابة والتعليم الشرعي وظيفة دنيوية لا فريضة دينية يوجبها العلم وحمل أمانته. وأصبحت الكلمة الصادقة مطية إلى سماء الشهرة لتُرى فصاحة المتكلم، وقدرته على الوصول إلى إعجاب سامعيه. ليغيب عند ذلك الهدف الأسمى وهو تقويم ما تأوّد من دين الخلق.

وغاب التأثير أيضاً حينما ركب صهوةَ الكلمة غيرُ فرسانها، وأركضوها في غير مساربها. فأضحى من لديه قليل من العلم يُصدَّر أو يتصدر بين الناس الكثيرين ليلقي ما بجعبته بعُجَره وبُجَره، مما ولّد في الناس قلة تعظيم هذا المقام السامي، بسبب هؤلاء الزمنى الذين ينبغي الحجر عليهم من صعود هذا الشرف، وهناك من هو سيده وصاحبه. فالحجر على سفهاء الأقوال أولى من الحجر على سفهاء الأموال.

وضعف التأثير لدى بعض الملقين لما غاب الفهم الشامل للإسلام وغدت عقلية الملقي مقصورة في زاوية محدودة من الإسلام: علمية فقط، أو سياسية، أو دعوية، أو نحو ذلك. فإذا خطب فعنها يتكلم، وإن حاضر فمنها يُطِل، وإن كتب فبها يبدأ وبها يختم. وقد تحتويه جماعة أو حزب أو فكرة أو رأي لمجموعة من الناس فهو يدور في تلك البوتقة المغلقة فحسب. فأفلَ هناك واعظُ الأمة الحر غير الموبتق، ومحدثها المتسع الأفق الذي يتعامل بعقلية راشدة متزنة، وفهم ثاقب غير مختل، وينطلق من قاعدة ثابتة لا تعرف التأرجح والتلون. بعيداً عن الإملاءات الخاطئة، والولاءات الصغيرة، والفهم السطحي العقيم.

وهذا التقوقع والتحلق في الحلقات الضيقة من شأنه أن يصعّب على المتلقين أن يجدوا المتكلم العدل الحصيف الواعي الذي يجمع ولا يفرق، ويلم ولا يبدد، ويعرف

خير الخيرين وشر الشرين.

إن هذا المرض الخطابي الخطير أنشأ جمهوراً متشتتاً حتى صار عند بعضهم قناعة أنه لا يؤثر فيه إلا من ينتمي إلى مشربه الفكري أو السياسي، أو الفئوي، فإليه يرد، وعنه يصدر، ولا يسمع لغير صاحبه، فإذا سمع فلتصيد الأخطاء ولو بالمناقيش، أو يسمع سمعاً عابراً يملأ الأسماع ولا يصل إلى القلوب. والتعصب يعمي ويصم، كما قال دريد بن الصمة:

وَمَا أَنَا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غوَتْ غويْتُ وإنْ تَرْشُدْ غزَّيَةُ أرشُدِ

وضعف التأثير عند بعض الملقين حينما لم يكن لدى بعضهم همٌّ كبير لهداية الناس، وحرص على انتشالهم من الخطيئة والسفول. فأين هذه الحال من حال الداعي الأول في الأمة ﷺ الذي قال عنه ربه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة:١٢٨].

فالحريص المخلص تخرج كلماته مكسوة بحلل الشفقة تحمل ألفاظها روحاً وريّاً يلامس القلوب فيرويها بعد ظمأ، ويجلوها بعد صدأ.

والعتاب ليس منصباً على الملقي فحسب، بل للمتلقي حظ وافر في ضعف التأثر أو عدمه، فلو وُجد الملقي المكتملُ الآلة العلمية والخطابية، الحريصُ المخلص في حديثه فقد لا يجد له المتلقي المتقبل، فيكون كالذي يلقي حبه في أرض سبخة، فهنا نعترف بوجود حواجز لدى المتلقين، تحول بينهم وبين الاستفادة مما يُلقى عليهم؛ كقلة الاهتمام بالدين وخطابه؛ لانشغال القلب بهموم الدنيا، وقلة اليقظة إلى تصحيح ما يعوج من طريقهم إلى الله تعالى، فلو حضروا جمعة فحضورهم عادة وقتية أسبوعية، لا عبادة ربانية تحتاج إلى التهيؤ والاستعداد، والإصغاء للفهم والعمل.

ولتلافي هذا القصور بالنسبة لحاملي الكلمة؛ لكي تبلغ مداها، وتصل إلى مبتغاها نحاول هنا إبراز بعض المعالم المهمة التي يمكن أن تكون نبراساً- بعون الله- في طريق النجاح ومرتقى إلى الإحسان المرتجى. فعلى المتحدث الذي يروم أن يكون لكلامه وقعٌ حسن في القلوب، وأثر صالح في العمل أن يقوم بإحسانين: إحسان داخلي، وإحسان خارجي:

فمن الإحسان الداخلي:

١- تصفية النية من الأغراض والأعراض الدنيوية؛ كطلب رؤية الناس، وإعجابهم، ومدحهم، ونيل دنياهم، عن طريق إبراز الذات، وتقعير الكلام، وحشر أكبر عدد من العبارات الجافة والألفاظ الآبدة. فهذه المناهي ليست طريقاً صحيحاً إلى الارتقاء، وعلو المقام، وإنما السبيل الصحيحة هي إصلاح الباطن، وحسن القصد. فالكلمة التي تخرج نقية من القلب تصل إلى القلب، وتؤتي أكلها بإذن ربها. قال عمر بن ذر لأبيه: "يا أبت، مالك إذا تكلمت أبكيت الناس، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم؟ فقال: يا بني، ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة"!

٢- أن يعمل بالمعروف الذي يدعو الناس إليه، ويبتعد عن المنكر الذي يحذرهم منه. وهذا مما يأمر به العقل والشرع؛ فإن الله لام قوماً وأنكر عليهم عدم فعل البر مع قوله، وعد ذلك من قلة العقل فقال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[البقرة: ٤٤].

جاء رجل مولى إلى الحسن البصري فقال: "يا إمام، حثَّ الناس على العتق، فمكث الحسن مدة ثم حث على عتق الأرقاء. فسئل عن سبب تأخره؟ فقال: لم يكن عندي مال فأشتري رقيقاً فأعتق، ثم وجدته فأعتقت، ثم دعوت الناس إلى العتق بعد ذلك".

أما المتحدث الكذاب فإنه يدعو إلى الخير بقوله، لكن أفعاله تنادي من يدعوهم: لا تصدقوه؛ فإنه كذاب!

معرفة المتكلم عظمَ المقام الذي يقومه، وشرف المهمة التي يسعى فيها، وثقل الرسالة التي حملها عن نبي الله ﷺ، إذا عرف ذلك أدرك أنه لا حظ للنفس في هذا المقام، فلو عرضت خواطر الاستعلاء والإعجاب وحب الحظ العاجل دافعها بهذا الشعور، ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[الأعلى:١٧].

ورحم الله أبا يوسف يوم قال: "ما قمت مقاماً أريد أن أستعلي على الناس فيه إلا قمت وأنا أدناهم، ولا قمت مقاماً ولا أريد ذلك إلا قمت وأنا أعلاهم".

٣- رحمة الناس، وحسن الظن بهم، وحمل همّ صلاحهم. فالمتحدث الرحيم يجذبهم بلين حديثه، ويأسرهم برحمته وشفقته. وصاحب الظن الحسن يستمر في دعوتهم ولا يفتر عن مواصلة بذله الخير لهم. والذي يعيش همَّهم يبحث عن كل وسيلة لهدايتهم، ويدعو لهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحّمون فيه»! رواه مسلم.

أما الإحسان الخارجي فيكون في:

١- حسن إعداد المادة العلمية أو الدعوية قبل عرضها على الناس. بوضع خطتها، وقوة تحضيرها، وترتيبها وتنسيقها، والنظر فيما يقدم وما يؤخر وما يطول فيه الحديث وما يقصر.. ويا حبذا لو أُعدت الخطبة مكتوبة ثم من أراد أن يرتجلها بعد ذلك فيفعل، مع محاولة التجديد والتنويع في الأساليب التي ستلقى بها، والموضوعات التي يتناولها، والبعد عن الجمود الذي يصاحب بعضَ المتحدثين خاصة الخطباء في بقائه ضمن إطارات موضوعية معينة، دون التفكير بحاجة الناس إلى أدوية روحية تعالج واقعهم الديني والدنيوي.

فعلى سبيل المثال: الخطيب الناجح لا يأتي خطبته ليشغل الفراغ بكلام يسميه هو خطبة؛ لئلا يصلي الناس ظهراً! وإنما ينظر إلى واقع الناس هذا الأسبوع ماذا يحتاجون أن يتكلم فيه؟ ويفكر بذلك من أول الأسبوع، فلا يصعد منبره إلا بعد أن يدرك أن الحاجة ملحة للكلام في هذا الموضوع هذه الجمعة، فإذا ارتقى كان قد تهيأ نفسياً واقتنع بما سيتحدث فيه، وتهيأ موضوعياً بالإعداد الجيد فلا يصيبه الارتباك والتخبط للبحث عن كلام يصرف به وقت الخطبة من هنا وهناك. وفعله هذا من احترامه لعقول سامعيه وأوقاتهم.

إن من الفواقر على أعواد المنابر: أن يرتقي بعض الخطباء وليس في رأسه شيء، أو يعد الموضوع قبل دقائق من البدء، أو يأخذ خطبة كاملة لغيره فيرسلها على أسماع الناس كمذيع الأخبار ثم ينزل. نعم قد تأتي ظروف طارئة تستدعي هذه الأوضاع، ولا يكاد يسلم منها خطيب، لكن العتاب على من جعلها سنته وديدنه.

٢- استغلال الظروف المكانية والزمانية والحالية، بحيث يكون الخطاب تعبيراً صادقاً ودواء ناجعاً لما تحتاجه الحال، وزاداً هنيئاً يغذي حاجة الزمن؛ فأبلغ الخطب ما وافقت المناسبة. ومن الخطأ أن يظن بعض المتحدثين أن الموعظة تعني تذكير الناس بالجنة والنار، والتحذير من المعصية والأمر بالتوبة ونحو ذلك فقط. مع الإعراض عن غيرها، فالصواب أن كل ما يُصلِح دين المسلم، ويرسم الحق في معاملته في دنياه فإنه من الوعظ والتذكير. وكم هو الأسى يوم تنزل بالعَالَم نوازل وحوادث فيتناولها الجميع: السياسيون والاقتصاديون والإعلاميون، على اختلاف مصادرهم ونوعية أطروحاتهم، والناس يتلقون تحليلات هؤلاء عبر وسائل الإعلام المختلفة فيتقبلون كل ذلك غثه وسمينه، بينما نرى خطيبنا أو محاضرنا في الوقت نفسه في منأى عن الحديث في هذه القضايا. والحوادث في أزماننا المتأخرة متلاحقة مضطربة وتصل إلى

النـاس في سرعـة متناهيـة، والنـاس إزاء ذلـك ينتظـرون المتحـدث المـؤمن الحصيف الـذي يبين الحق فيما يسمعون أو يقرؤون، بـدل أن تملأ أسماعَهم وعقولهم أفكارُ وأراء ذوي الشبهات والشهوات، وهذا إذا كانت مصلحة الكلام في ذلك أكثر من مفسدته، أما إذا كان سيترتب على ذلك مفسدة أكثر من المصلحة فدرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

٣- الاهتمام بإصلاح المظهر، وإحسان البِزَّة-من غير إسراف-؛ لأن المتحدث محط أنظار سامعيه، ينظرون إلى لباسه وهيئته قبل حديثه وخطابه. فالنظافة والتطيب، وطريقة اللبس الحسنة لها أثر في الجذب والتأثير.

٤- إلقاء الحديث بتؤدة ورزانة وجرأة، وسلامة لغة وطلاقة مخرج، والمضي مع السجية والبعد عن تقمص شخصيات الآخرين، وهجر البحث عن وحشي الألفاظ ومموج المعاني، والانطلاق بعد ذلك في الموضوع بمقدمة شيقة تتوفر فيها عناصر الأَسرِ للسامعين؛ لأن المتكلم إذا استطاع كسب جمهوره من البداية فقد قطع شوطاً كبيراً من النجاح. ثم يلج إلى موضوعه بطرح متزن وحديث متسق تتناغم ألفاظه مع معانيه، ومقاصده مع مبانيه متجنباً التطويل الممل، والاستطراد المكروه. مكتفياً من المسألة ببعض ما يوصل مقصودها إلى المتلقين دون حشد كل الأدلة، فيكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. فإذا وصل إلى الخاتمة فلتكن قليلة الكلمات، عميقة المعاني، تكتنز فيها غايات الحديث المراد إيصالها وإبلاغها.

ومع هذا-فنحن الخطباء- نعترف بالقصور عن بلوغ التمام بعد ذكر هذين الإحسانين، لكن نسعى إلى تلك الغاية السامية، ونسأل الله السداد.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أسوةٌ حسنة[١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد ظل الناس قبل بعثة محمد ﷺ في الضلالة غارقين، وفي ليالي الحيرة تائهين، وفي أودية الجهالة متخبطين. لا يدركون عِلمًا ولا هدى، ولا نوراً ولا ضياء، حتى أذن الله تعالى ببزوغ الفجر الصادق الذي أشرق بينهم؛ ليهديهم إلى نور السعادة وسبيل النجاة، فبعث الله حبيبه محمد بن عبد الله ﷺ مبشراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ١٨/٣/١٤٣٦هـ، ٩/١/٢٠١٥م.

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[المائدة:١٥-١٦].

عباد الله، لقد أرسل الله تعالى نبينا محمداً ﷺ إلى الناس كافة، فكمّله بخصال الكمال البشري، فكان أكملَ الخلق خَلْقاً، وأكملهم خُلقاً، وأكملهم قولاً، وأكملهم عملاً. فخَلقه أجملُ خَلق وأبهاه، وخُلقه أفضل خُلق وأزكاه، وقوله أحسن قول وأعلاه، وعمله خير عمل وأوفاه.

فبعد أن كمله الله بذلك أمر باتباعه وطاعته، والأخذ بما جاء به وسلوك طريقته، والاقتداء به في الأقوال والأعمال والأحوال.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[النور:٥٦].

وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ ﴾[الحشر:٧].

وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١].

ذاكَ الـذي عبـدَ الإلهَ وأخلصـا ... وهوَ المشفَّعُ في المعادِ لمنْ عصى.
وبكفِّـهِ نطقـتْ وسبّحتِ الحصى. ... شرفـاً لـهُ ولربـهِ تعظـيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

مني السلام عليك ما هبّ الصبا ... وتعانقت عذبات باناتِ الرُّبا
وتناوحـت وُرْقُ الحـمام لتطربـا ... وأضاء نورك في السماء نجوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

أيها المسلمون، إن من تتبع سيرة رسولنا ﷺ من ولادته إلى وفاته وجدَ الأسوة الحسنة في طفولته، والأسوة الحسنة في شبابه، والأسوة الحسنة في كهولته ورجولته.

ويجد القدوة الصالحة أيضًا في كونه ابنًا، وفي كونه زوجًا، وفي كونه أبًا، وفي كونه أخاً، وفي كونه قريبًا، وفي كونه صهراً.

ويرى الأسوة الحسنة أيضًا في كونه مربيًا ومعلمًا، وفي كونه داعية وناصحًا، وفي كونه قائداً عسكريًا، وفي كونه حاكماً يسوس الناس.

ويجد كذلك القدوة الصالحة في صفاته وأخلاقه، وخِلاله وشمائله، ﷺ.

أيها الأحبة الفضلاء، لقد كان رسول الله ﷺ قدوة في طفولته؛ فإن طفولة رسول الله ﷺ لم تكن مرتعًا لكثرة الاشتغال بما لا ينفع، أو للعبث الذي لا فائدة فيه، ولم تقم طفولته على التربية الناعمة الرخوة التي تفسد الأبدان والأخلاق والطباع، بل كانت أرضًا خصبة للتربية على شحذ الطباع بمشحذ الجد والتقويم؛ فقد أُخذ رسول الله ﷺ من بيئة الحاضرة- مكة- إلى بادية بني سعد؛ ليتربى على الخشونة والقوة، وإتقان اللسان العربي من أفواه أهله، وليشم هواء البادية النقي. ففي هذا رسالة تربوية في تنشئة الأطفال على القوة البدنية، والقوة الروحية، والقوة الأخلاقية، وأن لا يسلموا إلى البيئات الفاسدة التي تفسد معتقداتهم وأعمالهم، وألسنتهم وسلوكهم، كما هو الحاصل في بيئات كثير من المسلمين، وللأسف.

وقد ظل رسول الله ﷺ في طفولته يعاني اليتم عن أبيه ثم عن أمه ثم عن جده عبد المطلب، إنها تربية الله لنبيه بصقله على الجلَد والصبر والاعتماد على النفس-بعد

الله تعالى-؛ لأن هناك مستقبلاً مليئًا بالشدائد يحتاج هذه النفس التي قد ذاقت طعم العناء منذ بزوغ شمس الحياة عليها، وليس من جرب فتصدر كمن تصدر بلا تجارب.

أيها الأحبة الكرام، وكان رسول الله ﷺ قدوة في شبابه؛ فلم يكن شبابه ﷺ لوحةً نُقش عليها اللهو والعبث، والانجراف نحو الانحراف إلى الهوى والشهوات غير المحمودة. وإنما كان شبابه ﷺ صفحة مشرقة ناصعة بالعفة والنقاء، والطهارة والصفاء، والكفاح والجد، والتفكير الصائب، مع سمعة حسنة بين قومه، وثناء كريم منهم عليه في منتدياتهم وعلى ألسنتهم.

لقد نزع رسول الله ﷺ عن نفسه في شبابه الكسلَ وانتظار نوال غيره، ولبسَ الانطلاقَ إلى العمل والكسب الحلال، فعمل في التجارة إلى الشام مع عمه أبي طالب، ثم عمل في رعي الأغنام لبعض أهل مكة، ثم صار تاجراً مسافراً بالتجارة لخديجة رضي الله عنها. فقد وصل إلى سمع خديجة عليها رضوان الله صدقُ محمد بن عبد الله وأمانته، فأحبت أن يتاجر في مالها، فقبل رسول الله ﷺ دعوتها، فخرج بتجارتها إلى الشام مع غلامها ميسرة. فلما رجع رسول الله ﷺ بالتجارة رأت خديجة بركة في المال ونماء، وزاد الأعجابَ به ما سمعته من غلامها المرافق له في السفر بما تحدث به عن كريم خلاله، وجميل خصاله، وكانت خديجة غير ذات زوج، وهي ذات مال وجمال ومكانة بين قومها، وكان يأتيها الخطّاب من سادات قريش فتردهم، وكأنها تنتظر إنسانًا آخر لم تجد صفاته في أولئك الخطاب، فلما نُعت لها رسول الله ﷺ -وزادت علمَ اليقين بعين اليقين حينما تاجر في مالها، فجمعت ما رأتْ إلى ما سمعت-؛ رأت ضالتها المنشودة بين يديها، فرغبت في الزواج به ﷺ، فتم ذلك.

وفي فصل آخر من فصول شبابه ﷺ نجده غيرَ غافل عن واقع قومه ومشاركتهم

فيما يهمهم، فقد حصلت حرب الفجار بين قريش وقيس عيلان فكان رسول الله ﷺ يجهز النبل لعمومته، وعمره إذ ذاك خمس عشرة سنة.

وفي صفحة أخرى من صفحات شبابه ﷺ نراه قد حيل بينه وبين اللهو، فقد روى بعض أصحاب السير أن رسول الله ﷺ قال: «ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفًا، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس. فعدت إلى صاحبي فسألني، فأخبرته، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة... ثم ما هممت بسوء»(١).

فيا أيها الشباب، لكم في شباب رسول الله ﷺ قدوة حسنة في عبور مرحلة الشباب بسمعة حسنة منقوشة بالعفة والنزاهة، والجد والعمل والصدق والأمانة، والبعد عن كل ما يشوه النفس والأسرة.

وفي تجارة رسول الله لخديجة رضي الله عنها أسوة حسنة للعمال والموظفين في أداء الأعمال والوظائف بأمانة وإتقان.

أيها المسلمون، وكان رسول الله ﷺ أسوة حسنة في بنوّته، فقد كان ﷺ حنونًا عطوفًا رحيمًا بأمه آمنة بنت وهب. فعن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى

---

(١) رواه ابن الأثير، والحاكم، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي: على شرط مسلم، وضعفه ابن كثير والألباني.

وأبكى من حوله فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور؛ فإنها تذكر الموت»(١).

وكان كذلك مع أمه من الرضاعة: حليمة السعدية؛ فقد قدمت مرة عليه تشكو إليه الجدب، فكلم خديجة فأعطتها أربعين شاة وبعيراً.

ففي هذا قدوة صالحة للأبناء في حسن معاملة الأمهات.

عباد الله، وكان رسول الله ﷺ أسوة حسنة للأزواج في بناء الحياة الزوجية على قاعدة حسن المعاشرة، وإيفاء الحقوق، وتوفير الجو الأسري السعيد.

وقد ظهرت أمثلة الاقتداء في جوانب متعددة، منها:

قيام اختيار الزوجة على أسس سامية وأهداف حميدة، فمن زوجات رسول الله من اختارها لشرفها وسموها بين قومها بالفضائل، ومنهن من اختارها جبراً لمصيبتها بفقد زوجها، ومنهن من اختارها تأليفًا لقبيلتها وقومها على الإسلام، ومنهن من اختارها إكرامًا لأبيها الذي كان يحبه رسول الله ﷺ؛ لعظم مكانته في الإسلام، ومنهن من اختارها لغير ذلك من المقاصد الحسنة.

ومن تلك الجوانب: جانب التربية والتعليم، فقد كان رسول الله ﷺ قدوة للأزواج في تعليم الزوجات وتربيتهن على محاسن الأقوال والأعمال.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا- قال بعض الرواة: تعني قصيرة- فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»،

(١) رواه مسلم.

قالت: وحكيت له إنسانًا فقال: «ما أحب أن حكيت لي إنسانًا وأن لي كذا وكذا»(١).

وعن جويرية رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها»؟ قالت: نعم، قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»(٢).

وكان رسول الله ﷺ قدوة للأزواج في مساعدة أهله، والتخفيف عنهم في أعمال المنزل،

فعن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت: ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: (كان بشرا من البشر: يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه)(٣).

وكان رسول الله ﷺ قدوة للأزواج في حسن التعامل وإدخال السرور على أهله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سابقني النبي ﷺ فسبقته، فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال النبي ﷺ: «هذه بتلك»(٤).

وكان رسول الله ﷺ قدوة للأزواج في حسن العهد، والذكر الحسن للزوجة إذا ماتت قبل زوجها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد وابن حبان، وهو صحيح.

(٤) رواه أبو داود وابن حبان وغيرهما، وهو صحيح.

إلا خديجة؟! فيقول: «إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد»(١).

أيها الإخوة الكرام، وكان رسول الله ﷺ قدوة في أُخوّته؛ فقد أكرم أخته من الرضاعة: الشيماء بنت الحارث السعدية يوم حنين. فحينما جمع السبي في غزوة حنين جيء إلى رسول الله ﷺ بأخته من الرضاعة فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم منّ عليها وردها إلى قومها.

وكان رسول الله ﷺ قدوة في أبوّته، فكان نِعمَ الأب المربي العطوف، فقد كانت تأتيه فاطمة رضي الله عنها فيهش لها ويبش ويقول: «مرحبًا بابنتي» ويجلسها عن يمينه أو عن شماله(٢).

وكان يحب ولديها: الحسن والحسين رضي الله عنهما ويحن إليهما، وكانا يتبعانه إلى المسجد فيقبل عليهما ويحتضنهما.

وفي غزوة بدر كان أبو العاص زوج زينب بنت رسول الله ضمن الأسرى فمنّ عليه رسول الله بشرط أن يخلي سبيل زينب، وكانت قد بعثت في فدائه بمال، بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، واستأذن أصحابه في إطلاق أبي العاص ففعلوه، واشترط رسول الله ﷺ على أبي العاص أن يخلي سبيل زينب، فخلاها فهاجرت رضي الله عنها.

وكان ربما يحمل أمامة بنت زينب على ظهره في الصلاة، فعن أبي قتادة الأنصاري: أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ولأبي العاص بن الربيع بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها(٣).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة». ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك -يا إبراهيم- لمحزنون»(١).

عباد الله، وقد كان رسول الله ﷺ قدوة في قرابته، حيث كان ناصحًا لهم، حريصًا على هدايتهم، وكان مكرمًا لهم، موصيًا بهم خيراً.

فعن أبي هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز و جل: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٤].

قال: «يا معشر قريش- أو كلمة نحوها-، اشتروا أنفسكم؛ لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي؛ لا أغني عنك من الله شيئًا»(٢).

وعن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة فقيل: منع ابن جميل، وخالد بن الوليد، والعباس عم رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله، وأما خالد فإنكم تظلمون خالداً؛ قد احتبس أدراعه وأعتاده في سبيل الله، وأما العباس فهي علي ومثلها معها، ثم قال: يا عمر، أما شعرت أن عم الرجل صنوا أبيه»؟(٣).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

ومن أمارات حرصه: ما فعله عند احتضار عمه أبي طالب، فعن ابن المسيب عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: «أي عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله». فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به: إنه على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنه». فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[التوبة:١١٣]. ونزلت: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص:٥٦].»[(١)].

ففي هذا قدوة للمسلم في إكرام أقاربه والإحسان إليهم، وبذل النصيحة لهم.

أيها المسلمون، وكان رسول الله ﷺ قدوة في معاملة أصهاره: أزواج بناته، فقد كان ﷺ يزورهم وينصحهم، ويثني عليهم، ويصلح بينهم وبين بناته إن حصلت مشكلة.

فعن سهل بن سعد قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة فلم يجد عليًا في البيت فقال: «أين ابن عمك»؟. قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج، فلم يقل عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: «انظر أين هو»؟ فجاء فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب فجعل رسول الله ﷺ يمسحه عنه ويقول: «قم أبا تراب، قم أبا تراب»[(٢)].

وعن علي رضي الله عنه: أن فاطمة رضي الله عنها شكت ما تلقى من أثر الرَّحى فأتى النبيَّ ﷺ

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

سبيٌ فانطلقت فلم تجده فوجدت عائشة فأخبرتها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبت لأقوم فقال: «على مكانكما». فقعد بيننا حتى وجدت برد قدميه على صدري وقال: «ألا أعلمكما خيراً مما سألتماني؟، إذا أخذتما مضاجعكما تكبران أربعًا وثلاثين، وتسبحان ثلاثا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين، فهو خير لكما من خادم»(١).

وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خطب ابنة أبي جهل على فاطمة رضي الله عنها فسمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في ذلك على منبره هذا وأنا يومئذ محتلم فقال: «إن فاطمة مني، وأنا أتخوف أن تفتن في دينها». ثم ذكر صهراً له من بني عبد شمس -يعني أبا العاص زوج زينب رضي الله عنها- فأثنى عليه في مصاهرته إياه. قال: (حدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حرامًا، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبداً عند رجل واحد)(٢).

أيها المسلمون، وكان رسول الله ﷺ أسوة حسنة في دعوته الناسَ وتربيته لهم، فقد مضى رسول الله ﷺ يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، مع نشاط وحرص، واستمرار وتفكير وتخطيط؛ من أجل توسيع نطاق الدعوة وانتشارها.

فقد دعا في مكة الأفراد والقبائل، ثم انتقل إلى الطائف، ثم فكر بملاذ آمن يحتضن الدعوة وأهلها، فكانت الهجرتان إلى الحبشة، ثم الهجرة إلى المدينة. ففي هذا قدوة صالحة للدعاة إلى الله تعالى في الإخلاص في الدعوة، والحركة بها والاستمرار عليها.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

وكان رسول الله ﷺ يربي الصحابة ويعلمهم بقوله وبفعله، بالكلمة الطيبة، والأسلوب الحسن، والموعظة المؤثرة.

فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»(١).

وعن أنس بن مالك قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه، دعوه»، فتركوه حتى بال ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن»، فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه(٢).

أيها الفضلاء، وكان رسول الله ﷺ قدوة في قيادته العسكرية، فقد بلغ بذلك أعلى أسنمة القيادة وشرفها. فقد كان ذا حنكة ودراية، وتفكير وتخطيط، ودقة وعمق في رسم الأهداف، وكيفية التوجه إليها في الوقت المناسب والحال الموافقة للنجاح.

ولم يكن ظالمًا ولا جبارًا ولا مستبدًا برأيه، بل كان عادلاً رحيمًا معتمداً على الشورى والأخذ بالآراء الصحيحة. قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩].

ففي هذا قدوة لكل قائد يريد النجاح في قيادته، وتماسك من تحت رعايته، والظفر بالأهداف المرجوة.

أيها الأحبة الكرام، وكان رسول الله ﷺ أسوة حسنة في حكمه وسياسته الناس، فقد كان ﷺ حاكمًا عادلاً عالمًا بماذا يحكم، وكيف يسوس الرعية فيحافظ على الدين والدنيا. فقد كان ﷺ صاحب معرفة بالواقع الذي يحكم فيه، والناس الذين يقودهم، وكان ذا معرفة بكيفية التعامل مع الأحداث الداخلية والخارجية. ولم تكن سياسة رسول الله ﷺ قائمة على الجور حتى مع القريب الحبيب.

فعن عائشة رضي الله عنها: أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله»؟! ثم قام فاختطب ثم قال: «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١).

الله أكبر، هذا هو العدل الذي تصلح به الدنيا والآخرة للشعوب المسلمة إذا سارت عليه.

ففي هذا أسوة حسنة لكل حاكم يريد السعادة لنفسه ولشعبه، وأن يُذكر بالجميل بعد ذهابه عن حكمه.

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، **أما بعد:** أيها المسلمون، وإذا ما انتقلنا إلى جانب آخر من جوانب الاقتداء بسيد الأنبياء فسنجد ذلك الجانب بحراً زاخراً بأمثلة الأسوة الحسنة، ذلك الجانب هو: جانب الأخلاق والآداب التي قد أفاضت الحديث عنه كتبُ الشمائل المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم:٤]. فماذا نقول عن صدقه وأمانته، وطهارته وصفاء سريرته، وحسن حديثه وبهاء أسلوب كلامه. وماذا نقول عن ذكره وصبره، وشكره وحسن عبادته. وماذا نقول عن حلمه وعفوه، ورحمته وعطفه، ورفقه ورأفته، وتواضعه ولين جانبه. وماذا نقول عن شجاعته وإقدامه، وشدة شكيمته وقوته في الحق ودفاعه عنه. وماذا نقول عن زهده وقناعته، وإعراضه عن الدنيا وقد ألقت نفسها بين يديه. وماذا نقول عن وقاره ورجاحة عقله، وحسن تصرفه، وحفظه لعهوده، ووفائه بوعوده. وماذا نقول عن غير ذلك من صفاته العذبة، وشمائله الكريمة التي بلغت في المجد الغاية، وفي الحمد النهاية.

فيا أيها المسلمون، الاقتداءَ الاقتداءَ بسيد الأنبياء، فلتكن أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا منسوجة على منواله في أقواله وأعماله وأحواله.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[آل عمران:٣١].

وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ

وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١].

هذا وصلوا على النبي المختار...

نسائم المعروف [١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق».

وعند ابن حبان بسند صحيح: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، فإن لم تجد فلاين

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ٤/٣/١٤٣٦ه، ٢٦/١٢/٢٠١٤م.

النـاسَ ووجهـك إلـيهم منبسـط» وفي روايـة عنـده أيضًـا في نهايـة الجملـة السـابقة: «فـإذا صنعت مرقة فأكثر ماءها واغرف لجيرانك منها»، وفي رواية كذلك عنده، ولكن عن سليم بن جابر الهجيمي قال: قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط».

وعند أحمد في مسنده بسند صحيح: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شِسع النعل، ولو أن تنزع من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق، ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشانَ في الأرض».

أيها المسلمون، فعلُ المعروف للخلْق خلق جميل، وسلوك نبيل، ينبئ عن نفس كريمة تزخر بحب الخير للناس، وإرادة سعادتهم، وزوالِ ما يؤلمهم ويضرهم. لكن الناس في فعل المعروف ليسوا سواء، فمنهم من يكره فعل المعروف ولا يحب قربانه، وهذا يكشف عن روح مكفهرة لا تعرف طريق الخير، ولا سبلَ السعادة، وينمِي عن نفس حقود تمتلئ بالكراهية والبغض والأثرة المقيتة، وأصحاب هذه النفوس هم وحوشُ المجتمعات ولو استأنسوا.

ومن الناس من يفعل المعروف الظاهر في العظمة والكثرة، وينأ بنفسه عن المعروف القليل في نظره؛ باعتبار أوله. وهذا الإنسان بهذا الانتقاء والاستعلاء يفوِّت على نفسه خيراً كثيراً، ويضيع على الناس فرصًا من نفسه كان يقدر عليها تجلب له ولهم خيراًن أو تدفع عنهم ضرراً.

ومن الناس من تسابق نفسه إلى فعل المعروف كثيره وقليله، ويحرص على تتبعه وملاحقة موارده؛ لعله يظفر بأجر وثواب، وينفع غيره بتحصيل خير لهم أو دفع شر

عنهم. وأصحاب هذه النفوس المتألقة في سماء المعروف هم أنوارُ المجتمعات، ومعارج سعادتها وراحتها، وهم الظافرون بالخير الكثير.

عباد الله، إن الحياة الإنسانية حياة تقوم على الاجتماع والعيش المشترك الذي يبنى على استفادة بعض الناس من بعض، ولن تتم مصالحهم إلا بالمقايضة كالبيع والشراء، كل يعطي الحياة شيئًا ويأخذ منها شيئًا آخر.

ومن استغنى بنفسه عن غيره في نهاره فضحته الحاجة إلى سواه في ليله، ومن وثق بما يملك من غير نظر إلى الآخرين في مسائه، ألجأته الضرورة إليهم في صباحه.

إذاً فمقتضى هذه الحياة الجماعية الحاجةُ إلى وجود المعروف بين الناس: إما بالأقوال، وإما بالأفعال، وإما بالأحوال. وقد تبدو بعض أنواع المعروف لدى بعض الناس تافهة لا تستحق الإقبال عليها، وذلك بالنظر إلى قدرها أو صفتها أو جهتها. ولو تأمل الإنسان في عواقبها وآثارها لما احتقرها وفرّ منها.

مرّت فتاةٌ برجل يتكفف الناس ففتحت حقيبتها لتعطيه فلم تجد مالاً، فقالت: عفواً يا أبي، لقد نسيت المال، سأذهب وأحضره لأعطيك، فقال: يا ابنتي، لقد أعطيتني ما لم يعطني الناس، لقد أعطيتني كلمة أبي!

وتفكروا معي في قصة موسى عليه السلام مع ابنتي صاحب مدين كيف نال بمعروفه القليلِ الخيرَ الكثير: لقد نال الأمان، والزوجة الصالحة، والعمل النافع، والعيش السعيد.

أيها الأحبة الكرام، عيادة المريض، وزيارة الإخوان في الله قد يظنهما بعض الناس عملين ليس لهما أثر كبير، بلى إن لهما أثراً كبيراً، واسمعوا هذين الحديثين المتضمنين

قصتين مؤثرتين، عن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم». فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم، ﷺ، فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»(١).

وعن أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»(٢).

أيها الإخوة الفضلاء، لقد ذكرَ رسول الله ﷺ في أحاديث النهي عن احتقار المعروف الحثَّ على فعل الخير مهما قل في أعين الناس، وذكر لذلك بعض الأمثلة، وصدّر تلك الأمثلة بالنهي عن احتقار المعروف؛ لأن احتقار العمل يُزهِّد الإنسانَ المحتقر له، ويبعده عن فعله.

فمن تلك الأمثلة التي ذكرها رسول الله ﷺ قوله: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» وفي الرواية الأخرى: «ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط».

إن طلاقة الوجه وبشاشته عمل سهل، وله أثر كبير في نفوس المتلقين، فهو يدخل البهجة والسرور والاطمئنان عليهم. والوجه الباسم يحبب صاحبه إلى الناس، وينشر فيهم الأمان والخير. والابتسامةُ دواء من الأدوية، ولكن ليس لها أعراض. وهكذا كان

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

خلق رسول الله ﷺ، فعن جرير رضي الله عنه قال: «ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي»(١).

ومن أمثلة المعروف التي ذكرها رسول الله ﷺ قوله: «فإذا صنعت مرقة فأكثر ماءها واغرف لجيرانك منها» وتوضحها رواية مسلم حيث قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك». إن الجار له حق على جاره، ومن حقوقه: بذل المعروف له؛ لأن ذلك مما يوطِّد العلاقة بين الجيران، ويقرب بعضهم إلى بعض، وقال ﷺ: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة»(٢). هذا بإهداء الطعام، وكذلك من المعروف بين الجيران: بذل الكساء والدواء، والشفاعة الحسنة، والإعانة على أمور الدين والدنيا، فمن لم يجد فبالكلمة الطيبة، وكف الأذية عنهم.

أيها المسلمون، ومن الأمثلة التي ذكرها رسولنا ﷺ: قوله: «ولو أن تعطي صلة الحبل، ولو أن تعطي شِسع النعل». والمعنى: احرص على فعل المعروف ولا تستصغره، ولو أن تعطي إنسانًا قطعة من حبل يكمل بها حبله ليقضي حاجته. ولو أن تعطي إنسانًا شسع النعل ليمشي عليه(٣).

ومن الأمثلة كذلك قوله: «ولو أن تنزع من دلوك في إناء المستسقي». يريد أن لا تحتقر هذا المعروف وهو أن تعطي مريدَ الماء ما قد جمعته في وعائك؛ رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) شسع النعل: هو أحد سيور النعل أي: الذي يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه الآخر في صدر النعل.

ومن الأمثلة: قوله ﷺ: «ولو أن تنحي الشيء من طريق الناس يؤذيهم». يعني: الترغيب في إزالة الأذى من طريق المسلمين من شوك أو أحجار أو نجاسات أو نحو ذلك مما يؤذي الناس. وهذا العمل من أعمال الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»(١). وهو من محاسن الأعمال، كما قال النبي ﷺ: «عرضت علي أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت في محاسن أعمالها الأذى يماط عن الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن»(٢).

ومن الأمثلة: قوله ﷺ: «ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه»، وهذا من أسباب المحبة والتآلف واجتماع القلوب، فالسلام من شعائر الإسلام العظام ومن وسائل الوئام وحلِّ عُقد الخصام.

ومن الأمثلة كذلك: قوله ﷺ: «ولو أن تؤنس الوحشانَ في الأرض». ويعني بهذا إذا وجدت إنسانًا مستوحشًا فاته الأُنس والأمان فمن المعروف أن تساعده بالقول أو بالفعل؛ ليجد الطمأنينةَ وتزول عنه الوحشة والخوف. ومما يدخل في هذا: الإحسان إلى اليتامى الذين فقدوا أُنس الأبوة، والأرامل اللاتي فقدن أُنس العائلين، والغرباء وأبناء السبيل الذين فقدوا أنس الأهل والأوطان.

أيها الأخ الكريم، إن أبواب المعروف أمامك كثيرة غير محصورة، ومفتوحة غير موصدة، ومن تتبعها وجدها في مجالات كثيرة. فمن ذلك: أن تهنأ أخاك إذا فرح، وتعزيه إذا حزن، وتشاركه همومه وآماله، وتسأل عنه إذا غاب، وتساعده إذا احتاج. إن

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

كل راغب في الخير يستطيع أن يصنع المعروف مهما كان عمله وتخصصه، فالمدرس في مدرسته، والطبيب في عيادته، والموظف في وظيفته، والجار مع جيرانه، والعامل في عمله، كل هؤلاء وغيرهم يستطيعون أن يصنعوا شيئًا كثيراً من المعروف.

وفي ظل وسائل الاتصال الحديثة يستطيع المسلم أن يصنع معروفًا كثيراً بعمل يسير، فيبعث موعظة أو نصيحة عبر جواله أو حاسوبه إلى أصدقائه، فلعل تلك الكلمات الحسنة، والمقاطع الطيبة المؤثرة أن تنقذ غريقًا، أو توقظ غافلاً، أو تهدي ضالاً، أو ترد شريداً عن الله إليه، وقد حصل من ذلك خير كثير.

فبدلاً من التواصل بالأشياء الضارة أو غير النافعة، لماذا لا تستغل هذه الوسائل في بث الخير ونشره، فمن لم يستطع أن يكون داعيًا إلى الله بلسانه أو كتابته فله مجال رحبٌ في هذا الوسائل فينتقي من الكلام الطيب لأهل العلم والدعوة الصادقين فيرسله للناس ليستفيدوا منه، قال رسول الله ﷺ: «فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم»[1]. نسأل الله أن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر. قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، **أما بعد:**

أيها المسلمون، إن على المسلم المريد للخير أن يربي نفسه على استغلال فرص المعروف مهما قل؛ ليعمله ويدعو إليه. فالفرص قد لا تعود، والعمر محدود، والأيام تتصرم، والآجال إلى الإنسان تتقدم. فكم من معروف عُرِض على الإنسان فأعرض عنه، فندم على فواته حين لا ينفع الندم، وتمنى لو رجع إلى الدنيا ليعمل ذلك الخير، ولكن هيهات هيهات، قال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾[سبأ: ٥٤]. فيا عاقلاً بادر قبل أن تُبادر، واستعجل فعلَ المعروف ولا تستأجل، وأتعِب نفسك اليوم قليلاً قبل أن تتعب غداً كثيراً، وعباد الله المتقون يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

معشر المسلمين، إن مما يساعد المسلمَ على فعل المعروف والمسابقة إليه: التطلع إلى ما أعده الله تعالى لأهل الطاعات من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة. والعيش في البيئة الصالحة المساعدة على المعروف، ومرافقة الجلساء الاتقياء الحريصين على الخير. وأن يتذكر المسلم أنه كما يصنع المعروف للناس فسيهيئ الله من يصنع له المعروف وقت حاجته، وسيصرف الله عنه من السوء بسبب صنعه المعروف. قال رسول الله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر»(١). وقال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والآفاتِ والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»(٢).

---

(١) رواه الطبراني، وهو حسن.

(٢) رواه الحاكم، وهو صحيح.

وأن يتذكر أيضًا الآثارَ الحميدة لهذه الأعمال من الخير، ومن تلك الآثار: ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها فاستقت له به فسقته إياه، فغُفِر لها به».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﵁ كذلك أن النبي ﷺ قال: «بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال:«في كل ذات كبد رطبة أجر».

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه: إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه؛ لعل الله أن يتجاوز عنا، قال: فلقي الله فتجاوز عنه»(١).

وعن جابر بن عبد الله ﵄ عن النبي ﷺ قال:«كل معروف صدقة»(٢).

عباد الله، إن المجتمع إذا حرص أهله على فعل المعروف-ولو كان صغيراً- سادت بينهم المحبة، واشتدت بينهم عرى الأخوة، وفُرِّج عنهم شيءٌ من كرباتهم، وحُلّت بعض مشكلاتهم، وحصلت بينهم السعادة والألفة.

فيا أيها المسلم، كن من المبادرين إلى المعروف، وأخلص لله فيه، واستمر عليه، ولا تحتقره إذا كان قليلاً أو صغيراً؛ فإن المعروف الصغير يضاف إلى مثله فيصير كبيراً،

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

حتى يبلغ مبلغًا بالتتابع ما كان يظن صاحب المعروف أن يبلغ إلى ذلك. والسعيد من عرفه الخالق من السابقين المخلصين، وعرفه المعروف من المقبلين المحبين، وعرفه الخلق من الباذلين المحسنين، وغداً يلتقي الزُرَّاع والحصاد، فطوبى لمن أحسن، ونعمت الثمرة لمن رعاها ورباها، وجاد عليها وحماها.

هذا وصلوا وسلموا على خير البرية...

صفات المؤمنين في سورة المؤمنين(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس يقول الله تعالى في كتابه الكريم: بسم الرحمن الرحيم ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ١٣/٢/١٤٣٦هـ، ٥/١٢/٢٠١٤م.

الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[المؤمنون:١-١١].

عباد الله، هذه آيات جامعة لخصال نافعة من خصال الخير التي يحصل بها الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة. فقد جمعت هذه الآيات الكريمة بين حق الخالق وحق المخلوق، وبين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وبين الأعمال اللازمة والأعمال المتعدية. وتضمنت هذه الآيات المنيرات أسبابَ الفوز باجتماعها في أعمال صالحة عظيمة وهي: المحافظة على الصلاة الخاشعة، والإعراض عما لا ينفع من القول والعمل، وحفظ الفروج عن الحرام، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود. ثم ختمت الآيات بذكر الجزاء الحسن لأهل هذه الأعمال الحسنة، وجزاء الإحسان الإحسان: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾والمتأمل في هذه الآيات الكريمات يرى علاماتِ الاهتمام بالفحوى جليّةً في ألفاظها وجملها؛ مثل الإتيان بالجملة الاسمية التي تفيد ثباتهم على تلك الأعمال، وتقديمِ ما حقه التأخير الذي يفيد شدة اعتنائهم بها، والإتيانِ بضمير الفصل الذي يفيد ذلك مع التأكيد.

أيها المسلمون، لقد افتتح الله تعالى هذه الصفات بحرف (قد) الداخلِ على الفعل الماضي، وفائدة هذا الحرف التحقيق والتأكيد بأن الفلاح قد حصل وتمّ لمن تمسك من المؤمنين بهذه الأعمال الصالحة؛ ابتغاء وجه الله تعالى ومات على ذلك.

ومن حُسن الافتتاح لهذه الصفات والترغيب في التحلي بها: أنه ذكر الفلاح بها أولاً قبل أن يذكرها؛ لكي يرغبك أيها الإنسان في التمسك بها حتى تنال ذلك الجزاء المقدَّم ألا وهو الفلاح.

إن هذه الصفات التي توصل إلى الفلاح والجنة لا يصح أن تكون إلا لمن اتصف بالإيمان الذي هو التصديق الجازم الذي لا يخالطه شك بكل ما يجب اعتقاده من الإيمان

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ثم تجيء الأعمال الصالحة بعد ذلك؛ ليكتمل سببا الفلاح؛ إذ لابد من إيمان وعمل صالح، صفاء في الباطن، وصفاء في الظاهر. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾[الكهف:١٠٧].

أيها الأحبة الكرام، أولى هذه الصفات لأهل الإيمان الذين نالوا بها الفلاح والفوز بالفردوس: الصلاة الخاشعة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ الصلاة تلك العبادة العظيمة التي هي صلة بين العبد وربه لبُّها الخشوع وهو الخوف الموجب لتعظيم الله تعالى. والخشوع بهذا المعنى مطلوب داخل الصلاة وخارجها، لكنه في الصلاة يكون أولى من غيرها؛ لأنها وقوف بين يدي الله تعالى. إن الخشوع عبادة قلبية تظهر آثارها على أعمال الجوارح، ففي الصلاة يحرص المؤمن الخاشع على إقامة الصلاة بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها. ويحرص على أن يكون حاضرَ القلب والذهن بين يدي ربه، واعيًا متدبراً ما يقرأ أو يسمع، ويكون بذلك مستفيداً من الصلاة بعد ذلك. قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[العنكبوت:٤٥].

ومما يعين المصليَ على الخشوع في الصلاة: أن يستحضر أنه بين يدي ملك الملوك، وأن يستشعر أنها قد تكون آخر صلاة يصليها فليتقنها، وأن يبعد عن نفسه كل ما يشغله عنها من الشواغل الحسية والشواغل المعنوية؛ ولهذا جاء نهي الشرع المصليَ عن الإتيان إلى الصلاة مسرعًا أو تاركًا لطعام يشتهيه، أو حاقنًا أو حاقبًا -يعني: حابسًا للبول أو الغائط-، قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون،

وأتوها تمشون عليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا»[(١)].

وقال ﷺ: «لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان»[(٢)].

فالخشوعَ الخشوعَ -يا عباد الله- تفلحوا، وتلتذوا بصلاتكم.

عباد الله، ثانية هذه الصفات: الإعراض عن الباطل من قول أو فعل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص:٥٥]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[الفرقان:٧٢].

إن أهل الإيمان حريصون على عدم مواقعة ما يضر.آخرتهم، فهم مشغولون بالله عن غيره، مهتمون بما يعنيهم، وتاركون لما لا يعنيهم، مقبلون على شأنهم، فأكثر الناس في شؤون وهم في شأن آخر.

فألسنتهم محفوظة عن السوء والفحشاء، وجوارحهم مصونة عن الشر والعدوان. فعبادة الله تعالى، والإحسان إلى الناس، وتفريج كرباتهم مما يعنيهم. ومعصية الله تعالى، والاعتداء على الناس، والانصراف إلى ما يضيع الأعمال والجهود والأوقات مما لا يعنيهم. قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[(٣)].

وإن مما يعينك-أيها المسلم- على ترك اللغو: أن تعرف الغايةَ التي خُلقت لأجلها، والنهاية التي تنتظرك، فاعمل لها وانشغل بها ولا تنشغل عنها. وأن تعلم أن ما تعمله

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه، وهو حسن.

مسجل لك أو عليك، وأنت عليه مثاب أو معاقب، فانظر لنفسك أيَّ الأمرين تختار.

والصفة الثالثة: تزكية النفس وتزكية المال، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾. إن الزكاة في أصل وضعها اللغوي تعني: التطهير، والنفس الإنسانية مليئة بالنقائص والعيوب، وقد كُلِّف الإنسان بإصلاحها وتقويم عوجها. وضُمِن الفلاح لمن نجح في ذلك، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[الشمس:٩-١٠]. فالمؤمن يطهر نفسه من الاعتقادات الفاسدة، والأفكار المنحرفة، والأخلاق السيئة، ويجعلها صافية خالصة من شوائب الرذائل. فإذا فعل ذلك فقد أفلح في الدنيا والآخرة. إن من الأخلاق النفسية الرذيلة: خلقَ الشح والبخل، الذي يجعل الإنسان مقصراً في أداء الحقوق التي عليه لغيره؛ ولذلك شرع الإسلام زكاة المال؛ لتطهير النفس وتطهير المال. فإخراج الزكاة مطهرة وأجر، وزيادة ونقاء، فلا يظن صاحب المال أن إخراج الزكاة نقص وخسارة، قال رسول الله ﷺ: «ما نقص مال عبد من صدقة»(١).

فإذا أردت الفلاح -أيها المسلم- فزكِ نفسك وزكِ مالك، وإياك أن تطيع النفس في السير وراءها إلى أهوائها المحظورة، فمن أصلح نفسه صلحت دنياه وآخرته.

أيها الأحبة الأفاضل، الصفة الرابعة: حفظ الفروج عن الحرام، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾. إن الرغبة الجنسية فطرة وطبيعة في الإنسان البالغ تطلب من صاحبها التصريف والخروج، وقد جعل الله تعالى لها سبيلاً صالحاً نظيفًا نافعًا هو الزواج، الذي هو سبب العفة والسعادة، والذرية وكثرة

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

الأمة، وتعارف الناس وتقاربهم، وصلاح هذه الحياة. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم:٢١].

هذا هو الطريق الصالح النقي لتصريف هذه الرغبة الجِبلِّية، وهو الذي يحفظ للإنسان شرفه وسمعته الحسنة بين الناس، ويعينه على طاعة الله تعالى وعلى إصلاح عيشه.

غير أن بعض الناس غلب عليهم الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، وجلساء الخطيئة على تصريف الشهوة في الزنا أو اللواط أو العادة السرية. وهذه المجالات العفنة تهدم الدين، وتهد البدن، وتفسد المجتمع، وتجلب الكوارث والمصائب على الناس. قال رسول الله ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»(١).

إن الحياة المعاصرة بوسائل اتصالها وإعلامها الحديثة، وغياب إقامة حدود الله تعالى، وكثرة الجهل هذه الأمور وغيرها دعت بعض الذكور والإناث إلى الغرق في مستنقع الرذيلة، ولم ينتبه بعضهم إلا وهو غارق في وحلها يطلب قوارب النجاة، بعد أن باع دينه ودنياه بشهوة عاجلة، ولذة عابرة، وقد يخسر بها الدنيا والآخرة.

فالحذرَ الحذرَ، والنجاةَ النجاة قبل الفضيحة في الدنيا والآخرة.

وأقول: على الأزواج أن يتقوا الله في إعفاف زوجاتهم، وعلى النساء أن يتقين الله في إعفاف أزواجهن، وعلى من لا يجد أن يصبر ويدعو الله حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجاً. قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي، وهو صحيح.

فَضْلِهِ﴾[النور:٣٣].

عباد الله، الصفة الخامسة: أداء الأمانة، والوفاء بالعهود، قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾. الأمانة هي كل حق وجب على الإنسان حفظه وأداؤه لأهله؛ فعبادة الله تعالى أمانة، والحكم أمانة، والوظيفة أمانة، والحقوق الزوجية أمانة، وتربية الأولاد أمانة، وردُّ الوديعة أمانة، والبيع والشراء أمانة، والأسرار التي يطلب كتمانها أمانة، والعلم أمانة، وإيصال الرسائل إلى أهلها كما هي عليه أمانة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[النساء:٥٨].

والعهود حقوق يجب الوفاء بها، وأعظمها العهد مع الله تعالى، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾[المائدة:١].

وخلف العهود علامة من علامات النفاق، قال النبي ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(١).

ويقرب من العهود: الوعودُ التي قطعها الإنسان على نفسه، فمن الإيمان ومن الكرم: الوفاءُ بها لأهلها، قال تعالى في صفة نبيه إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾[مريم:٥٤].

وكثرة إخلاف الوعود من صفات المنافقين، قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

أيها الإخوة الفضلاء، والصفة السادسة: المحافظة على الصلاة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. والمحافظة على الصلاة تعني: الاستمرار عليها، والمداومة على إقامتها في وقتها بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها. وشأن الصلاة في الإسلام في المنزلة المرموقة، وفي فضلها تنزلت الآيات، ووردت الأحاديث الصحيحات، وجاءت الآثار عن الأخيار الأبرار، ويكفي في مكانتها أنها الركن الثاني من أركان الإسلام، وأنها أول ما يحاسب عليه العبد من عمله يوم القيامة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها المسلمون، إن هذه الصفات الصالحة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيات الكريمات كانت للمؤمنين من أسباب فلاحهم ودخولهم الجنة؛ فلذلك ذكر الله تعالى الجزاء الطيب لأهلها عقبها فقال: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

فذكر الله تعالى استحقاقهم للفردوس بلفظ الوراثة التي هي من أعظم أسباب استحقاق المال. والفردوس: أوسط الجنة وأعلاها، كما قال رسول الله ﷺ: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن»(١).

فنعمت الكرامة، ونعمت الجائزة الطيبة على هذه الأعمال الصالحة.

فيا من كان بعيداً عن الصلاة الخاشعة اقرب وادنُ منها، وحافظ عليها وعلى خشوعها، تَنَلِ الفردوس.

ويا من شغل نفسه بما لا يعنيه، وسلط لسانه فيما لا ينفعه ولا يرضيه عند لقاء حسابه، احفظ لسانك، واحفظ قولك وفعلك تنل الفردوس.

ويا من لم يزكِ نفسه، وقصّر في زكاة ماله زكِ نفسك ومالك تنل الفردوس.

ويا من صرف شهوته الجنسية فيما حرم الله عليه تُب إلى الله وارجع إليه، واكتفِ

---

(١) رواه البخاري.

بالحلال ففيه غُنية للمؤمنين تنل الفردوس.

ويا من قصر في أداء الأمانات، وخان العهود والوعود والمواثيق، فِ بالعهود والوعود، وأدِّ الأمانة للعابد والمعبود تنل الفردوس.

فإذا فعلت ذلك نلت الفلاح والنجاح، وحزت السعادة في دنياك وأخراك.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل هذه الصفات وأن يتوفانا على ذلك.

هذا وصلوا على البشير النذير...

نعمة الحُبِّ ونقمته(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

سقا اللهُ روضَ الحُبِّ بالطَّلِّ والنَّدى ... ودامَ شذِيَ العَرْف ما بقيَ الدهرُ
فإني رأيتُ العيشَ إن صار عاطلاً ... من الُحب قبراً لا يطيب به العمر

أيها الناس، كلمة من حرفين يحتويان على معانٍ رقراقة، ومشاعر دفاقة. إنهما حرفان تلتذ بهما اللسان، وتستريح لهما الأسماع، وتشتاق إليهما القلوب. حرفان يبنيان في القلوب مراكز للأمر والنهي، ليتحول الإنسان إلى مسالك ما كان يسلكها، وميولٍ

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في٢٧/٢/١٤٣٦هـ، ١٩/١٢/٢٠١٤م.

ما كان يميل إليها. تكوّنت من هذين الحرفين كلمة من أجمل كلمات المعجم العربي، فظهرت قليلةَ المبنى، عميقة المعنى، تتنعم الشفتان بنطقها، وأسْرِ آخر حرفيها، كأنهما حينما تنطقان بهما تهديان للعالم قُبلة رائعة.

هذه الكلمة ذات الحرفين كلمة جميلة، لكن الإعلام غير الجميل دنسها عندما اختزلها في مستنقعات آسنة أورثت الخطيئة، وصوّرتْ الجريمة عزاً وبطولة.

فبعض الناس إذا سمعوا كلمة "حُب" انصرفت أذهانهم إلى العشق الجنسي- والغرام الغريزي؛ لأن الإعلام بمسلسلاته وأغنياته وقصصه ورواياته وشعره ونثره اختصر محتويات هذه الكلمة بعلاقة بين رجل وامرأة على بساط الهوى، وآفاقِ كسر ضوابط الإسلام، وهتكِ أستار الفضيلة والعادات الحسنة.

أيها المسلمون، إن الناس مختلفون في الجهات التي يُصرف إليها الحب؛ فلذلك صار الحب نعمة عظيمة على بعض الناس، ونقمة شديدة على آخرين.

فالحب إذا اتجه إلى سبيله الصحيح بُنيت به الحياة، وعُمرت به الأرض، وسعد سكانها، وتلذذت الروح، واستراح البدن، وصلحت الدنيا والآخرة.

عباد الله، إن أعظم من يُصرف له حبُ المحبين، ووداد الوادّين، هو الله رب العالمين سبحانه وتعالى. فالمحب الصادق لله تعالى يحب ذاته وأسماءه وصفاته، وأفعاله ودينه الذي شرعه. وكيف لا نحب الله تعالى حبًا لا يعلوه حب، وهو ذو الكمال والجلال والجمال. وكيف لا نحب الله عز وجل وهو الذي خلقنا ورزقنا وصوّرنا فأحسن صورنا، كفانا وآوانا، وحمانا وأعطانا. إن أحسنا آجرنا وأثابنا، وإن أسأنا حلم علينا وأمهلنا، وإن تبنا رحمنا فغفر لنا. وكيف لا نحب ربنا تبارك وتعالى، وكل خير نحن فيه فمن عنده، وكل شر دُفع عنا فمن فضله.

أيها الأحبة الفضلاء، إن محبة الله تعالى ليست دعوى تقال على اللسان، أو تكتبها البنان، بل هي عقيدة في القلب، وعمل صادق على الجوارح، واستقامة تامة على ما يحب الله ويرضى.

ولذلك كذَّبَ اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى الذين زعموا حبه وهم يعصونه فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[المائدة:١٨].

قال الشاعر:

تعصي الإلٰه وأنت تزعم حبه	هذا لعمري في القياس شنيع
لو كان حبك صادقًا لأطعته	إن المحب لمن يحب مطيع

إن المحب لله تعالى حبًا صادقًا يستريح إذا سمع ذكر الله تعالى، ووصل إلى سمعه ذكرُ أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[الرعد:٢٨].

بخلاف المشركين به الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الزمر:٤٥].

والمحب لله حبًا صادقًا مسارعٌ إلى طاعة الله، بطيئًا إلى معصيته، فمن أحب الله أطاعه واتبع رضاه.

والمحب لله تعالى يؤثر ما يرضي الله على ترضاه نفسه، فيقدم ما يحب الله على ما تحبه النفس، فإذا حضرت الصلاة فإن المحب ينطلق إلى إجابة داعي الله، وإن كانت

النفس تحب الخلود إلى الراحة أو الانشغال بالكسب.

وإذا كان بين المسلمين فقر وحاجة ويتمٌ وفاقة -وكان المسلم المحب صاحب مال- فإنه ينفق في هذه السبل، وإن كانت النفس تحب الإمساك والبخل.

والمحب الصادق لله تعالى يحب ما يحب الله، ويكره ما يكره الله، فالله يحب الطاعة وأهلها، ويكره المعصية وأهلها؛ ولذلك فهو يحب أهل الطاعة لطاعتهم، ويكره أهل المعصية لمعصيتهم. قال رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول يوم القيامة: «أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته ملكًا فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحبه في الله، قال: فإني رسول الله إليك إن الله قد أحبك كما أحببته فيه(٢).

والمحب الصادق لا يقدّم على حب الله حبَّ أحد، مهما كان محبوبًا إلى النفس، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤].

أيها المحب الصادق لله تعالى، يكفيك غنمًا أن الله يحبك ما دمت صادقًا وتحبك ملائكته وعباده المؤمنون، قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

فقال: إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله تعالى يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»(١).

فالمحب لله يحسن عبادة الله ويحسن إلى عباد الله، والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة:١٩٥].

والمحب لله يتقي الله فيعمل بأوامره وينتهي عن نواهيه، والله يقول: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران:٧٦].

والمحب لله يعدل في حكمه، والله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[المائدة:٤٢].

والمحب لله كثير التوبة، طهور الظاهر والباطن، والله يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[البقرة:٢٢٢].

أيها المسلمون، إن نعمة الإسلام التي ننعم بها هي فضل من الله تعالى، جاءت عن طريق رسوله محمد ﷺ، أفلا يستحق نبينا وحبيبنا، وقرة عيوننا محمد ﷺ أن نحبه حبًا عظيمًا؟ بلى يستحق؛ فكل خير نحن فيه في هذا الدين فمن الله تعالى، أرشدنا إليه هذا النبي الكريم، فما من خير إلا وقد دلنا عليه، وما من شر إلا وقد حذرنا منه.

إن محبة رسول الله ﷺ تعني اتباع سنته والعمل بهديه، ومحبة ما يحب، وكره ما يكره، وهذا من محبة مُرسِله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[آل عمران:٣١].

---

(١) رواه مسلم.

إن من أمارات حب رسول الله ﷺ: طاعتَه، والبعدَ عن معصيته، وهذا طريق الجنة، قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا: ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(١).

ومن أمارات حبه: تقديم حبه على كل محبوب من البشر، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٢).

والعاقبة الحسنة للمحب الصادق لرسول الله ﷺ أن يكون معه في الجنة، فعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: «متى الساعة؟ قال: وما أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت، قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت»، قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم(٣).

أيها الأحبة الكرام، ومن مجالات الحب المحمود: حبُّ العمل الصالح؛ لأنه يقرب إلى محبة الله، فالمسلم الصادق يحب تلاوة القرآن؛ ولذلك يكثر من قراءته، والعمل به، وترك هجره.

ويحب الصلاة؛ ولذلك يحافظ عليها في الأماكن التي يحب الله أن تقام فيها، فيجد بذلك راحته وأنسه.

قال رسول الله ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»(٤).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أحمد والنسائي والبيهقي، وهو صحيح.

ومن مجالات الحب المحمود الذي يصير نعمة على صاحبه: حب المسلمين، وحب الخير لهم. فالمسلم الذي يحب المسلمين يكرمهم ويرفق بهم ويرحمهم، ويتعاون معهم، ويصنع لهم المعروف ما استطاع لذلك، ويبتعد عن إيذائهم بالقول أو بالعمل.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨].

وقال رسول الله ﷺ: «اللّهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به»(١).

عباد الله، إن من المشكلات التي يعانيها المسلمون اليوم: جفاف ثقافة الحب بين المسلمين، فلو تمثلوا هذه الثقافة في واقعهم العملي لاجتمعوا واتحدوا، ولرحلت من بينهم الشحناء والبغضاء والتقاتل والتمزق.

قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٣).

معشر المسلمين، إن من أحق الناس بمحبة الإنسان: والديه اللذين أحسنا إليه، وتعبا من أجله، فلهم بذلك نصيب من الحب والعطف والحنان، ويصدق ذلك الحب ببرهما وطاعتهما والبعد عن عقوقهما.

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[العنكبوت:٨].

أيها الأحباب الكرام، إن من المجالات الخصبة التي ينبغي أن يقيم فيها الحب وينصب عليها خيامه: الحياةَ الزوجية. قال تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم:٢١].

لقد خلق الله تعالى في الرجل ميلاً فطريًا إلى المرأة، وخلق كذلك في المرأة الميل إلى الرجل، ؛ لأن هذا الانجذاب سبب لإقامة الأسرة التي يقوم عليها المجتمع وتستمر بها الحياة. والحياة الزوجية إذا كانت محاطة بالحب ألفى فيها الزوجُ راحتَه من العناء، وأُنسه من الوحشة حتى يذوق طعم الحياة، وكذلك تجد فيها الزوجة سعادتها وأنسها وعزها. فالحياة الزوجية بستان لا يزدهي ولا يطيب إلا بسقيه بماء الحب، فإن جفّ عنه ذلك الماء صار قائمه إلى ذبول، وذهب نجمه إلى أفول. لكن ذلك لا يعني أن تسلم الحياة من المكدرات والمشكلات، فحرارة الحب الزوجي ستمرُّ بها رياح التغيير فتطفئ بعض وهجها ولابد، روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه جاءه رجل يريد تطليق امرأته، فلما سأله عمر عن سبب ذلك: فقال: إنه لا يحبها، فردَّ عليه عمر رضي الله عنه: "وهل لا تُبنى البيوت إلا على الحب؟! "، وقال عمر رضي الله عنه - أيضاً - لامرأة سألها زوجُها: هل تبغضه؟ فقالت: نعم، فقال لها عمر: " فلتكذبْ إحداكن، ولتجمل، فليس كل البيوت تُبنى على الحب، ولكن معاشرة على الأحساب، والإسلام ".

فالخلافات، وتعقّد العلاقات أمر وارد على الحياة الزوجية، غير أن هذه المكدرات كالجدب الذي لا يدوم إذا عاد إلى الروض الزوجي وابلُ الحب، وعولجت المشكلات علاجًا صحيحًا ورجع الزوجان إلى الشرع والعقل. متذكرينِ رباط الزوجية الوثيق،

وودهما القديم العميق، والعلاقة الطاهرة التي لا تنسى فيها أيام الحب.

قلِّبْ فؤادَك حيث شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأول

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأولِ منزل

أيها المسلمون، ومن مجالات الحب المحمود: حب الأولاد الذين هم ثمرة الفؤاد، وفلذات الأكباد، وزينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف:٤٦].

فللأولاد نصيبٌ من حب الوالدين، وحظ من حنانها عليهم؛ لأن ذلك يساعد على نموهم العقلي والجسمي والنفسي والعاطفي. وأي بيت لا يجد فيه الأولاد طعم الحب والعطف فإن ذلك يربي في نفوسهم الكراهية والعُقد النفسية، والميل إلى الانتقام، وربما لَعقوا رُضابَ الحب والغرام من أفواه الحرام.

فما أحسنَ الحب للأولاد إذا خلط ببلسم الحزم والتربية الحسنة.

فقساْ ليزدجروا ومن يكُ راحمًا فليقسُ أحيانًا على من يَرحم

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروا إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، وبضدها تتميز الأشياء، فحتى تكتمل الصورة كان من المهم أن نتعرف على نقمة الحب كما تعرفنا على نعمة الحب؛ وذلك حينما رأينا انحراف الحب عن مساره الصحيح.

فمن صور نقمة الحب على صاحبه: حب الأنداد والنظراء الذين تُقدَّم طاعتهم وحبهم على طاعة الله وحبه، سواء كانوا من البشر أم من غيرهم. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

ومن صور نقمة الحب: أن يبلغ الأمر ببعض من يدَّعي حب رسول الله ﷺ أن يسأله جلب المنافع ودفع المضار، فيسأله الأولاد، والرزق وسائر وجوه الخير، ويسأله دفع الفقر والمرض وسائر وجوه الشر، وهذه الأمور لا تُسأل إلا من الله تعالى.

ومن صور نقمة الحب: حب المعاصي وأهلها، حتى غدا بعض الناس يعشق الذنوب عشقًا لا يستطيع معه تركها وفراقها، فمنهم من يعشق الشرك، ومنهم من يعشق القتل، ومنهم من يعشق الزنا واللواط، ومنهم من يعشق السرقة، ومنهم من يعشق المخدرات والمسكرات. ويحب أهلها حبًا جمًا.

وهذه المحبة بين أصدقاء السوء على السوء تنقلب عداوة يوم القيامة، بخلاف أهل الطاعة والاستقامة.

قال تعالى: ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾[الزخرف:٦٧].

ومن صور نقمة الحب: حب المال حبًا يجاوز الحب المشروع، فهناك من الناس من طبع الطمع في قلبه فأصبح يحب جمع المال من وجوه الحلال والحرام ولا يبالي، سواء من المال العام أم من المال الخاص.

قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ: أمن الحلال أم من الحرام»(١).

أيها الأحبة الفضلاء، ومن صور نقمة الحب: أن يزجّ الإنسان بنفسه في لُجج الهوى وأمواج العشق الحرام، فيسعى إلى ربط علاقات مع نساء، وكذلك نساء مع رجال، عبر وسائل التواصل الاجتماعي أو غيرها. وهذه نقمة عظيمة تسوق صاحبها إلى الأوجاع والآلام والأَسر والذل والفضيحة، وقد تكون سبب الشقاء في الدنيا والآخرة.

سُئلت أعرابية عن الهوى، فقالت: الهوى هو الهوان وإنما غُلِط باسمه، واشتُقّ من طبعه، ولن يعرف ما أقول إلا من أبكته المنازل والطلول؛ وأنشأت تقول:

ليت الهوى لذوي الهوى لم يُخلقِ ... بلْ ليت قلبي بالهوى لم يَعلَق
إن الذي عَلِقَ الهوى بفؤاده ... كمنوَّطٍ دون السماء مُعلَّقِ
لا يستطيع نزولَه لشقائه ... لكنْ إليه كلُّ همٍّ يرتقي

وقال أبو تمام:

أما الهوى فهو العذابُ فإن جَرَتْ ... فيه النَّوى فأليمُ كلِّ أليم

وقال أيضًا:

---

(١) رواه البخاري.

نونُ الهوانِ من الهوى مسروقةٌ فإِذا هويتَ فقد لقيتَ هوانا
وإِذا هويتَ فقد تعبَّدكَ الهوى فاخضعْ لإِلفِكَ كائناً من كانا

ولا مانع -أيها الأحبة- أن يحب المرء امرأة ويسعى إلى الزواج بها عبر الطريق المشروع ويأتي البيوت من أبوابها، بدلاً من سلوك الطرق السيئة التي قد تضر الرجل والمرأة أو أحدهما.

فيا أيها المسلمون، رِدُوا مناهلَ الحب الصافي في نعمة الحب وتضلّعوا منها حتى تُرُوا أنكم قد صدقتم الحب، وإياكم ورودَ مستنقعات الحب الكدِر في نقمة الحب؛ فإن الارتواء منها ظمأٌ يهدَّ البدن، ويذبل الروح، ويُضِلُّ العقل في متاهات لا مدى لها. وإن الظمأ منها رِيُّ الأرواح والأبدان والعقول.

هذا وصوا وسلموا على خير البشر...

آداب السفر وأحكامه(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق القول قول الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الحياة الدنيا دارٌ لا إقامة لها، ولا بقاءَ لأهلها عليها، إلا ريثما يستوفون أرزاقهم وآجالهم فيها، ثم يرحلون عنها إلى دار أخرى، وهم فيها يتنقلون من حال إلى حال: يذهبون ويجيئون، ويقيمون ويسافرون، ويستقرون ويظعنون، إنها حياة لا تؤمن بالسكون والقرار، وإنما تؤمن بالحركة والانتقال من شأن إلى شأن، ومن دار إلى دار، فهي سِفْرٌ فيه أسفارٌ من العبر والعظات، وسَفَرٌ فيه أسفارٌ معدودات وغير

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٣/٥/١٤٣٧هـ، ١٢/٢/٢٠١٦م.

معدودات.

عباد الله، إن ساكن هذه الدنيا له فيها سَفرتان عامتان: سفرة إلى جوانب هذه الدار لمآرب دينية، أو لمآرب دنيوية، وسفرة إلى الدار الآخرة يلقى فيها جزاء ما قدم في رحلته الدنيوية حتى يصل إلى وطن القرار: إما في الجنة، وإما في النار، نسأل الله تعالى من فضله، ونعوذ به من سخطه.

إن السفر إلى أرجاء هذه الدنيا حاجة من الحاجات الإنسانية، وقد تكون ضرورة من الضرورات التي يلجأ إليها الإنسان؛ ولهذا ضبطها الإسلام بآداب وأحكام حتى يكون السفر نافعًا غير ضار، فإذا تفقه المسلم في آداب سفره وأحكامه نال خيراً كثيراً.

أيها المسلمون، إن سفر المسلم من مكان إلى آخر تجري فيه الأحكام الخمسة: فقد يكون سفراً واجبًا كالسفر لأداء فريضة الحج لمن وجبت عليه، وكالسفر للجهاد في سبيل الله إذا تعيّن، وقد يكون السفر مستحبًا؛ كالسفر للعمرة ولحج التطوع، وقد يكون السفر محرمًا؛ كالسفر لارتكاب معصية؛ مثل الفاحشة، أو التجارة المحرمة، وقد يكون السفر مكروهًا؛ كمن سافر لغير مقصد فشغل في سفره عن العمل الصالح غير الواجب، وقد يكون السفر مباحًا؛ كالسفر لطلب الرزق.

عباد الله، إن حصول الإنسان على حاجاته، ونيلَه ما يبتغيه من أمور حياته في وطنه بين أهله وأقاربه نعمة عظيمة؛ لما في الإقامة بين الأحباب من الراحة، وجمعِ الشمل، وهدوء البال، وتمامِ العفة، وزوال أوجاع البُعد وحبِّ اللقاء. لكن الإنسان قد لا يبقى على ما يحب دائمًا؛ فقد يضطر إلى مفارقة محبوباته، وركوب صهوة السفر فراراً بدينه؛ كما فعل الخليل إبراهيم عليه السلام، ورسولنا صلى الله عليه وسلم والمهاجرون من أصحابه، أو خروجًا لطلب العلم؛ كما فعل موسى في رحلته إلى الخضر عليهما السلام، وفعل غيره

من أهل العلم من هذه الأمة، أو خروجًا لطلب الرزق؛ كما فعل ويفعل سائر الناس. يقول تعالى -ممتنًا- على الوليد بن المغيرة الذي أنعم الله عليه بنعم كثيرة ولم يشكرها، بل استمر في كفره، فكان منها: أن الله تعالى جعل أبناءه حضوراً معه في مكة لا يغيبون عنه، قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ❁وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ❁ وَبَنِينَ شُهُودًا ❁ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾[المدثر: ١١-١٤]، وقال تعالى -مبينًا ما في السفر من تعب- في قصة موسى مع الخضر: ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾[الكهف: ٦٢]، وقال رسول الله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته -أي: حاجته- من وجهه فليعجل إلى أهله»(١).

قال النووي رحمه الله: "معناه: يمنعه كمالها ولذيذها -أي: النوم والطعام والشراب-؛ لما فيه من المشقة والتعب، ومقاساة الحر والبرد والسُرى والخوف، ومفارقة الأهل والأصحاب، وخشونة العيش".

وقد سئل الجويني رحمه الله: لمَ كان السفر قطعة من العذاب؟، فقال: "لأن فيه فراقَ الأحباب".

أيها المسلمون، ومع التعلق بالأهل والوطن، والمألوفات والسكن، إلا أن للسفر والتنقل بين الديار فوائد ومنافع تعود بالخير على روح العبد وبدنه وعقله، كان بعض الصالحين يقول: "سيحوا تطيبوا؛ فإن الماء إذا ساح طاب، وإذا طال مقامه في موضع تغير".

تنقَّلْ فلذاتُ الهَوى في التَّنقلِ ... ورِدْ كلَّ صافٍ لا تقفْ عندَ مَنْهلِ

(١) متفق عليه.

ففي الأرضِ أَحبابٌ وفيها مناهلٌ فلا تَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزل

فمن منافع السفر: الاستزادة من العلم والمعارف والخبرات-خاصة العلوم الشرعية-؛ فالسفر لها من الأعمال الهادية إلى التوفيق للخير في الدنيا والآخرة، قال رسول الله ﷺ: «ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقًا إلى الجنة»(١).

ومن منافع السفر وفوائده: الإعانة على التفكر في مخلوقات الله، والنظر فيها، وأخذ العبرة منها، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦].

ومن فوائد السفر ومنافعه: القيام ببعض الطاعات كالحج والعمرة والدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله، وزيارة أهل الخير والصلاح والعلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: (أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز و جل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)(٢).

ومن منافع السفر وفوائده: الحصول على سبل الرزق الحسن، حينما تضيق الحال بالإنسان في محل إقامته، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[الملك:١٥]، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

"الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة"، وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

تغرَّبْ عن الأوطانِ في طلبِ العلى   وسافرْ ففي الأسفارِ خمسُ فوائد
تفرُّجُ همٍّ واكتسابُ معيشةٍ   وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجد

وقيل لأعرابي: "إنكم لتكثرون الرحل والتحول وتهجرون الأوطان! فقال: إن الوطن ليس بأب والد، ولا أمٍّ مرضع، فأي بلد طاب فيه عيشك، وحسنت فيه حالك، وكثر فيه دينارك ودرهمك، فاحطط به رحلك، فهو وطنك وأبوك، وأمك وأهلك.

وكان عروة بن الورد الجاهلي كثير الأسفار، ومن الحاثين عليه، فقال يخاطب زوجته عندما لامته على ذلك:

دَعيني أُطَوّفْ في البلادِ لَعَلّني   أُفِيْدُ غنىً فيه لذي الحقِّ مَحْمَلُ
أَلَيْسَ عظيماً أنْ تُلِمَّ مُلمَّةٌ   وليس علينا في الحقوقِ مُعَوَّلُ

أيها الأحبة الفضلاء، إن السفر عمل من الأعمال التي جعل لها الإسلام آدابًا توجهها إلى الطريق الصحيح، وتجعلها من السبل التي تُنال بها الأجور، ويُتقرب فيها إلى الله تعالى، وهذه الآداب منها ما يكون قبل إنشاء السفر، ومنها ما يكون أثناء السفر، ومنها ما يكون مع العودة من السفر.

فمن الآداب عند نية السفر: أن يستخير المسافر ربه تعالى في سفرته التي ينويها؛ ليطلب بذلك توفيق الله وعونه واختياره له، والاستخارة أدب جاء به الإسلام فمحى به ما كان يعتاده أهل الجاهلية إذا أرادوا المضي في أمرٍ ما- ومنه السفر- حيث كانوا يتطيرون بحركات الطيور، فما ولى المسافرَ منها ميامنَه تفاءل وسافر، وما ولاه مياسرَه تشاءم وقعد.

وعلى المسافر كذلك: أن يستشير أهل الخبرة والعقول والمعرفة، ويستأذن والديه إن كانا حيينِ أو أحدهما، ثم يمضي بعد ذلك إلى وجهته، ومن الآداب: أن يتوب المسافر إلى الله تعالى من جميع ذنوبه، ويتخلص من المظالم التي عليه -إن كانت- فربما وافاه الأجل في سفرته قبل عودته، فما أحسن أن يلقى المسلم ربه نقيًا من الذنوب، خفيفًا من حقوق الناس! قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان:٣٤]، ومن الآداب: أن يوصي المسافر وصية مكتوبة في الحقوق التي له على الناس، وفي حقوق الناس عليه، وهذه وصية واجبة، وله أن يوصي أهله وغيرهم بتقوى الله وغير ذلك مما يريد من الخير بعده، وهذه وصية مستحبة، قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»(١).

وعلى المسافر أن يتزود من المال الحلال بما يكفيه في سفره، وأن تكون أوراقه التعريفية به معه، مصطحبًا معه بعض الأرقام الهاتفية لأقاربه في جواله أو في دفتر له، إن دعت حاجة لذلك.

ومن الآداب أن يعلم أحبابه بسفره ليظفر بدعائهم؛ فإنه من الخير للمسافر، ويودعهم ويصافحهم؛ فقد كان من هدي رسول الله ﷺ توديع المسافرين، وتوديع المسافرين له، والدعاء والوصية بالخير لمن سافر، ولمن أقام، فعن موسى بن وردان قال: أتيت أبا هريرة أودعه لسفر أردته، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: ألا أعلمك -يا ابن أخي- شيئًا علمنيه رسول الله ﷺ أقوله عند الوداع؟ قلت: بلى، قال: قل:

---

(١) متفق عليه.

«أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»[١]، هذا يقوله المسافر للمقيم، وأما المقيم فيقول للمسافر ما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ودع رجلاً أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو يدع يدَ النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: «استودع الله دينك وأمانتك، وآخر عملك»[٢]، وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني أريد سفراً فزودني، قال: «زودك الله التقوى، قال: زدني، قال: وغفر ذنبك، قال: زدني - بأبي أنت وأمي- قال: ويسر لك الخير حيثما كنت»[٣].

ومن الآداب والأحكام -معشر المسلمين- أنه لا يجوز للمرأة المسلمة أن تسافر إلا مع زوج أو ذي محرم؛ لأن سفرها بدون ذلك يعرضها للخطر، ويعرض غيرها للفتنة بها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها»، وفي رواية: «مسيرة يوم» وفي رواية أخرى: «مسيرة ليلة إلا ومعها رجل ذو حرمة منها»[٤].

أيها الأحبة الفضلاء، إذا انطلق المسافر في وجهة سفره فإنه محتاج إلى أدب التقوى؛ لأن التقوى هي حارسه الأمين الذي يمنعه من معصية الله تعالى-خاصة في هذا الزمن- الذي تُفتح فيه في بعض الأماكن أبوابُ الحرام للمسافرين وغيرهم، فإذا كان الإنسان يستحي من المعصية في وطنه وبين أهله فليستح كذلك من الله في سفره فهو أحق أن يستحيى منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت...»[٥].

---

(١) رواه ابن ماجه والنسائي وأحمد، وهو صحيح.

(٢) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٣) رواه الترمذي وابن خزيمة، وهو حسن.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه أحمد والترمذي، وهو حسن.

ومن أدب المسافر عند ركوب وسيلة النقل للسفر: الدعاء بدعاء السفر، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[الزخرف:١٣-١٤]، اللّهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللّهم هوّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنا بعده، أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللّهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل"، وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون[(١)].

ومن الآداب في السفر: أن يكون المسافر ذا خُلق حسن، ومعاملة طيبة مع الناس في سفره، قال رسول الله ﷺ: «وخالقِ الناس بخلق حسن»[(٢)]، فالسفر مختبر تُعرف فيه أخلاق الإنسان وطباعه: حسنها وقبيحها؛ ولذلك قيل: "السفر ميزان الأخلاق"، وأُثني على رجل بين يدي عمر رضي الله عنه فقال للمثني: "هل عاملته، هل سافرت معه"؟ وقيل: "إذا أثنى على الرجل معاملوه في الحضر، ورفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه".

ومن آداب المسافر: أن يسعى في مساعدة الآخرين، وإعانتهم على قضاء حوائجهم، وهذا من براهين الأخلاق، وأدلة التواضع، قال مجاهد بن جبر رحمه الله: "صحبت ابن عمر رضي الله عنهما لأخدمه، فكان هو يخدمني"، وقال أنس رضي الله عنه: "خرجت مع جرير بن عبد الله في سفر فكان يخدمني"-وجرير أكبر سنًا من أنس.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد والترمذي، وهو حسن.

ومـن الآداب في السـفر: الإكثـار مـن الـدعاء؛ فـإن دعـوة المسـافر مسـتجابة، قـال رسـول الله ﷺ: «ثـلاث دعـوات مسـتجابات لا شـك فيهـن: دعـوة المظلـوم، ودعـوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»[١].

ومن الآداب كذلك: استغلال الوقت في قضاء الحاجات الدينية والدنيوية التي سافر المسافر لأجلها، والبعد عن تضييع الوقت بما لا يعود على المسافر بالنفع، أما إذا كان المسافر من أهل العلم الديني أو الدنيوي فليجعل من وقته-إن استطاع- ما يدّون فيه من مسائل العلم، أو يقرأ ما تيسر له قراءته من كتبه؛ فقد كان بعض العلماء يقضون في أسفارهم وقتًا للقراءة والتدوين؛ فابن القيم رحمه الله ألّف كتابه العظيم "زاد المعاد في هدي خير العباد" في سفرةٍ من أسفاره، وابـن حجـر رحمه الله ألـف مـتن "نخبـة الفكـر في مصطلح أهل الأثر" في إحدى سفراته، قال ابن الأمير الصنعاني في منظومته "قصب السكر نظم نخبة الفكر":

وبعدُ فالنخبةُ في عِلمِ الأثرْ مختصرٌ يا حبذا مِن مختصرْ
ألّفها الحافظُ في حالِ السفرْ وهْو الشهابُ ابنُ علي بنِ حجر

أيها الإخوة الكرام، فإذا قضى المسافر حاجاته في سفره، وحصّل ما قطع المسافات لأجله فهناك آداب يتحلى بها، فمنها: أن يعجل العودة إلى أهله ووطنه، قال رسول الله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه وشرابه، فإذا قضى أحدكم نهمته من وجهه فليعجل إلى أهله»[٢].

ومن الآداب: أن يُعلم أهله برجوعه؛ حتى يستعدوا لاستقباله، وتهيئة الأحوال

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وهو حسن.

٢» متفق عليه.

التي ترضيه، قال رسول الله ﷺ: «إذا قدم أحدكم ليلاً فلا يأتين أهله طروقًا؛ حتى تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة»[١]، ووسائل الاتصال الحديثة قد سهلّت حصول هذا الأدب.

ومن الآداب: أن يأتي المسافر العائد بدعاء السفر عند رجوعه، ويزيد فيه: (آيبون، عابدون، لربنا حامدون).

ومن الآداب: أنه يستحب له أن يبتدأ بالمسجد الذي بجوار منزله فيصلي فيه ركعتين، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: (وكان-يعني: رسول الله ﷺ- إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين)[٢].

ومن الآداب أيضًا: أن من كان قادراً يستحب له أن يصنع مأدبة طعام يدعو إليها الأقارب والجيران وغيرهم، وتسمى هذه الوليمة بالنقيعة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة نحر جزوراً أو بقرة)[٣].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

١» متفق عليه.

٢» متفق عليه.

٣» رواه البخاري.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد،

عباد الله، إن الإسلام قد أولى السفر عناية خاصة ببيان آدابه وأحكامه، ففي حديث الإسلام عن السفر نجد فيه مظاهر رحمة الله حاضرة في تشريع التيسير والرخص التي تخفف عن المسافر بعض عناء السفر؛ لأن السفر مظنة المشقة البدنية والنفسية غالبًا، وفي تشريع التخفيف في السفر في باب العبادات خاصة الصلاة ملحظٌ مهم وهو أن ديننا الحنيف حريص على أن يبقى المسلم مع العبادة دائمًا في حضره وسفره؛ فلذلك رخص للمسافر تخفيف الصلاة في عدد ركعاتها وفي صفتها، ولم يسقطها كلها عنه، فالحمد لله على نعمة الإسلام حمداً كثيراً طيبًا مباركًا، نسأل الله أن يديمها علينا، وأن يميتنا عليها.

أيها المسلمون، من رُخص الشريعة للمسافر: إباحة التيمم، بدلاً عن الماء عند عدمه، أو خوف الضرر من استعماله، وهذا مباح كذلك للمقيم، لكن المسافر قد يكون أكثر من المقيم فيه، خصوصًا في الأزمنة الماضية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة:٦]، وعن عمران بن حصين الخزاعي

أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلي في القوم؟». فقال: يا رسول الله، أصابتني جنابة ولا ماء قال: «عليك بالصعيد؛ فإنه يكفيك»(١).

ومن رخص السفر: أن للمسافر في مدة المسح على الخفين: ثلاثة أيام بلياليها، فعن علي رضي الله عنه قال: (جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر، ويومًا وليلة للمقيم)(٢).

ومن رخص السفر: جواز الجمع والقصر بين الظهر والعصر، والجمع والقصر بين المغرب والعشاء، تقديمًا أو تأخيراً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾[النساء:١٠١]،

وعن يعلي بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾ فقد أمن الناس! فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»(٣)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ إذا ارتحل قبل أن تزيغ الشمس أخر الظهر إلى وقت العصر، ثم يجمع بينهما، وإذا زاغت صلى الظهر ثم ركب)(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

ومن رخص السفر: جواز صلاة النافلة على الراحلة-أيًا كانت-، ولو إلى غير القبلة، فعن ابن عمر قال: (كان النبي ﷺ يصلي في السفر على راحلته حيث توجهت به، يومئ إيماء صلاة الليل، إلا الفرائض، ويوتر على راحلته)(١).

ومن رخص السفر: عدم وجوب صلاة الجمعة على المسافر، ولكن لو صلاها صحت منه، فقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم يسافرون ولم يثبت أنهم كانوا يجتمعون لصلاة الجمعة.

ومن رخص السفر: الفطر في نهار رمضان، قال تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[البقرة:١٨٤].

أيها المسلمون، أما المسافة التي يجوز فيها الترخص برخص السفر السابقة، فقد ذهب جمهور العلماء إلى تحديدها بالمسافة وهي (٨٠)كم فما زاد، وذهب بعض العلماء إلى تحديدها بالعُرف، فما سمي سفراً عرفًا تُرخِّص فيه، وما لم يسم سفراً عرفًا لا يترخص فيه، والله أعلم.

وأما المدة التي يبقى فيها المسافر مترخصًا برخص السفر -خاصة الصلاة- فخلاصتها على الراجح: أن المسافر إذا نوى الإقامة في بلدٍ أربعةَ أيام فأقل فإنه يترخص برخص السفر السابقة، وأما إذا نوى الإقامة أكثر من أربعة أيام فإنه لا يترخص برخص السفر، بل يكون في حكم المقيم، وأما إذا بقي في سفره متردداً لا يدري متى تنقضي حاجته، ولم يحدد زمنًا معينًا للإقامة فإنه يبقى مترخصًا، ولو طالت المدة حتى يحدد مدة أو يرجع، والله أعلم.

---

(١) متفق عليه.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار....

ابن الأمير الصنعاني: العالم العامل[1]

الحمد لله العلي الأكرم، الذي خلق القلم، وعلّم به الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على هادي الأمة ومرشدها، ومعلمها وقائدها، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد، فاتقوا الله–عباد الله–، فقد أمرنا الله تعالى بها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

واعلموا–رحمني الله وإياكم–أن أصدق القول قول الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[المجادلة:١١].

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٢٠/ شعبان/١٤٣٧هـ، ٢٧/٥/٢٠١٦م.

ويقول عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر:٢٨].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[الزمر:٩].

في هذه الآيات الكريمة وأمثالها بيان فضل العلماء بدين الله تعالى، الذين يعلمون العلم ويعملون به، فالآية الأولى تبين أن الله تعالى يعلي منزلتهم، ويرفع مكانتهم على سائر المؤمنين.

وفي الآية الثانية دلالة على أن العلماء الصادقين هم أهل الخشية الكاملة لله تعالى، فمن كان بالله أعلم كان منه أخوف.

وفي الآية الثالثة برهان على أن أهل العلم المخلصين لا يستوون في العلم والمنزلة والعمل مع غيرهم من الناس.

ويقول رسولنا ﷺ -مبينًا فضل العلماء وطلبة العلم وعلو منزلتهم-: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»(١).

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، وهو صحيح.

عباد الله، لهذا كان الواجب على الأمة أن ترفع من رفع الله، وتفضل من فضل الله، فالعلماء ممن رفع الله وفضّل، فينبغي أن يعرف لهم حقهم، ويُنزلوا منازلهم التي أنزلهم الله تعالى إياها؛ لكونهم عظماء عند الله، وناشري دينه، والذائدين عنه من شبهات المشبهين، وطعون الطاعنين.

قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، و يعرف لعالمنا حقه»(١).

أيها المسلمون، لقد زخرت الأقطار الإسلامية من قديم الزمان بعلماء أفذاذ أناروا للناس الطريق المستقيم، وحموا حمى الشرع القويم.

ومن بين تلك الأقطار الإسلامية: القطر اليماني، فقد كانت اليمن منذ القدم تزخر بالعلم والعلماء الذين درّسوا العلم، وأفتوا الناس، ودافعوا عن حياض الشريعة، وتركوا تركة كبيرة من المؤلفات النافعة، ومن يقرأ في كتاب: "البدر الطالع" للشوكاني، و"نيل الوطر"، و"نشر العرف" لزبارة، و"هجر العلم ومعاقله" للأكوع يجد عدداً كبيراً من العلماء الذين نبغوا في العلم، وإن لم يكونوا مشهورين في العالم الإسلامي، وهذا الخفوت لأعلام هذا القطر له أسبابه، فمنها: ما ذكره الشوكاني في ترجمة العلامة: الحسن الجلال، قال: "ولكن مع اعترافي بعظيم قدره، وطول باعه وتبريزه في جميع أنواع المعارف، وكان له مع أبناء دهره قلاقل وزلازل، كما جرت به عادة أهل القطر اليمنى من وضع جانب أكابر علمائهم المؤثرين لنصوص الأدلة على أقوال الرجال". يعني: أن التعصب المذهبي والفكري كان له دوره في هضم العلماء الأكابر المتحررين عن التعصب إلى الحق الصريح، والدليل الصحيح.

---

(١) رواه أحمد والحاكم، وهو حسن.

أيها الأحبة الفضلاء، معنا في هذا اليوم عَلَمٌ من أعلام الأمة عمومًا، وأعلام هذه البلاد خصوصًا، سارت بعلمه الركبان، وبقي اسمه مشرقًا في جبين الزمان، انحدر من نسل رسول الله ﷺ، فجمع الله تعالى له شرف النسب، وشرف العلم.

وقد سمي هذا الجامع العامر باسمه؛ تخليداً لمآثره الحسنة التي نفع بها أمة محمد ﷺ.

هذا العلم الشامخ، والطود الباذخ، والعلم الراسخ هو العلامة الكبير: ابن الأمير الصنعاني رحمه الله.

وهو: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد، ويمتد نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما.

وكان يلقب بابن الأمير، نسبة إلى أحد أجداده المعروف بالأمير يحيى بن حمزة.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في ترجمته: " الإمام الكبير، المجتهد المطلق، صاحب التصانيف، ولد ليلة الجمعة نصف جمادى الآخرة سنة ١٠٩٩هـ تسع وتسعين وألف، بكحلان[١] ثم انتقل مع والده إلى مدينة صنعاء سنة ١١٠٧هـ، وأخذ عن علمائها: كالسيد العلامة زيد بن محمد بن الحسن، والسيد العلامة صلاح بن الحسين الأخفش، والسيد العلامة عبد الله بن علي الوزير، والقاضي العلامة علي بن محمد العنسي، ورحل إلى مكة، وقرأ الحديث على أكابر علمائها، وعلماء المدينة، وبرع في جميع العلوم، وفاق

---

(١) قال ياقوت: " كحلان: فعلان من الكحل وهو السواد مأخوذ من الكحل الذي يكتحل به، واليمانيون اليوم يقولون: كحلان –بالضم–، وكحلان من أشهر مخاليف اليمن، وفيه بينون ورعين وهما قصران عجيبان، قال امرؤ القيس:

وداربنـــي سواســـة في رعـــين ... تخـــرُّ عـــلى جوانبـــه الشـــمال

معجم البلدان (٤/ ٤٣٩).

الأقران، وتفرد برئاسة العلم في صنعاء، وتظهر بالاجتهاد، وعمل بالأدلة، ونفر عن التقليد، وزيّف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية، وجرت له مع أهل عصره خطوب ومحن" اهـ.

أيها الإخوة الكرام، نشأ ابن الأمير رحمه الله نشأة علم وصلاح في بلده كحلان-من أعمال محافظة حجة الآن-، ثم انتقل به والده من كحلان إلى صنعاء؛ ليزداد تحصيله من العلم، وكان عمر عالمنا في ذلك الوقت ثماني سنين، فنهل من معين أكابر علمائها؛ كالمحقق الكبير زيد بن محمد بن القاسم شيخ مشايخ صنعاء، والمحقق الزاهد المشهور صلاح الأخفش، وغيرهما.

ثم رحل بعد ذلك رحلة علمية إلى مكة والمدينة حرسهما الله، ومن شيوخه هناك: عبد الرحمن بن أبي الغيث، ومحمد بن أحمد الأسدي، وسالم البصري.

لقد كان ابن الأمير رحمه الله عالمًا كبيراً في فنون شتى، حيث جمع بين العلوم العقلية والعلوم النقلية؛ فقد كان مفسراً ومحدثًا وفقيهًا، وأصوليًا وشاعراً وخطيبًا، وله في ذلك مؤلفات.

وبعد حياة حافلة بالعلم والتعليم والصبر والجهاد بالكلمة وافته المنية في يوم الثلاثاء الثالث من شعبان، سنة (١٢٨٢هـ) عن ثلاث وثمانين سنة، ودفن بجانب الجامع الذي كان يخطب فيه وهو جامع صلاح الدين الآن، في باب اليمن بصنعاء، وقبره مازال معروفًا هناك، فرحمه الله رحمة واسعة.

لقد ترك هذا العلم الكبير- إضافة إلى تعليمه وتدريسه- تراثًا ضخمًا من المصنفات النافعة، تقارب ثلاثمائة مصنف في علوم متعددة، فمن أشهرها: سبل السلام شرح بلوغ المرام، ومنحة الغفار حاشية على ضوء النهار، والعدة حاشية على شرح

العمدة، وتطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، وإجابة السائل شرح بغية الآمل.

أيها الفضلاء الكرام، كانت شخصية ابن الأمير الصنعاني شخصية متميزة بصفات حميدة متعددة، جعلت له مكانة سامية في عصره وبعد عصره، فمنها:

حرصُه على العلم بدين الله تعالى، فقد وقف له عمره منذ نعومة أظفاره إلى أن توفي رحمه الله، ويدل على ذلك: رحلتاه العلميتان: إلى صنعاء، وإلى مكة والمدينة، وما خلفه من مصنفات نافعة.

كما أنه كان مجداً في التحصيل حتى في الأحوال غير الموافقة فقد ذُكر عنه: أنه كان ينسخ كتابي: "زاد المعاد" و"بهجة المحافل" على ضوء القمر؛ لعدم توفر السرج لديه في ذلك الحين.

ومن صفاته الحميدة رحمه الله: علو همته، وسموق هدفه؛ فقد صرف وقته لطلب العلوم العقلية التي كانت ذائعة الصيت في بلده، وإلى العلوم النقلية -خاصة علم الحديث- التي كان يحاربها التعصب المذهبي والفكري آنذاك.

فبرع في جميع هذه العلوم فدرسها ودرّسها، وألّف فيها، حتى صار له طلبة كثر، تأثروا بطريقه، وأخذِه بالأدلة وتركه التعصب والتقليد جانبًا، وما الشوكاني ومن تلاه من العلماء المتجردين للحق إلا امتداد لمدرسة ابن الأمير العلمية المعتدلة.

ومن صفاته الحميدة: زهده وورعه، فقد كان زاهداً ورعًا راضيًا من الدنيا بالقليل، غير مستشرف إلى مواطن المتاع الكثير، مع أن المناصب الوظيفية الكبرى كانت تعرض عليه فيأباها؛ خوفًا من التقصير فيها، وبعداً عنها حتى لا تشغله عن العلم والتعليم.

وقد عرض عليه الإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين تولية القضاء في (المخا) فامتنع، ثم عرض عليه الوزارة فامتنع، ثم القضاء العام فامتنع، وظل في عمله في تدريس العلم.

ومن صفاته الحميدة رحمه الله: إتقانه وأمانته، فقد ولاّه الإمام المهدي العباسُ أوقافَ صنعاء في رمضان سنة (١١٦١هـ) فقام بالوظيفة بقوة وأمانة، حتى اتخذ بيتًا صغيراً سجنًا لمن يستحق التأديب؛ فراراً من السجن الكبير بقصر صنعاء؛ خوفًا من زيادة العقوبة على السجناء، ثم ما لبث أن اعتذر عن هذه الوظيفة، وندم على ذلك، وعاد إلى زهده عن الوظائف كما أشرنا سابقًا؛ هروبًا من التقصير، وخوفًا من التلهي عن العلم.

ومن صفاته رحمه الله: حرصه على اتباع الحق، وتمسكه بالدليل، ونبذه للتقليد الأعمى، والتعصب المقيت، والجمود الفكري المنحرف البغيض، مع ما لقيه من العناء الشديد في هذا السبيل.

فقد تمسك بالحق، وأظهره، ودافع عنه، وزيّف الآراء العقدية والفقهية المباينة لذلك، وكانت مدرسة شرف الدين بجامع صنعاء الذي يعرف الآن بجامع صلاح الدين منبره العلمي الذي يسطع منه علمه وآراؤه المسددة، وتلامذته الناشرون لعلمه وهديه.

حتى لقد تأثر به العامة والخاصة، قال الشوكاني في البدر الطالع: " وقد كان كثر أتباع صاحب الترجمة من الخاصة والعامة، وعملوا باجتهاده، وتظهّروا بذلك، وقرأوا عليه كتب الحديث وفيهم جماعة من الأجناد، بل كان الإمام المهدى يعجبه التظهر بذلك، وكذلك وزيره الكبير الفقيه أحمد بن على النهمي، وأميره الكبير الماس المهدى، وما زال ناشراً لذلك في الخاصة والعامة، غير مبال بما يتوعده به المخالفون له، ووقعت في أثناء ذلك فتن كبار وقاه الله شرها ".

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي يرفع من يشاء بفضله، ويوفق من يشاء إلى علم دينه وحمله، والصلاة والسلام على القائل الأمين: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[١]، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، وسلم تسليما. أما بعد:

أيها المسلمون، ومن صفات عالمنا الكبير ابن الأمير رحمه الله: شجاعته في الحق وصدعه به، رغم كثرة المخالفين والمؤذين الذي لقي منهم ما لقي من البلاء، بل قد تحمل في طريقه السالك هذا مرارةَ السجن، وتهديده بالقتل، ومحاولات اغتياله عدة مرات.

ومن صفاته رحمه الله: كثرة عبادته وخشوعه، فرغم انشغاله بالعلم والتعليم إلا أنه لم يغفل جانب العبادة والتأله، وقد قال في قصيدة أرسلها إلى والده العلامة إسماعيل عند عزمه على الحج سنة (١١٣٢هـ):

ومَن كانَ ذكرُ الله زادَ رحيلِه ... كفاهُ عن الزادِ المجازيْ وأغناه

ومن كان بيتُ الله غايةَ همِّه ... فطوبى له إن نالَ ما يتمناه

وقد حكى بعض أولاده: أنه قرأ في صلاة الصبح وهو يصلي بالناس: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾ فبكى وغشي عليه.

ومن صفاته الحميدة رحمه الله: محاربته للشرك والمشركين بلسانه وقلمه، ومما يدل على ذلك تأليفه رسالته المشهورة: "تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد".

ومن صفاته الحميدة رحمه الله: أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر دون أن يخاف في الله

(١) متفق عليه.

لومة لائم، ففي قصيدة نونية له يقول:

مزقتمُ شملَ هذا القُطرِ بينكمُ ... كلٌّ له قطعةٌ: قَفْرٌ وعَمرانُ

وكلكُمْ قد رقى في ظُلمِ قطعته ... مَراقيًا ما رقاها قبلُ خوّان

ومن صفاته الحميدة رحمه الله: تحركه بالدعوة إلى الله تعالى إلى أماكن متعددة، فقد خرج من صنعاء متجهًا إلى (شُهارة)[1] في محافظة حجة سنة (١١٤٠هـ)، ومكث فيها ثماني سنين، تصدر فيها للتدريس ونشر الحق، ثم رجع بعد ذلك إلى صنعاء.

عباد الله، بقي ابن الأمير الصنعاني رحمه الله على سيرته العطرة إلى أن توفي في مثل هذا الشهر: شهر شعبان، من عام (١٢٨٢هـ). فحزن عليه من يعرفه، ورثوا شعراً ونثراً، فمن ذلك ما قاله العلامة محمد بن إسحاق المهدي:

لله درُّكَ يا ابنَ إسماعيلا ... لم تتركنَّ فَتى سواكَ نَبيلا

حُزتَ الفخارَ قليلَهُ وكثيرَهُ ... هلاّ تركتَ من الفخارِ قليلا

وسلكتَ نهجَ الحقِّ دومًا جاعلاً ... نورَ البصيرةِ لا سواهُ دليلا

وصرفتَ عمرَك في العبادةِ وال ... إفادةِ والإجادةِ بكرةً وأصيلا

فرحم الله ابن الأمير الصنعاني رحمة واسعة، ونور ضريحه، ورفع درجته في المهديين.

هذا وصلوا وسلموا على النبي الأمين...

---

(١) قال الزبيدي: شُهَارَةُ، بالضمّ: حِصْن عَظِيمٌ باليَمَن، ويُقَال له: شُهَارَةُ الفَيْشِ، وهو من مَعاقِل الأَهْنُوم، قال الشّاعِر:

وفي شُهَارَةَ أَيّامٌ تَعَقَّبَها ... قَتْلُ القَرامِطَةِ الأَشْرارِ في أُقُر

تاج العروس من جواهر القاموس (١٢/ ٢٦٦).

دعوة المظلوم: تبشير وتحذير(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، حينما يُقتل الأبرياء، ويُقهر الضعفاء، ويتجبر الأقوياء، فلا يشتد الحزن؛ فهناك مدعوٌّ، وهناك دعوة، وعندما تُسلب الحقوق، فيأخذ القويُّ حقَ الضعيف، والغنيُّ حق الفقير، وصاحب الجاه حقَ من تحته فلا أسى؛ فهناك مدعو، وهناك دعوة، ويوم تكثر دموعُ المظلومين، ويشتد أنين المكروبين؛ لفشو ظلم الظالمين، وجور الجائرين، فلا كمدَ؛ فهناك مدعو، وهناك دعوة، ولما يبلغ الضرُّ منتهاه، والضيق

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٢٥/٤/١٤٣٧هـ، ٥/٢/٢٠١٦م.

مَداه، فلا حَزَن؛ فهناك مدعو، وهناك دعوة.

عباد الله، نَعمْ، حينما تتكاثف هذه الليالي المدلهمّة، والأوجاع الخاصة والعامة فإنها تفتح بابَ أملٍ فسيح يخفف الحزن أو يذهبه، وترفع رأسَ الإنسان إلى السماء، وتعلّق قلبه بخالق الحياة والأحياء، ليرجوَه ويدعوه.

فهناك هناك يجد مدعواً يدعوه، وربّاً قادراً يرجوه. يجد مدعواً رحيمًا هو الله سبحانه وتعالى، الذي هو أرحم بالعبد من نفسه، وأرحم به من أبيه وأمه، وأرحم به من كل راحم؛ فيرحم حالَه، ويجيب سؤاله، ويعطيه نواله، رحمة به ورأفة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[النساء:٢٩]. ويجد المظلوم مدعواً عليمًا محيطًا علمُه بكل شيء، فيعلم ما مسّه، ويعلم مَن ظلمه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾[آل عمران:٥]. ويجد المظلوم مدعواً خبيراً بصيراً يرى بطش من ظلمه، وجورَ من جار عليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[البقرة:٢٣٧]. ويجد المظلوم مدعواً سميعًا قريبًا مجيبًا، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة:١٨٦].

قال الشاعر:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدراً فالظلمُ مصدُره يُفضي إليهِ الندمِ
تنامُ عيناكَ والمظلومُ مُنتبهٌ يدعوْ عليكَ وعينُ اللهِ لم تَنمِ

ويجد المظلوم مدعواً قويًا قادراً، عزيزاً قاهراً، سيأخذ له حقه، وينتقم له ممن ظلمه، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾[الأحزاب:٢٧]، وقال: ﴿وَاللَّهُ

عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾[آل عمران:٤]، ويجد المظلوم مدعواً حكماً عدلاً، سينصف له، ويستوفي له حقه ممن تعدى عليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾[النساء:٤٠].

إذن كيف يحزن مظلوم له رب رحيم، سميع عليم، قدير قريب، قوي مجيب، حكم عدل، خبير بصير؟!

فيا ويل من يظلم إنسانًا لا يجد له ناصراً إلا الله تعالى، ويا ويل من يظلم إنسانًا لا يجد له معينًا إلا الله، ويا ويل من يظلم إنسانًا لا قوةَ له إلا بالله.

قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم ؛ فإنها تُحمل على الغمام يقول الله جل جلاله: وعزتي وجلالي لأنصرنكِ ولو بعد حين»(١).

قال الشاعر:

ألا قولوا لِمَنْ قد تَقَوَّى ... عَلَى ضعفيْ ولم يخشَ رقيبَهْ
خبَأَتُ لهُ سهامًا في الليالي ... وأرجوْ أن تكونَ له مُصيبهْ

أيها المسلمون، وفي خضم تلك المظالم هناك دعوة، ولكنها ليست ككل دعوة، إنها دعوة المظلوم التي تُرفع إلى الحي القيوم. إنها أقوى الأسلحة في ردع الظلم، وإهلاك الظالمين، إنها سلاح فتّاك يلاحق الظالمين إلى كل مكان كانوا فيه-مهما امتد بهم الزمن-، ولا يمكنهم ردُّه أو دفعه بأي سلاح، إن دعوة المظلوم لهبٌ حارق، ونار مضطرمة، ترمي الظالمين بشررٍ كالقصر. قال رسول الله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تصعد

(١) رواه الطبراني، وهو صحيح.

إلى السماء كأنها شرارة»[١]. قال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد: "لا تحتقر دعاء المظلوم؛ فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك، ويحك! نبال أدعيته مصيبة، وإن تأخر الوقت، قوسه قلبُه المقروح، ووتره سواد الليل، وأستاذه صاحب:" لأنصرنك ولو بعد حين"، وقد رأيتَ، ولكن لستَ تعتبر، احذر عداوة من ينام وطرفه باكٍ يقلب وجهه في السماء، يرمي سهامًا ما لها غرض سوى الأحشاء منك".

دعوة المظلوم سفينة فضائية سريعة أسرع من الضوء، بل لا تقاس بسرعة أسرع شيء في حياتنا، هذه السفينة تنطلق حاملة أنين المكلومين، ودموع المقهورين، وتوجع المتوجعين، وآهات المتأوهين، ورجاء الآملين بمن لا يظلم عنده أحد، وبمن حرم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرمًا، الذي قال عن نفسه: ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٩].

قيل لعلي رضي الله عنه: " كم بين العرش والتراب؟ فقال: دعوة مظلوم مستجابة".

إنها دعوة لا تقف أمامها الأبواب، ولا تصدّها الشُرَط ولا الحُجّاب، وكلما قوي الظلم قويت ضراعة المظلوم فالتهبت دعوته فكانت أسرع نفاذاً، وأقرب قبولاً؛ لأنها اتجهت إلى باب الله، ولم تتجه إلى أبواب رؤساء الدنيا وملوكها:

وأفنيةُ الملوكِ محجَّباتٌ وبابُ اللهِ ليسَ لهُ فَنَاءُ

أيها الأحبة الفضلاء، إن دعوة المظلوم دعوة مستجابة مسموعة لا تُرد؛ لأنها صدرت من لسان الاضطرار، ولسان التفويض الكامل من العبد الفقير الضعيف العاجز إلى المعبود الغني القوي القادر، قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾[النمل:٦٢].

---

(١) رواه الحاكم، وهو صحيح.

قال رسول الله ﷺ: «وإياك ودعوة المظلوم فإنها تستجاب»[١]، وقال ﷺ: «ثلاث لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم»[٢].

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن يحيى بن خالد البرمكي -أحد وزراء بني عباس- قال له أحد بنيه -وهما في السجن والقيود-: يا أبت، بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال؟! فقال: يا بنى، دعوة مظلوم سرتْ بليلٍ ونحن عنها غافلون، ولم يغفل الله عنها! ثم أنشأ يقول:

رُبَّ قومٍ قدْ غدوا في نعمةٍ ... زمنًا والدهرُ ريَّانٌ غَدقْ
سكتَ الدهرُ زمانًا عنهمُ ... ثم أبكاهمْ دمًا حينَ نَطق!

معشر المسلمين، إن دعوة المظلوم مستجابة ولو كانت من فاجر أو من كافر، قال رسول الله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه -حينما بعثه إلى أهل اليمن- وكان أهل اليمن آنذاك أهل كتاب-: «اتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»[٣].

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم -وإن كان كافرا-؛ فإنه ليس دونها حجاب»[٤].

وقال: «دعوة المظلوم مستجابة، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه»[٥].

يا أيها المظلومُ سَلِّ شَجاكا ... بُشراكَ هلَّتْ من سَما مَولاكا
وتنزّلتْ -والظلمُ يبسطُ عَسفَهُ- ... تروي غليلَك في عتوٍّ صَداكا

---

(١) رواه الطبراني، وهو صحيح.

(٢) رواه أحمد وابن حبان، وهو صحيح.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه أحمد، وهو حسن.

(٥) رواه أحمد، وهو حسن.

اللهُ أرحمُ مَنْ تلوذُ ببابِه والله أقربُ من يَلِيْ شكواكا
واللهُ يسمعُ كلَّ حرفٍ موجَعٍ فاهتْ لسانُك قائلاً رُحماكا
واللهُ يبصرُ أُفْقَكَ المنهوكَ ما يبدو عليه ضياؤه لأساكا
واللهُ يعلمُ من رماك بجَورِه ويرى على موجِ العَنا بلواكا
وهو القديرُ المستعانُ به على قهرِ الذي أشجاك في نُعماكا
وهو القويُّ وذو الكمال فإن تَعُذْ بجنابه وبعزّه نجّاكا
فانزعْ لباسَ الحُزْنِ والْبسْ باسمًا ثوبَ السرور فلن يخيب رجاكا
واقبرْ عنادَ اليأسِ وابعثْ للعلا رُوحَ التفاؤلِ في جسومِ مُناكا
واعلمْ بأنَّ الظلمَ يُسرعُ بالفتى نحوَ الهلاكِ ويحصدُ السفّاكا
فانعَمْ فإنَّ اللهَ ليس بغافلٍ أو مُهمِلٍ ذاك الذي أشقاكا
واصبرْ فعُقبى الصبرِ تُشرقُ بالذي يُطفي لهيبًا ظلَّ جُرحَ حشاكا

أيها المسلمون، إن الظلم جريمة عظيمة، لا تقع في مجال واحد أو في جهة معينة، بل يقع مع جهات متعددة، ومجالات كثيرة، فالظلم يقع بين الأقربين، كما يقع بين الأبعدين، فيقع من الأولاد لوالديهم، ويقع بين الزوجين، ويقع بين الأقارب، وبين الجيران، وبين الأصدقاء، وبين الراعي والرعية، وبين الناس ممن ليست بينهم هذه الوشائج.

فمن الأولاد من يظلم والديه بقلة بره، وكثرة عقوقه، فكم من ابن عق أباه أو أمه، وكم من بنت عقت أباها أو أمها، فصبر الوالدان، لكن لما استمر لهيب العقوق،

واختفت ظلال البر، لم يجد الوالدان أو أحدهما –عند ذلك– إلا الدعاء على الابن العاق أو البنت العاقة، فتصعد دعوة مظلوم –وأيُّ مظلوم! إنه أب أو أم!– إلى السماء فتستنزل من ربها العقوبة على الأولاد الظالمين بالعقوق.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم»(١).

وقد يكون الظلم بين الزوجين، فيقهر زوج زوجته القائمة بحقوق الله وحقوقه، فيمنعها ما يجب عليه من الحقوق، ويتعدى عليها بما يؤذيها، وليس لها من يردعه عن غيه، ويعيده إلى رشده، فلا تجد لها ناصراً إلا دعوة مظلوم ترفعها إلى الحي القيوم، وقد تكون الزوجة هي الظالمة لزوجها بإيذائها له، وتسلطها عليه، ومنعها حقوقه، وليس من قدرة لكبح جماح ظلمها؛ لضعفه، أو لقوتها بقرابتها، فيرفع يديه إلى السماء تحملان معهما دعوة مظلوم لم يجد من ينصف له في الأرض.

وقد يكون الظلم بين الجيران، فيظلم جارٌ قويٌ قادر جاراً ضعيفًا عاجزاً، أو يكذب عليه حتى يأخذ حقه، ويستولي عليه ظلمًا وعدوانًا، ولا مغيث لذلك الجار يرد له حقه، إلا دعوة مظلوم يرسلها إلى عَنان السماء إلى الحكم العدل سبحانه وتعالى، جاء في الصحيحين عن محمد بن عبد الله بن عمر أن أباه حدثه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: أن أروى خاصمته في بعض داره فقال: دعوها وإياها؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه طوقه في سبع أرضين يوم القيامة»، اللّهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها، واجعل قبرها في دارها، قال: فرأيتها عمياء تلتمس الجدر تقول: أصابتني دعوة سعيد بن زيد، فبينما هي تمشي في الدار مرت على بئر في

---

(١) رواه البخاري في " الأدب المفرد" وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، وأحمد، وهو صحيح.

الدار فوقعت فيها فكانت قبرها).

أيها المسلمون، وقد يكون الظلم بين الأقارب، فرُبَّ قريبٍ يظلم أخاه، أو أخته، أو عمه، أو عمته، أو خالته، أو أولادهم، وليس للمظلوم قدرة على الانتصار، وأخذ الحق من الظالم، فتخرج عند ذلك من القلب المكلوم دعوة مظلوم، ترتفع إلى من لا يظلم عنده أحد.

إن رسولنا ﷺ لم يسلم من ظلم أقاربه، فقد أخرج الحاكم في مستدركه-بسند صحيح- عن أبي نوفل بن أبي عقرب عن أبيه قال: كان لهب بن أبي لهب يسب النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «اللّهم سلط عليه كلبك»، فخرج في قافلة يريد الشام، فنزل منزلاً فقال: إني أخاف دعوة محمد ﷺ، قالوا له: كلّا، فحطوا متاعهم حوله، وقعدوا يحرسونه، فجاء الأسد فانتزعه فذهب به[(١)].

وقد يكون الظلم بين الراعي والراعية، فقد يوجد راعٍ يحكم رعيته بالجور والعسف، وسلب الحقوق، وكثرة الإضرار بهم، ورعيةٍ يظلمون راعيهم بعدم السمع والطاعة في المعروف، أو بالطعن فيه، وإحداث الأعمال المحظورة التي تؤذيه، فعند ذلك تصعد دعوة مظلوم إلى السماء تستنزل العقوبة على الظالم راعيًا كان أو مرعيًا. ففي محنة خلق القرآن التي ابتلى بها المأمون العباسي الناسَ وثبت فيها بعض العلماء، كان على رأسهم: الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح رحمهما الله، ذكر ابن كثير في البداية والنهاية أنهما حُملا على بعير وسيرَ بهما إلى الخليفة عن أمره بذلك، وهما مقيدان متعادلان في محمل على بعير واحد...فلما اقتربا من جيش الخليفة ونزلوا بمرحلة جاء خادم -وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه- ويقول: يعز عليّ -أبا عبدالله- أن المأمون قد سلّ

(١) أسد الغابة (ص: ١٠١٣).

سيفًا لم يسله قبل ذلك، وإنه يقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن ليقتلنك بذلك السيف، قال: فجثا الإمام أحمد على ركبتيه، ورمق بطرفه إلى السماء، وقال: سيدي، غرَّ حلمُك هذا الفاجرَ حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل، اللّهم فإن لم يكن القرآن كلامُك غيرَ مخلوق فاكفنا مؤنته، قال: فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل، قال: أحمد ففرحنا[1].

وعن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: شكا أهل الكوفة سعداً إلى عمر رضي الله عنه، فعزله واستعمل عليهم عماراً، فشكوا حتى ذكروا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل إليه فقال: يا أبا إسحاق، إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي؟ قال أبو إسحاق: (أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها: أصلي صلاة العشاء فأركد في الأولين، وأخف في الأخريين، قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فأرسل معه رجلاً أو رجالاً إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة، ولم يدع مسجداً إلا سأل عنه، ويثنون معروفًا، حتى دخل مسجداً لبني عبس فقام رجل منهم يقال له: أسامة بن قتادة يكنى أبا سعدة قال: أما إذ نشدتنا فإن سعداً كان لا يسير بالسرية، ولا يقسم بالسوية، ولا يعدل في القضية، قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللّهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة فأطل عمره، وأطل فقره، وعرضه بالفتن، وكان بعد إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد، قال عبد الملك: فأنا رأيته بعدُ قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر، وإنه ليتعرض للجواري في الطرق يغمزهن)[2].

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٣٣٢).

(٢) رواه البخاري.

أيها الإخوة الأفاضل، نقول لكل مظلوم: أبشر، ولكن اشكُ مظلمتك إلى الله تعالى وحده، ولا تعرض مصيبتك من ظالمك على من لا يقدر على نصرك، أما من يعين على استرجاع الحق ودفع الظلم فلا بأس.

وعليك أن تدعو مخلصًا متضرعًا، مستمراً بلا استعجال؛ فقد يكون تأخير العقوبة على من ظلمك وظلم غيرك خيراً للمظلوم، وشراً على الظالم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، قال تعالى: ﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[آل عمران:١٧٨].

وعليك أن لا تعتدي في الدعاء على من ظلمك، فلتكن دعوتك على قدر مظلمتك.

وعليك أن لا تظلم أحداً؛ لكي تنال نصر الله لك، فهو نعم المولى، ونعم النصير لمن لم يكن من الظالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، نداء لكل ظالم، ونصيحة لكل غاشم، ارفع يد الظلم، واكفف عن الإيذاء لخلق الله، قبل أن تدركك دعوات المظلومين، وتحيط بك عقوبة رب العالمين، وقبل أن تغادر الدنيا حاملاً مظالم الناس على ظهرك لتقف بين يدي الحكم العدل لينتصف لمظلوميك منك.

فسارع إلى التوبة إلى الله، وردّ المظالم إلى أهلها -إن كانت مما يُرد- قبل أن يفجأك الموت فتقضي المظلومين من حسانتك، وتحمل من سيئاتهم.

قال رسول الله ﷺ: «يجيء الرجل يوم القيامة من الحسنات ما يظن أن ينجو بها، فلا يزال يقوم رجل قد ظلمه مظلمة فيؤخذ من حسناته فيعطى المظلوم، حتى لا تبقى له حسنة، ثم يجيء من قد ظلمه، ولم يبق من حسناته شيء، فيؤخذ من سيئات المظلوم فتوضع على سيئاته»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»(٢).

فخفِ القصاصَ غداً إذا وفّيتَ ما ... كسبتَ يداك اليوم بالقسطاسِ

---

(١) رواه الطبراني، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري.

إن تمطلِ اليومَ الحقوقَ مع الغنى فغداً تؤديها مع الإفلاس

عباد الله، ومما ينبغي أن يسارع إليه الظالم التائب وغيرُه من المسلمين: نصرةُ المظلومين، ودفعُ الظلم عنهم، وإعانتهم، والتفريج عنهم؛ فقد كان من الأوامر التي أمر بها رسول الله ﷺ: نصرُ المظلوم[1].

وقال ﷺ: «وأعينوا المظلوم»[2].

وقال أيضًا: «ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزول الأقدام»[3].

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد والترمذي، وهو صحيح.

(٣) رواه أبو نعيم وابن أبي الدنيا، وهو حسن.

رسائل عجلى مع بدء العام الدراسي(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق القول كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد كانت أول كلمة نزلت من الوحي على سمع رسول الله محمد ﷺ: هي كلمة العلم ووسائله، والامتنان الرباني على الإنسان به، فقال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[العلق:١-٥].

فذكر تعالى الأمر بالقراءة مرتين، ووصف نفسه بتعليم الإنسان ما لم يعلم بأداة

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٤٣٨/١/١هـ، ٢٠١٦/٩/٣٠م.

العلم وهي القلم، الذي أقسم به وسمى سورة باسمه وهي سورة القلم، فقال: ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[القلم:١].

عباد الله، إن الله تعالى خلق الإنسان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ثم أعطاه الله تعالى وسائل العلم وهي: السمع والأبصار والأفئدة، فقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل:٧٨].

فراح الإنسان الصغير بعد ذلك يتلقى معلومات الحياة ابتداء من البيت من أبيه وأمه ومن حوله، إلى أن بدأ يميز فأُرسل إلى خارج البيت لتلقي العلوم المتنوعة التي تحتاج إلى مزيد من التخصص والجهد والوقت وجمع الفكر.

والأبوان الحريصان على الخير لولدهما يدفعانه إلى التعلم ولو رأياْ منه الكراهة والبكاء في أول أمره؛ لما يعلمان من فائدة العلم له في مستقبله.

فالعلم النافع نور ينير النفوس والقلوب، وثمر شهي يغذّي الفهوم والعقول، ونبراس ضياءٍ يبصّر الإنسان بطريقه الصحيح في دروب حياته المختلفة.

وهو كذلك عنوان تقدمِ الأمم والشعوب إذا ما زاد واتسع، وأثمر وأينع؛ فكل أمة يعرف ازدهارها ورقيها بتقدمها العلمي، واتساعها المعرفي، وفي مقابل ذلك: يمثّل شيوع الجهل في مجتمع من المجتمعات علامةً واضحة على تأخر ذلك المجتمع وتخلّفه.

إن ديننا الإسلامي الحنيف هو دين العلم والمعرفة الشاملة دينًا ودنيا؛ ففي كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ الصحيحة نصوصٌ متكاثرة تُثني على العلم وأهله، وتحث على الحرص عليه، وتذم الجهل وأهله، وتكشف عن آثاره السيئة على الفرد والمجتمع.

وحينما نقول: "العلم النافع" فنعني به كل علم مباح فيه نفع للمسلم في دينه أو دنياه، فالعلم بشريعة الله تعالى على رأس العلوم النافعة؛ لأنه يسلك بالإنسان طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

وكذلك العلوم الدنيوية المتنوعة التي تفيد الإنسان في حياته، فتجلب له المصالح المباحة، وتدفع عنه المضار الواقعة أو المتوقعة، وتسهم في بناء عقله وبدنه وحياته، كل ذلك يدخل في نطاق العلم النافع.

وفي سنة رسول الله ﷺ بشارة لأهل التعليم النافع من المسلمين -أيًا كان هذا العلم النافع- الذين يخلّفون وراءهم علمًا يُنتفع به بعد مماتهم إما مقروءاً، وإما مسجلاً، وإما مدونًا في عقول الناس، تقول هذه البشارة -كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

عباد الله، لقد مرت كيفية تعليم العلم وإيصاله إلى المتعلمين بمراحل متعددة في حياة الإنسان، حتى استقر الأمر في عصرنا الحاضر على الدراسة النظامية القائمة على نظام معين في كيفية التعليم ووسائله وزمنه، وجعل مكان تلقي العلم على هذا النظام: المدارس، والمعاهد، والجامعات.

مع بقاء بعض الطرق العتيقة النافعة كالمساجد والمراكز والأربطة لتعليم العلوم الدينية وبعض العلوم الدنيوية.

أيها المسلمون، ها نحن اليوم على نقف مشارف استقبال عام دراسي جديد، يؤوب فيه الطلاب إلى مدارسهم بعد قضاء الإجازة الصيفية.

يعود الطلاب إلى محاضن التعليم رغم ضيق العيش، وشدة البلاء، وكثرة تبعات الدراسة على الآباء الفقراء؛ ليكون ذلك رسالة عملية لعشاق الجهل، وأعداء العلم بأن الناس يحبون التعلم والتعليم، ويكرهون البقاء بلا علم، ولو كان في طريق ذلك لقاءُ المشقات، ومواجهة صلابة الصعوبات.

فمن قرأ في كتب سير العلماء من هذه الأمة سيجد أن كثيراً منهم ما بلغوا تلك الرتب العلمية العالية إلا بعد تجاوز عقبات كأْداء، وتحمّلِ صنوفٍ من البلاء، حتى قالوا -بعد أن عرفوا-: "لن تتعلم حتى تتألم".

إن أعداء أمتنا الإسلامية لا يريدون لأهلها أن يتقدموا علميًا، بل يحبون أن يبقى الجهل المتنوع هو السمة البارزة للمسلمين، ولهم في تلك الرغبة المقيتة أعمالٌ هم لها عاملون.

أيها الأحبة الكرام، فمع هذا البزوغ العلمي في هذا العام لابد من بعث رسائل مذكّرة لأعمدة العملية التعليمية، تذكّر الغافل، وتعلّم الجاهل، وتنبّه الناسي، وتوقظ الساهي.

والعملية التعليمة الناجحة لا تقوم على ركن واحد، بل على أركان متعددة، هي: الأسرة، والطالب، والمدرسة، والمدرس، والمجتمع، فلكل واحد واجباته تجاه هذه الغاية الحميدة.

فالرسالة الأولى: رسالة للأسرة التي هي الكَمُّ الذي يطلع منه الطالب، وهي المدرسة الأولى والمحضن العلمي الأول الذي يتلقى فيه التلميذ دروسه الأولى، فنقول: إن الأسرة التي تريد النجاح العلمي لأولادها لابد أن تحسن التربية العلمية والأخلاقية لهم قبل أن ترسلهم إلى المدرسة، حيث تقوم بتربيتهم فعلاً وقولاً على

الأعمال الطيبة، والأخلاق الحسنة، وحبِّ العلم والتعلم، واحترام المعلمين، وحسن التعامل معهم.

ومن مفردات ذلك: أن تعوِّدهم على الصلاة، والتحلي بالصدق والأمانة، والكلام الطيّب البعيدِ عن السباب والشتم، والألفاظ البذيئة.

وأن تغرس فيهم الحرص على العلم والجِد والاجتهاد في الدراسة، وتلقنهم أن دينهم وأمتهم ينتظران نجاحهم؛ ليقوموا بخدمة الدين والأمة والمجتمع بعلومهم وعقولهم.

وعلى الأسرة كذلك: أن توعز إليهم بمرافقة الزملاء الصالحين الجادين في دراستهم، وأن تحذرهم من مجالسة رفقاء السوء المهملين لدراستهم، السيئةِ أخلاقُهم.

وأن تربيهم على لزوم الآداب الحسنة مع مدرسيهم، وإدارة مدرستهم، ومع الناس جميعًا.

وإذا كانت بنتًا أن تربَى على الحشمة والعفاف والحياء، والابتعادِ عن جليسات الشر البعيدات عن الأدب والحياء.

وعليها كذلك أن تهيأ الأجواء المناسبة المساعدة على التحصيل العلمي المتقدم بقدر استطاعتها.

كما أن عليها بعد ذلك: أن تتابع الخطى العلمية والعملية لنشأها؛ لتدفع عند التعثر، وتصحح عند الخطأ، وتعين عند الحاجة.

ومن يقرأ في سير بعض العلماء؛ كمالك والشافعي وسفيان الثوري وغيرهم يرى دور الأسرة في التقدم العلمي الذي وصلوا إليه، رحمهم الله تعالى.

أيها الأحبة الفضلاء، **وأما الرسالة الثانية** فهي إلى أبنائنا وإخواننا الطلاب، وبناتنا وأخواتنا الطالبات، فنقول لهم: أنتم -أيها الجيل الصاعد- البذرةُ الطيبة التي يُنتظر نماؤها وثمرتها، وأنتم معقد آمال أُسركم ومجتمعكم وأمتكم؛ لتصلحوا حاضرهم ومستقبلهم بنجاحكم العلمي الحقيقي، فكونوا عند حسن ظن الجميع.

وذلك يأتي بقيامكم بأسباب النجاح العلمي.

فعليكم -أيها الصباح المشرق- أن تعلموا أن أعظم عون لكم على دراستكم: أن تحافظوا على طاعة الله تعالى عملاً بالأوامر واجتنابًا للنواهي، وأن تكونوا بارين بوالديكم، بعيدين عن عقوقهم، وجرِّ المشقة إليهم.

وبعد ذلك ما أجملَ أن تكونوا حريصين على التعلم الصادق: تذاكرون دروسكم باهتمام، وتحفظون ما يُحفظ باعتناء، وتستمعون لمعلميكم بإنصات، وتوسعون المدارك العقلية لديكم بالاطلاع العلمي خارج المدرسة لتعضدوا ما تتلقونه فيها.

فإذا جاء موعد الامتحان -وأنتم على ذلك الاهتمام- كنتم غير خائفين من الاختبار، وصرتم واثقين عند دخولكم قاعات الامتحان؛ لكونكم قد أخذتم بأسباب النجاح بعد التوكل على الله تعالى.

وما أحسنَ أن تكونوا على أدب جم، واحترام وتقدير لمن يعلمكم، منصتين متواضعين، لا يرى منكم إلا أطيب الأفعال، ولا يسمع منكم إلا أفضل الأقوال.

قال عمر بن الخطاب ﵁: " تعلموا العلم، وعلموه الناس، وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منه، ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء؛ فلا يقوم جهلكم بعلمكم "(١).

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١/ ١٣٥).

وقال الشافعي رحمه الله: "كنت أصفح الورقة بين يدي مالك صفحًا رفيقًا؛ هيبة له؛ لئلا يسمع وقعها".

وقال الربيع رحمه الله: "والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ؛ هيبة له"(١).

أما الطلاب الذين لا يحترمون مدرّسيهم فهم ناكرون للجميل، جاحدون للنعمة، مضرون لأنفسهم، ولزملائهم. قال الشاعر:

إنّ المُعلِّمَ والطبيبَ كِلاهما ... لا ينصحانِ إذا هما لم يُكرَما

فاصبرْ لدائِك إن جفوتَ طبيبَه ... واصبرْ لجهلِكَ إن جفوتَ معلِّماً(٢)

وما أجمل أن يكون الطالب ذا أخلاق حسنة مع زملائه، مهذَّبَ اللسان، بعيداً عن الإيذاء، يختار من بين الزملاء للصداقة والملازمة أهلَ الجد والأدب، ويعرض عن جلساء السوء علمًا وخلقًا.

فإن الطالب قد يكون في بدء أمره حسنَ الأخلاق، حريصًا على التعلم حتى إذا خالط رفقاء السوء ذهب خُلقه وحرصه، ، واستبدل الذي هو أسوء بالذي هو أحسن.

وأكرمْ بأولئك الطلاب الحريصين على أوقاتهم الذين لا يضيعونها في القيل والقال، والعكوفِ أمام شاشات التلفاز أو الجوال، أو في مقاهي الإنترنت، وغرف الدردشة، أو غيرها، بل يستغلون أوقاتهم فيما يعود عليهم بالنفع، ومنه مراجعة دروسهم، وأداء واجباتهم المدرسية.

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة الكناني (ص: ٤١).

(٢) التمثيل والمحاضرة، للثعالبي (ص: ٣٨).

أيها المسلمون، **والرسالة الثالثة** أوجهها إلى إدارة المدرسة من مدير ووكيل ومشرفين وغيرهم فأقول: أنتم -أيها المسؤولون- تؤدون رسالة عظيمة، وتقومون بواجب كبير، فأنتم للمدرسة قادتها، وصِمَام أمانها، ومرتكَز نجاحها، وسبل تقدم الحركة التعليمية فيها؛ فإنما الجسد بالرأس -وأنتم الرأس-، فإذا صلح الرأس صلح الجسد.

فاتقوا الله في هذه الولاية التي ولاّكم الله إياها؛ فالطلبة والمدرسون أمانة في أعناقكم، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عند الله عن رعيته.

فقوموا بحق هذه الوظيفة التي شرفتم بها: فاجمعوا بين الحزم واللين، والشدة والرحمة في الحق، والنصح والمثابرة على ما فيه مصلحة الدراسة وأهلها.

واضبطوا سير العملية التعليمية بضوابط ترضي الله تعالى، وتنفع الطلاب في حاضرهم ومستقبلهم.

وابذلوا ما تستطيعون من الأسباب والوسائل التي تعين المدرسين على تحسين الأداء التعليمي، ويساعد الدارسين على تلقي العلم، والاستفادة منه.

واستعينوا بالله واصبروا وصابروا وأخلصوا، وتقربوا إلى الله تعالى بهذا العمل الذي تؤدونه، وأبشروا؛ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله العليم الأكرم، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأعظم وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

أيها الإخوة الأفاضل، **والرسالة الرابعة:** أرسلها إلى المعلم، والأستاذ، والمدرس، والمربي، فأقول: أيها المعلم الفاضل، أنت النجم المشرق في أفق العلوم، والدليل الهادي في متاهات الفهوم، والقاعدة الراسخة التي قام عليها بناء الحياة الراقية المتنوعة، أنت الذي تربَّى بين يديك صُنَّاعُ الحياة وبُناتها، على اختلاف تخصصاتهم، وتعددِ مجالات أعمالهم.

أنت -أيها المعلم- أستاذ الحياة وضياؤها، ومنطلَق تقدمها وازدهارها، فلك حقٌّ في عنق كل مبدع، ودَين في رقبة كل نافع للناس بعمل تلقاه بالتعلم.

وتحسبُ أنكَ جِرْمٌ صغيرٌ وفيكَ انطوى العالَمُ الأكبرُ

فما أعظمَ أن تعرف شرف المهنة التي تقوم بها، وعلوَّ شأن الخدمة التي تقدمها لأمتك ودينك ومجتمعك.

لقد حُمِّلتَ أمانة عظيمة، يجب عليك القيام بحقها؛ فقد بعث إليك الآباءُ والأمهات بثمرات أفئدتهم، وفلذات أكبادهم، ؛ كي تربيهم وتعلمهم، وأودعوا عندك وديعة مستقبلهم، فلا تنسَ المسؤولية على هذه الأمانة والوديعة.

أيها المعلم الفاضل، إن التدريس أمانة توجب عليك حسن الأداء بإتقان مادتك،

ومعرفتك العميقة بها، وحسن تحضيرها، وجودة إلقائها لطلابك حسب استطاعتك.

كما أن لتلاميذك حقَّ المحافظة على وقت الحصة الدراسية فيما ينفعهم، وعدم تضييعها، والانشغال عنها فيما لا يعود عليهم بالفائدة.

إن على المعلم أن يكون قدوة لطلابه في أفعاله وأقواله، فسلوكه وأخلاقه لها أثر كبير بينهم، فكم من طالب ظل على خير في مستقبله تلقاه عن معلمه في سنواته الدراسية الأولى.

وإن من العجب: أن يأمر بعض المدرسين الطلاب ببعض الأعمال أو الخصال الحميدة وهم بعيدون عنها!، ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٤٤].

وكما قيل:

يا أيها الرجلُ المعلِّمُ غيرَه ... هلاّ لنفسكَ كان ذا التعليمُ
تصِفُ الدواءَ لذي السقامِ وذي ... كيما يصحُّ به وأنتَ سقيمُ
ونراك تُصلِحُ بالرشادِ عقولَنا ... أبداً وأنتَ من الرشادِ عديم
فابدأ بنفسكَ فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهتَ عنه فأنتَ حكيم
فهناك يُقبَل ما تقولُ ويُهتدى ... بالقولِ منكَ وينفعُ التعليم
لا تنهَ عن خلُقٍ وتأتيَ مثلَه ... عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيم(١)

إن من سمات المعلم الناجح: أن يتواضع لطلبته من غير ذل، وأن يعدل بينهم في

(١) المستطرف (١/ ٤٨).

التعامل من غير ميل، وأن يكون حسن الأخلاق، قريبًا من الطلاب يعالج مشكلاتهم ويشاركهم في طموحاتهم الخيّرة، ويفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم.

كما عليك -أيها المعلم الكريم - أن لا تنسى أنك في عمل من أعمال الخير الذي تنال به الأجر والثناء عند الله تعالى، وعند كرام خلقه إذا احتسبته.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليُصلّون على معلم الناس الخير»(١).

وليكن قدوتك في تعليمك المعلّمَ الأول في هذه الأمة: نبينا محمداً ﷺ، فعن معاوية بن الحكم السلمي قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ -فبأبي هو وأمي- ما رأيت معلّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني، ولا شتمني قال:«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن»(٢).

أيها الأحباب الكرام، رسالة أخيرة أوجهها إلى المجتمع كله فأقول: إن التعلم والتعليم عمل عظيم يحتاج في إنجاحه إلى تعاون جميع شرائح المجتمع، وتشجيع أهله، ومد يد العون إليه، كل حسب قدرته وتخصصه؛ لأن نجاح رسالة التعلم والتعليم يعود خيره على المجتمع بأسره.

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

وحينما تخفق العملية التعليمية فإن آثارها السيئة المتنوعة ستعود على المجتمع كله بالفساد والإفساد.

فعلى الحكومات في بلاد المسلمين مسؤولية عظيمة في إنجاح التعليم، وعلى الأغنياء والموسعين أن يتحسسوا الأسر الفقيرة التي لديها أولاد في المدارس فيقدموا لها المساعدة التي تعين على بقاء أولادها في المدارس، فكم من أسرة عجزت عن إكمال تدريس أولادها؛ لعجزها عن تحمل تبعات الدراسة، أو لحاجتها إلى تفرغهم للعمل من أجل سد حاجة تلك الأسرة من القوت، والحاجات الضرورية للعيش.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح.

هذا وصلوا وسلموا على النبي الهادي...

سليمان ـ عليه السلام ـ وملكة سبأ:
دعوة وحكمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، من الشام إلى مأرب حمَلَ الحرصُ سفيرَ الهداية على الانطلاق قاطعًا الفيافي والقفار ليجد قومًا تاهوا عن الغاية التي خُلقوا من أجلها، فعاد مستنفراً سرايا النور المبين بعد أن جاء من سبأ بنبأ يقين، فاستجاب النورُ دعوةَ سفيره الأمين فأرسل بعث الدعوة مبشرين ومنذرين، وبعد المراسلة، واتضاح الحقيقة خلعت الملكة عنها أسمالَ الضلال والظلام، ولبست جلباب الهداية والإسلام، فأسلمت مع سليمان لله

رب العالمين.

عباد الله، جاء في سنن أبي دود وفي سنن الترمذي-بسند حسن صحيح- عن فروة بن مسيك المرادي قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما سبأ: أأرض هو أم امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشاءم[1] منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام، وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا: فالأزد والأشعريون وحمير، وكندة ومذحِج وأنمار).

لقد كان من خبر هذا الرجل (سبأ) أنه كان من نسل قحطان، وكان امرأً مسلمًا، وقد أرسل الله إلى قومه أنبياء فاهتدوا فأنعم الله عليهم بنعم كثيرة، فطاب هواؤهم، وطابت أرضهم، ودرَّ رزقهم، وحسن حالهم في حلهم وترحالهم[2].

فاستمروا على هذه النعم إلى أن كفروا وجحدوا، وأعرضوا عن الهدى، فأبدلهم الله تعالى بعد تلك النعم: جوعًا ونقمًا، وخوفًا وتفرقًا شذر مذر في الجزيرة العربية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾[سبأ:١٥-١٧].

عباد الله، لقد بقي قوم سبأ على الكفر حتى صاروا يعبدون الشمس من دون الله إلى

---

(١) "يقولون: تيامن إذا أخذ ناحية اليمن، وتشاءم إذا أخذ ناحية الشام". الزاهر في معاني كلمات الناس (٢/ ٢٧٣).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٢/ ١٥٨)، تفسير السراج المنير، للشربيني (٣/ ٢٤٣)، اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل (١٦/ ٣٩).

زمن ملكتهم بلقيس، وكان ذلك في عهد نبي الله سليمان عليه السلام ومُلْكِه، الذي كان مستقراً في الشام، وقد أنعم الله تعالى عليه بالنبوة والملك وتسخير الجن له، ومعرفته لغة المخلوقات كالطير.

وفي يوم من الأيام خرج سليمان عليه السلام بجنده في مسير له فتفقد الطير، وكان من بينها هدد متميز فيها، لكنه لم يجده بين الحاضرين، فتوعّده بالعذاب أو الذبح؛ لكونه غاب من غير إذنه، إلا أن يأتي بعذر يقضي بعدم استحقاقه العقوبة، قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾[النمل:١٦-٢١].

أيها المسلمون، من خلال الآيات السابقة يستفاد: أن الواجب على الإنسان -إذا أنعم الله تعالى عليه بنعمة- أن يعترف لربه بها، ويشكره عليها، ويستعملها فيما يرضي مُعطيْها، وأن يتواضع بها بين عباد الله، وأن لا يتكبر بها عليهم، وأن على ولي الأمر أن يتفقد شؤون رعيته، ويسأل عن أحوالهم، وأن يكون حازمًا صارمًا في الحق، وأن يكون جنوده مسخَّرين في إصلاح أحوال الرعية: توفيراً للأمن والحاجات، وحماية من الخوف والمهلكات.

أيها الأحبة الفضلاء، لقد انطلق هدهد سليمان من أرض الشام إلى أرض مأرب

من اليمن في مهمة عظيمة، وغاية جسيمة، قطع تلك المسافة البعيدة داعيًا إلى الله عز وجل، فوجد في أرض سبأ ما يغضب الله تعالى من الشرك والمشركين؛ إذ كانوا يعبدون الشمس من دون الله، وكان عليهم امرأة قد أُوتيت من زينة الدنيا في ملكها من كل شيء يؤتاه ملوك عصرها، ومن ذلك: كرسي عظيم تجلس عليه في مملكتها. ثم رجع الهدهد إلى سليمان بهذا الخبر الأكيد الذي رآه عيانًا، قال تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾[النمل:٢٢-٢٦].

أيها الإخوة الكرام، في هذا المقطع الجميل الذي تحدث عن هذه المهمة الدعوية التي قام بها الهدهد الذي خلّد الله تعالى ذكره بها في القرآن الكريم بسبب هذا العمل العظيم؛ نستفيد: أن على الرسول إذا كان في مهمة أن ينجزها ويعود سريعًا بلا تأخر، وأن الإنسان مهما بلغ علمه فقد يفوته شيء كثير من العلم قد يستفيده ممن هو أقل منه شأنًا وعلمًا، وأن على ناقل الأخبار أن يتثبت فيها، فلا ينقلها إلى الناس إلا بعد يقين من صحتها، وأن الباطل يكون عند أصحابه حسنًا محبوبًا؛ بسبب تزيين الشيطان له، وأن من أدلة استحقاق الله للعبودية بلا شريك: علمه الغيب، ورزقه الخلق.

أيها المسلمون، إن نبي الله سليمان عليه السلام لما رجع إليه الهدهد بهذا الخبر العظيم- وكان قد توعد الهدهد بالعقوبة، إلا أن يكون له عذر مقبول؛ اهتم للأمر، ولكنه لم يلاقه بالقبول ابتداء حتى يتأكد من صدقه، فأرسل الهدهد برسالة إلى ملكة سبأ يدعوها

إلى الله تعالى وتركِ الشرك- الذي تدين به مع قومها- والدخول تحت سلطانه القائم على الإسلام والحق والعدل، وأمر الهدهد أن يلقي إليهم الرسالة، وينتظر جوابهم عليها، فوصل الكتاب إلى بلقيس- وكانت امرأة عاقلة حكيمة حازمة ذكية- فجمعت مستشاريها من كبار قومها، وأخبرتهم أنه وصلتها رسالة حسنة جاءتها من سليمان، وقد افتتحت هذه الرسالة بالبسملة، ومضمونها أمران: قبول دعوة الإسلام، والدخول تحت سلطان سليمان الذي قام على النبوة، وكان من فطنة هذه الملكة العاقلة: أنها لم تستأثر بالأمر دون أشراف قومها، بل عرضت القضية عليهم؛ إذ كان من عادتها: أن لا تقدم على أمر جلل إلا بمشورتهم، فرد عليها أشراف قومها بخيار الحرب وأنهم أهلها؛ لقوتهم وشجاعتهم، لكنهم جعلوا الأمر إليها لتختار هذا الرأي أو غيره؛ لثقتهم بحصافتها وحسن تدبيرها، فكان من جودة رأي هذه المرأة الفطنة: أن فكرت في الموضوع مليًا، فنظرت في الماضي، واستشرفت المستقبل، فاختارت خيار السلم؛ حرصًا على الخير لقومها، وإبعاد الذل عنهم؛ لكونها تعلم أن الملوك الجائرين إذا دخلوا بلدة عنوة وقهراً خربوها، وصيروا أعزة أهلها أذلاء، وقتلوا وأسروا، وهذه هي عادتهم المستمرة، لكنها-رحمها الله- رأت أن ترسل هدية نفيسة فيها أشياء عجيبة من نفائس الدنيا؛ لتختبر سليمان ومن معه؛ لتتخذ بعد ذلك القرار الأخير، فإن كان ملكًا يريد الدنيا فسيقبل الهدية ويفرح بها، وإن كان نبيًا فسيردها؛ لأن الدنيا ليست غايته، وإنما غايته دخولها وقومها في الإسلام، فكان هذا الفعل من ذكائها وحكمتها، قال تعالى: ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَب بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا

بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾[النمل:٢٧-٣٥].

أيها الأحباب، من هذه الآيات الكريمة يفيد المسلم: أن الأخبار التي ينقلها الناس لا تقبل بالتصديق إلا بعد تبين صحتها ومعرفة صدقها، وأن من وسائل الدعوة إلى الله تعالى: الدعوة عبر المراسلة، كما فعل رسولنا محمد ﷺ في رسائله إلى الملوك والزعماء، وفيها بيان رجاحة عقل هذه الملكة وحسنِ تدبيرها إدارةَ مملكتها، واستحباب اتخاذ مستشارين والعمل بمشورتهم، واستفتاح الرسائل بالبسملة؛ تبركًا بذكر الله تعالى، وأنها سنة قديمة، وجاءت الشريعة المحمدية بإقرارها، وفي الآيات: أن الملك إذا لم يكن له مانع من دين حق أو خلق كريم يكون راتعًا في الفساد وظالمًا للعباد، وأن الرجال يُعرفون في بالامتحان والتمحيص.

أيها المسلمون، أرسلت بلقيس هديتها النفيسة إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما وصل الرسول الذي يحمل الهدية سلمها إليه فاستنكر سليمان هذا الفعل!؛ لأنه لم يراسلها طلبًا للدنيا، وإنما لتسلم لله رب العالمين، فقال للرسول ومن معه: هل تهدونني هذه الهدية لأكف عن دعوتي إياكم إلى الحق كما يحصل لأرباب الملك في الدنيا؟! ليس الأمر كذلك، فإن ما أعطاني الله من النبوة والملك والجنود خير مما آتاكم، وإنما يفرح بهذا المال ونحوه من زينة الدنيا أنتم وأمثالكم من أهل المفاخرة والمكاثرة، فرد الهدية إلى بلقيس مع الرسول، وتوعدهم قائلاً للرسول: ارجع إلى قومك الذين أبوا الاستجابة للحق وترك الشرك فوالله لنغزونهم بجنود لا يقدرون على ردهم وهزيمتهم، ولنخرجنهم من أرضهم صاغرين أذلاء حتى يؤمنوا بالله وحده، ثم كأن الله تعالى

أوحى إلى سليمان عليه السلام أنهم سيأتون إليه مسلمين، فأراد أن يريهم ما أعطاه الله من الملك والقوة والقدرة حتى يتركوا التكبر بما عندهم من الدنيا ومنها عرش الملكة العظيم فيكون ذلك سببًا لانقيادهم للحق.

فجمع سليمان عليه السلام أشراف أهل مملكته من الإنس والجن وقال لهم: من يأتيني بعرش هذه الملكة من بلادها إلى هنا قبل أن تصل إلينا؛ ليكون ذلك أدعى لها ولمن معها لقبول الحق؟، فقال مارد شديد من الجن: آنا آتيك به؛ فإني ذو قوة تجعلني أوصله إليك قبل أن تقوم من مجلسك الذي تجلس عليه للحكم بين الناس، وإني ذو أمانة تجعلني أوصله- كما هو- من غير أن ينقص شيء من جواهره وما فيه.

وكان في الحاضرين رجل آخر عنده معرفة وعلم بكتاب الله، فقدم هو كذلك عرضًا أقرب سرعة من عرض المارد من الجن، فقال: آنا آتيك به قبل ارتداد أجفانك إلى النظر إلى شيء ما، وهذا غاية في السرعة، فوافق سليمان عليه السلام على هذا العرض، فدعا اللهَ ذلك العالم فاستجاب الله له، فإذا بالعرش بين يدي سليمان كما هو، فلما رأى نبي الله سليمان العرش بين يديه كما هو بهذه السرعة والقدرة؛ تواضع لله تعالى وشكره واعترف لله بمنَّه عليه حيث سخر له من خلقه من يخدمه هذه الخدمة العظيمة، وجعل ذلك التسخيرَ العظيم لاختباره: هل يشكر الله تعالى على هذه النعمة أو لا، ومن يتركْ الشكر فإنه لا يضر إلا نفسه؛ لأن الله غني عن شكر الشاكرين، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا

آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل:٣٦-٤٠].

عباد الله، في الآيات السابقة عظات وعبر، منها: أن على صاحب الحق أن يمضي في طريقه، ولا ترده عن وجهته إغراءات الدنيا مهما عظمت؛ لأن أصحاب الباطل إذا رأوا دعوته ذات اثر خافوا على شهواتهم أن تُطمر أمام سيله الهادر فقاموا بأساليب عدة لكبح جماح دعوته، ومنها: أن الهدايا التي يراد بها شراء المواقف لصالح الباطل، والسكوتُ عن الحق وترك نصرته ينبغي أن ترد ولا تقبل، وأن على القائد المسلم أن يردع أعداء الإسلام بإظهار قوة المسلمين؛ حتى يكفوا شرهم عن المسلمين، قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[الأنفال:٦٠]. وفي الآيات: بيان أهمية القوة العسكرية، والقوة الاقتصادية، والقوة العلمية في حماية الحق ونشره، وأن على ولي أمر المسلمين أن يكون له مستشارون ذوو كفاية في عقولهم وعلومهم وقواتهم، يستشيرهم في أمور حُكمه، وفي الآيات: مشروعية مكاثرة أهل الباطل ومفاخرتهم بما عند أهل الحق من أسباب القوة التي يفخر بأمثالها أهل الباطل؛ لأن ذلك سيجعلهم يذعنون لقوة الحق، فالغرب اليوم والكفار عمومًا في رأس هرم التطور العلمي والتقني والتكنولوجي والعسكري وغيرها من مجالات الحياة المتقدمة، وهم في تلك الآفاق الدنيوية العالية ينظرون إلى المسلمين نظرة دونية مزدرية؛ ولعل ذلك صد بعض الكفار عن الإسلام، فلو اعتنى المسلمون بهذه الجوانب، ونافسوا الكفار فيها لأدى ذلك إلى تخفيف كِبرهم واحتقارهم للمسلمين، وفي الآيات الكريمة: عظم

ما عند بعض الجن من القوة والقدرة، وبيان أن القوة والأمانة شرطان أساسيان من شروط العامل، وفيها أهمية العلم والعلماء في صلاح الدنيا والدين، وأن دعاء الله تعالى من وسائل تحقيق المطالب ونيل الرغائب، وأن على المسلم إذا رأى عظم نعم الله عليه أن لا يتعاظم بها ويفتخر بسببها، بل عليه أن يتواضع لله ويشكره عليها، ويستعملها فيما يرضيه بين عباد الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

أيها المسلمون، وصلَ عرشُ بلقيس بتلك السرعة بين يدي سليمان فأراد عليه السلام أن يختبر عقل الملكة كما اختبرت عقله، فأمر جنده بتغيير هيئات العرش وشكله؛ لتعرف: أهو عرشها أم لا؟، فلما جاءت سألوها: هل عرشك هكذا؟، فمن ذكائها أنها لم تقل: هو هو، ولم تقل: ليس إياه، وإنما قالت: كأنه هو، فلما شبهوا عليها في السؤال شبهت عليهم في الجواب، والله تعالى قد أعطى سليمان عليه السلام العلم والفطنة قبلها وجعله نبيًا من أنبيائه، وهذا غاية الفضل البشري، ثم إن هذه المرأة الصالحة لو تُركت لذكائها وعقلها الفاضل لاهتدت إلى الحق، ولكن صدها عنه البيئة الفاسدة التي عاشتها بين قومها المشركين فكانت مثلهم، ومازالت بلقيس تنظر إلى عظم ملك سليمان فتزداد قناعة بالحق، والدخول في الإسلام، حتى كان آخر مظاهر عظمة ملك سليمان: أن صحن قصره كان أملس من زجاج صافٍ والماء تحته يجري، فلما طلب منها دخول القصر ظنت ذلك ماء يجري تحت قدميها فكشفت عن ساقيها حتى لا يصيب الماء ثيابها حينما تخوضه، فأُخبرت أن ذلك ليس ماء، وإنما هو زجاج! فأدركت حينئذ كمالَ ما أعطى الله نبيه سليمان، واعترفت بظلمها لنفسها في بقائها في الشرك، فأعلنت الإسلام لله رب العالمين، رحمها الله تعالى، قال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ* وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ

مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[النمل: ٤١-٤٤].

عباد الله، في هذه الخاتمة الحسنة لهذه القصة العظيمة: يتبين أثر البيئة الفاسدة على إفساد معتقدات الإنسان الصحيحة، وأن على الإنسان إذا تبين له الحق أن يترك المكابرة والعناد، وأن يستجيب للحق ويستسلم له؛ فإن ذلك خير له، وعلامة من علامات الخير فيه.

هذا وصلوا وسلموا على خير الورى...

مع الجوال وخدماته(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، ما زالت نعمُ الله تعالى بعباده متصلة، وسحائب آلائه إليهم مرسلة، تعمّ الأفراد منهم والمجموعات، وأهل الطاعات، وذوي المعصيات؛ رحمة من الخالق، لا باستحقاق المخلوق.

فلعل تلك العطايا السنية ترشد أصحاب القلوب الحية إلى شكر رب البرية،

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، في ٢٢/٣/١٤٣٧هـ، ١/١/٢٠١٦م.

فيفردوه بالعبودية، وهم لم يزالوا يرون نعمه تطوقهم من كل جانب حتى عجزوا عن عدها، وإيقاف إقبال مَدّها، قال الكريم الرزاق: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٤].

عباد الله، لقد كان الناس -إلى زمن قريب- يتواصلون فيما بينهم عند البعد بإرسال رسل ورسائل مكتوبة أو ملفوظة، مهنّين بها أو معزّين، أو مخبرين أو طالبين، أو معلّمين أو متعلّمين، أو آمرين أو ناهين، وغير ذلك من الحاجات التي قامت بها الرسائل والرسل مقام المرسل والمستقبل، فتقضى بذلك المآرب، وتتحقق بها المطالب، لكن التأخر والضياع والمشقات ظلّت مرافقة لتلك الوسيلة من التواصل.

ومع مرور الأيام، وكثرة الأنام، وتطور العلوم والمعارف، وعظم الحاجة للتواصل ألهم الله تعالى بعضَ عباده -رحمة بهم، وإنعامًا عليهم- إلى اكتشاف بعض الوسائل الجديدة التي تسهل لهم التواصل فيما بينهم، وتخفّف عنهم العناء الذي كان ملازمًا لهم، فكان من تلك الوسائل: اختراع الهاتف، الذي قرّب البعيد، وقلل الخسارة، وساعد في الإسراع إلى إنجاز الأعمال، والوصول إلى الآمال.

ومازالت هذه الوسيلة الاتصالية في تطور حتى وصلت إلى صناعة الهاتف الشخصي الذي يجوّل به الإنسان حيثما كان؛ ولذلك سمي بالجوال، فكان بهذا المصنوع تخفيفٌ كبير من مشقات الهاتف الثابت، فالحمد لله الذي علّم الإنسانَ ما لم يعلم.

أيها الأحبة الفضلاء، إن النعمة -أياً كانت- لا يستعملها الناس استعمالاً واحداً، بل يختلفون في استعمالها، فمنهم من يستعملها في الحلال، ومنهم من يستعملها في الحرام، ومن ذلك الجوال، فقد استخدمه بعض الناس في التوصل إلى الحرام من كفر أو قتل أو أخذ مال محظور، أو هتك عرض، أو تجسس على مسلم بريء، أو غير ذلك مما

يوصل إلى الحرام.

ومن الناس من استخدمه في قضاء حاجاته المباحة، وصلة أرحامه وأقاربه وأصدقائه، وإن ترقّى في معارج الخير سخره في النصيحة والدعوة إلى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعلم والتعليم النافعين، ونحو ذلك من مجالات الخير التي يساعد عليها الهاتفُ الثابت أو الهاتف الجوال. قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص:٧٧].

عباد الله، إنه لما عظمت الحاجة إلى هذه الوسيلة في حياتنا قلّ أن يوجد شخص لا يستعملها ولا يستفيد منها؛ لهذا كان لابد من التذكير ببعض الآداب الشرعية والتنبيهات الأخلاقية المحمودة التي توصل إلى الاستخدام الجيد، والاستفادة غير المضرة بالنفس أو بالآخرين. والحاجة إلى ذلك حاجة عامة، ولزوم هذه الآداب مما يهم المسلم المستخدم لهذه الوسيلة في حياته اليومية.

فمن تلك الآداب: أن تكون حيازة الجوال من مال حلال، كشراء أو مقابل عمل، أو هدية، أو وراثة، أو نحو ذلك، فلا يجوز استعمال جوال جاء من مصدر حرام؛ كسرقة أو نهب أو اختلاس أو رشوة أو لقطة غير معرَّفة. قال رسول الله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»(١).

ومن الآداب: استعمال تحية الإسلام (السلام عليكم ورحمة الله) عند الاتصال، ولدى الانتهاء منه، قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة»[1]. والجواب على المتصل بحرف "نعم" لا "الو"، إذا كان الاتصال باللغة العربية.

ومن الآداب: اختيار النغمة المباحة، والهادئة؛ لأن نغمة الجوال تعبر عن شخصية صاحبه.

ومن الآداب: اختيار الأوقات المناسبة للاتصال، فالاتصال كالاستئذان له أوقات محددة لا تتجاوز، ومن الأوقات التي لا ينبغي الاتصال فيها: أوقات الصلوات، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة؛ فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه، فلم يرد علينا، وقال: «إن في الصلاة لشغلاً»[2]، ومما يكره الاتصال فيه: الساعات المتأخرة من الليل، وأوقات القيلولة، وكل وقت لا يحب المتصَل به استقبال المكالمات فيه، إلا في القضايا المهمة التي لا تحتمل التأخير والانتظار.

ومن الآداب: إغلاق الجوالات أو جعلها على الصامت عند دخول المساجد، أو الأماكن التي يكره عرفًا الانشغال فيها بالجوال اتصالاً ورداً.

ومن الآداب: التماس الأعذار للمتصَل به، إذا لم يستقبل المهاتفة؛ فقد يكون في حال تمنعه من الجواب، أو ظرف لا يحب معه الاستقبال للمكالمة، فالتماس الأعذار من شيم الكبار.

ومن الآداب: عدم كثرة الرنين على المتصَل به، فإن أجاب سريعًا وإلا فليكُفَّ

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان، وهو حسن صحيح..

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

المتصل عن ذلك، فهذا قد يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[النور:٢٨].

ومن الآداب: الحذر من استعماله في البحث عن النساء وملاحقتهن بالمكالمات أو الرسائل، فمن يفعل ذلك أو تسول له نفسه سلوك هذه السبيل المعوجة فليتذكر أن الله يراه، وليعلم أن خدش حرمات الناس دَين قد يستوفى من عرضه، ومن دقّ باب الناس دقوا بابه، وكما تدين تدان، والجزاء من جنس العمل.

عباد الله، فهذه جملة من الآداب للذكور والإناث بمنطوقها أو مفهومها، وهي تدل على غيرها من الآداب.

ويضاف للمرأة خاصة: أن تتقي الله في اتصالها أو جوابها فلا ترقق صوتها أو تلينه؛ طلبًا لإعجاب الرجال وفتنهم، قال تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾[الأحزاب:٣٢].

أيها المسلمون، وما برحت نعمة الجوال في تقدم من خدمة إلى خدمة، ومن تيسير إلى تيسير، حتى اكتشاف ما يسمى بالـ(فيسبوك) الذي يعمل على الحواسيب في ظل توفر الشبكة العنكبوتية، ثم أضيف بعد ذلك خدمةً في الجوالات الحديثة، ثم ما هي إلا مدة يسيرة حتى جاءت خدمة أخرى أضيفت للجوالات ألا وهي ما يعرف بالـ(الواتساب). وهاتان الخدمتان فيهما منافع كثيرة لمن يحسن استخدامهما في الخير، فهما من أعظم الوسائل الحديثة في الدعوة إلى الله تعالى، وبث الوعي الصحيح، والدفاع عن الحق وأهله، ومحاربة الأفكار المنحرفة.

وهما من الوسائل المهمة في التواصل مع الناس: من أقارب وأصدقاء وزملاء وغيرهم.

وهما من المنابع الغنية لتلقي المعلومات والمعارف المتعددة، بالضوابط العلمية والشرعية.

وهما من السبل المعينة على البحث عن الأعمال والوظائف والدراسة، ونشر الخبرات والاستفادة منها، وترويج البضائع والمبيعات، وغير ذلك.

لكن هذه الفوائد والمنافع وغيرها مما لم يذكر هنا تخرج من بين فرث ودم؛ ولذلك كان لابد من التحصن بحصن آداب وأخلاق يتدرع بها المسلم من سهام مضار الفيسبوك والواتساب. فإليك أيها المستخدم لهاتين الخدمتين جملةَ آدابٍ تزينك عند الله تعالى وعند الناس. فمن ذلك:

عليك أن تتذكر أن كل كلمة تكتبها، وكل صورة تنشرها، وكل مقطع تبثه عبر جوالك إلى غيرك، أنها تصل إلى الله قبل أن تصل إلى الخلق، فانظر ماذا تكتب إلى الله، وماذا ترسل إلى الله؟ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار: ١٠-١٢].

وقال الشاعر:

وما مِنِ كاتبٍ إلا ستبقى ... كِتابتهُ وإن فنِيَتْ يداهُ
فلا تكتبْ بكفِّكَ غيرَ شيءٍ ... يَسرُّك في القِيامةِ أن تَراهُ

ومن الآداب: تثبّتْ قبل أن ترسِل، وتبّينْ قبل أن تنشر، فلا ترسل منشوراً، ولا صورة، ولا مقطعًا، إلا وتعلم صدقه، وصحة نسبته، ومن ذلك أخبار الصراعات السياسية،

(فما آفة الأخبار إلا رواتها)! قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾[الحجرات:٦].

وأعظم شيء يُتثبت فيه: النصوص الشرعية في الحلال والحرام، ومن ذلك الأحاديث، فخذها من المصادر العلمية الموثوقة، أو فاسأل أهل العلم العارفين عنها قبل أن تنشرها، فما أكثر الأحاديث المكذوبة المتداولة على الفيسبوك والواتساب، فاحذر أن يكون عملك (قص ولصق) من غير قراءة ومعرفة صحة المحتوى.

ومن الآداب: لا ترسل الروابط غير المعنونة؛ فقد يكون في باطنها شر وأنت لا تدري، أو قد يكون عنوان الرابط خلاف محتواه، فلا ترسل رابطًا إلا وقد فتحته وعرفت ما فيه.

ومن الآداب: أن يكون استعمالك هاتين الخدمتين كاستعمال الدواء: في وقت الحاجة، فإياك من الإكثار والإسراف؛ لأن ذلك سيلهيك عن كثير من واجباتك الدينية والدنيوية.

ومن الآداب: البعد عن تقمص الشخصيات، خصوصًا تقمص الرجل شخصية امرأة، أو المرأة شخصية رجل؛ فإن هذا تشبه، وقد (لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال)[1].

ومن الآداب: أن تحسن اختيار الصورة والحالة في جوالك وصفحتك، ؛ لأن ذلك يعبر عن شخصيتك وفكرك وميولك.

ومن الآداب: أحسنْ اختيار أصدقائك؛ فإنهم جلساء: والجليس إما أن يكون جليس خير، وإما أن يكون جليس شر، وكلٌّ متأثر بجليسه، قال رسول ﷺ: «المرء

---

(١) متفق عليه.

على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»(١).

ومن الآداب: كنْ حسنَ التعامل مع الناس، في خطابك وجوابك ورسائلك، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[البقرة:٨٣].

ومن الآداب: الحذر من تداول الرسائل التي فيها إلزام بعبادة من العبادات غير الواردة والتي تُذَيَّل بقولهم: إن من لم ينشرها فسيحصل له كذا وكذا مما يكره، أو أنه ليس من محبي الرسول، بصيغ متعددة تدل على هذه النتيجة.

ومن الآداب: لا بأس بالمزاح المباح، والمشاركة بالطرائف الصادقة التي ليس فيها طعن في الشرع، ولا أذية لأحد، وفي المباح المضحك ما يغني عن المكذوب المحظور، عن أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله ! إنك تداعبنا؟ قال: «إني لا أقول إلا حقاً»(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له ويل له»(٣).

أيها المسلمون، هناك قضية جزئية مهمة في هذا الموضوع تتعلق بإنشاء المجموعات في الواتساب والمشاركة فيها، فهذه لابد أن يكون فيها آداب على منوال ما سبق، فمن آدابها:

أولاً: أن على مدير المجموعة أن يعلم أنه مسؤول أمام الله تعالى عما يُنشر في مجموعته، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته»(٤). فعليه: أن

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وهو حسن.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد والترمذي، وهو صحيح..

(٣) رواه أبو داود والترمذي، وأحمد، وهو حسن.

(٤) متفق عليه.

يحسن اختيار الأعضاء، وعليه أيضًا: أن يراقب ما ينشر في مجموعته، فينكر المنكر، ومن تجاوز الحدود الشرعية والمسارات الأخلاقية فلينصحه، فإن استمر في نشر الباطل فليخرجه بأدب ولطف.

وثانيًا: أن يعلم المضافون أن المجموعات كالمجالس لها آداب المجالس، فالمجموعة التي يكثر فيها السوء ينكر على من أساء فيها بآدب إنكار المنكر، فإن لم يُستجب لدعوة الإنكار الصحيح فالخروج هو طريق السلامة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنعام:٦٨].

وثالثًا: التماس الأعذار للمخطئين، وحسن معالجة الأخطاء، فليس من الخلق الرفيع علاج الخطأ بخطأ أكبر منه؛ كالسباب والشتم واللعن والطعن والبهت.

رابعًا: الحذر من الاختلاط بين الجنسين؛ لأن ذلك له مضار كثيرة، ولو بعد حين، والطريق الصحيح أن تكون النساء مع النساء، والرجال مع الرجال، إلا في المجموعات العائلية الخاصة.

وخامسًا: على جميع الأعضاء أن يتحلوا بآداب الحديث والنقاش عند الحوار والاختلاف، وهذا من أهم الآداب في المجموعات، فالقول الحسن، وحسن الظن، وطيب الخطاب، والكلام بعلم، واحترام الآخرين ولو خالفوا في الرأي عنوان الشخصية الحوارية المؤثرة. قال تعالى: ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[النحل:١٢٥].وقال: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[فصلت:٣٤].

وسادسًا: أن تنسب المنشورات إلى أهلها، وهذا أسلم للدين والعرض، فلا يجوز

نسبة ذلك إلى النفس تصريحًا بكتابة الاسم، أو تلميحًا بعدم ذكر اسم صاحبه، فإذا لم يعرف صاحبه فيذيل بقول: "منقول" أو نحو ذلك. قال رسول الله ﷺ: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»(١).

وسابعًا: مشاركة الأعضاء في أفراحهم وأتراحهم، والحياة معهم بالمشاعر الحية، وتفقد منقطعهم، والسؤال عن غائبهم، قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٢).

وثامنًا: حسن تسمية المجموعات؛ فقد كان رسول الله ﷺ ينهى عن الأسماء القبيحة في الناس ويغيرها، ويأمر بالأسماء الحسنة ويثني عليها، كما عند ابن ماجه بمعناه، وعند أبي داود -وكلها صحيحة-: (كان رسول الله ﷺ إذا دخل قرية سأل عن اسمها، فإن أعجبه اسمها فرح ورئي بشر ذلك في وجهه، وإن كره اسمها رئي كراهية ذلك في وجهه).

وثامنًا: إذا عرضت مسألة علمية في المجموعة فلا يخوض فيها من ليس لديه معرفة، وإنما تحال إلى أهل الاختصاص، فالطب للأطباء، والمسائل الشرعية لأهلها، ورحم الله رجلاً عرف قدر نفسه، وقد علم كل أناس مشربهم، فدع العجين لخبازها، وأعط القوس باريها.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

أيها المسلمون، تلك هي الصفحة الناصعة لخدمتي الفيسبوك والواتساب حينما يتمسك أهلهما بتلك الآداب النافعة، وتجتنى منهما تلك الثمار السابقة اليانعة. ولكن في الصفحة المقابلة نجد هاتين الخدمتين قد جرّت على من أساء استعمالهما المضرات والحسرات، والويلات والندامات على الأفراد وعلى الأسر وعلى المجتمعات. حتى صارتا تخدشان أو تهدمان جدران المعتقدات الصحيحة، وتنحرفان بالأخلاق المستقيمة، وتنشران الفساد بين الناس نشراً ذريعًا، وتسوقان إلى الرذيلة سوقًا شديداً.

فمن مضارهما الكثيرة: الوصول بمعاول الهدم إلى الفكر الصحيح، والسلوك القويم، فكم من إنسان اعوج معتقده، ومالت أعماله وآدابه الصافية إلى مهاوي مردية آسنة، سواء كانوا صغاراً أم كباراً، ذكوراً أم إناثًا.

ومن مضارهما: انتشار الزندقة والمجاهرة بها حتى لم يعد تتمعر وجوه بعض الناس لذلك؛ لكثرة ما ينشر من هذا الخبث والنتن.

ومن مضارهما: ترويج الفاحشة، وتسهيل طريق الوصول إليها، فكم من ضحايا من الرجال والنساء قادهم إلى أوحال الخطيئة الاستعمالُ السيئ لهاتين الخدمتين، وتمنوا أنهم ما عرفوهما.

ومن مضارهما: انتشار الطعن في أعراض الناس بالظلم والكذب، وإيذاؤهم والتشهير بهم.

ومن مضارهما: قطع الصلات بين الناس، فبدل أن تكونا وسيلتي اتصال صارتا سببي انفصال؛ لسوء التعامل، وجفاف المشاعر، فكم من أقارب بهما تباعدوا، وكم من أصدقاء بهما تعادوا، وكم من أحباب بهما تباغضوا.

ومن مضارهما: ذهاب رونق الاجتماع الأسري، فالأسرة كانت من قبل إذا اجتمعت تبادل أفرادها حلوَ الكلام، ولذة اللقاء، وكؤوس الابتسامات المترعَة، وأنِسَ الوالدان بأولادهما، والأولاد بوالديهم، ولكن ماذا يجري الآن؟ تأملوا في المجالس التي تجمع الأقارب والأصدقاء: يصبح كل إنسان -ذكراً أو أنثى- غالبًا- ينظر إلى عالمه الصغير، ورفيقه الحبيب إلى جواله الذي يجول معه متناسيًا ما حوله، حتى يغدو المجتمعون كما قال الله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس:٤٠].

والداهية الدهياء حينما ينشغل الولد-ابنًا أو بنتًا- بجواله عن والديه، فقد يزورهما أو يزورانه، ليرياه ويسمعا منه، لكنه يعطيهما هامة رأسه ساجداً على صفحة جواله متخذاً له أبًا بدل أبيه، وأمًا بدل أمه!!؛ لأنه هائم بمعشوقيه: الفيسبوك والواتساب.

ومن مضارهما: تعكير العلاقات الزوجية، فعلى أقل سوء أنهما يشغلان كل شريك عن شريكه، حتى يصبح جوال الزوج ضرة للزوجة، وجوال الزوجة وظيفة لها تشغلها عن مهام بيتها وأولادها وزوجها. وعلى أكثر السوء أنهما أوصلا بعض الأزواج والزوجات إلى الخيانات الزوجية.

ومن مضارهما: أنهما أديا إلى تضييع الأعمال، وتفويت بعض المصالح، وشغلا عن الأمور الأكثر نفعًا.

ومن مضارهما: الإصابة بمرض الإدمان لدى بعض المستخدمين، فقد صاروا لا يقدرون على العيش بدونهما، ولا يطيب يومهم ولا ليلهم دون سجود طويل في محرابيهما.

فهذه الأضرار -معشر المسلمين- غيض من فيض، ونزر من كثر، وعينة من بضاعة زاخرة بالسيئات الكثيرة.

وفي الختام أقول: إنني لا أدعو إلى هجر هاتين الخدمتين وإخلاء الجو للفجرة والفسقة لنشر الباطل من غير مدافع عن الحق يبين بطلان الباطل، ولكنني أدعو إلى الاستخدام الجيد، وصرف هذه النعمة في الخير.

فعلى من يحب ولوج بحار الفسبكة والواتسبة أن يدخلها بدِين متين يحثه على نشر الخير، ودفعِ الشر، ويكون له طوقَ نجاة إذا هاجت تلك البحار وتلاطمت أمواجها بالشر.

وأن يخوضها بعقل حصيف يميز له السمين من المهين، والضياء من الظلماء، والدُّر من الحجر. وأن يلجها بخلق كريم يحجزه عن القول الذميم، ويبقيه على الصراط المستقيم عند هبوب رياح التغيير للنهج القويم.

فمن وجد في نفسه ضعفًا وطبعًا اسنفجيًا فلا يسبح في هذه البحور، وليبقَ بعيداً عنها، فالسلامة لا يعدلها شيء. ألا فليعلم واردُ هذه الموارد أنها سوق يربح فيها من يعرف البضاعة، وكيفيةَ المعاملة، ويخسر فيها الأعمى والأعشى والأحمق والباغي والجاهل والغافل والمدلس والمطفف. فما أعظم خسارة الخاسرين، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[الشعراء:٢٢٧].

هذا وصلوا على القدوة المهداة....

السوق.. آداب وأحكام[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن العيش الإنساني قائم على تبادل المصالح الحياتية التي تعين على بقاء النفس البشرية، وقضاء الحاجات المعيشية.

فمن تلك المصالح: مصلحة البيع والشراء، التي يستفيد منها البائع والمشتري وغيرهما من شركاء الحياة الإنسانية.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٤٣٨/٣/٢٤هـ، ٢٠١٦/١٢/٢٣م.

وهذه المصلحة قديمة قِدمَ الإنسان؛ فقد تعارف عليها الناس منذ قديم الزمان، ولا زالت في تطور مستمر في آلياتها ووسائلها، وكيفياتها، حتى وصل الإنسان المعاصر إلى ممارسة البيع والشراء عبر الأسواق الالكترونية.

ولعظم الحاجة الإنسانية إلى هذه المصلحة فقد أباحها الشارع الحكيم، وحرّم منها أشياء قليلة محدودة؛ لما في تلك البيوع المحرمة من المضرة الدينية أو الدنيوية، العاجلة أو الآجلة.

قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[البقرة:٢٧٥]. وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[النساء:٢٩].

وقال رسول الله ﷺ: «أطيب الكسب: عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور»(١).

وحينما كانت هذه الحاجة المعيشية مما يحتاجها كل الناس جُعلت لها أماكن تسمى الأسواق، سواء كانت أسواقًا عامة لكل ما يطلبه المتسوق، أم خاصة ببعض السلع.

وقد سُميتْ السوقُ سوقًا: لأن البائع يسوق سلعته إليها لبيعها، والمشتري يسوق تلك السلعة منه إلى رحله.

عباد الله، إن السوق لما كان مقصداً يوميًا للإنسان كان لابد من الوقوف قليلاً لمعرفة بعض الآداب والأحكام الشرعية المتعلقة به؛ لأن ديننا الحنيف حاكم عادل على شؤون الدنيا؛ ليحقق للمسلم بذلك السعادة في الدنيا والآخرة.

وقد كان من أسباب الحديث عن هذا الموضوع: اتساع مجال البيع والشراء، وتنوع

---

(١) رواه أحمد والطبراني والحاكم، وهو صحيح.

وسائله وسلعه، وكثرة الجهل بحكم الشرع في ذلك، مع ظهور الحرص الشديد على كسب المال، ولو من طرق غير مشروعة.

وقد أخبر رسولنا ﷺ عن زمان الطمع فقال -على سبيل الإنكار والتعجب-: «يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه: أمن الحلال أم من الحرام!»(١).

ومن الأسباب كذلك: أن الأسواق هي مواطن الغفلة، والحرص على الدنيا، ومكان للغِش والخصام والكذب والخيانة، ونحو ذلك.

يقول النبي ﷺ: «أحب البلاد إلى الله تعالى: مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله: أسواقها»(٢).

فلذلك يحتاج المسلم إلى معرفة بعض الآداب والأحكام التي تسلمه من هذه المعاصي.

أيها الأحبة الكرام، إن السوق في ظل الدولة في الإسلام لابد أن يقوم على نظام ديني ودنيوي؛ حتى تحفظ فيه حقوق الناس: الباعة والمشترين.

وهذا من مهمات الدولة، حيث تقوم بإيجاد النظام الذي تقوم عليه الأسواق، ثم تراقب سير العمل على ذلك. وغرضها من ذلك: إرضاء الله تعالى بحصول الحلال في هذه الأسواق، وبعدها عن الحرام، وكذلك: تحقيق مصالح الناس الاقتصادية والأمنية.

فمن تلك الآداب: اختيار المكان المناسب للسوق، وتنظيم مكان البائعين فيه؛ حتى لا يكون هناك مضرة على الآخرين.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

ومنها: متابعة أحوال البيع والشراء حتى لا يكون هناك مخالفات شرعية، فقد كان رسول الله ﷺ ربما يخرج إلى السوق ويعلِّم الباعةَ ما يجوز لهم وما لا يجوز، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مر على صُبْرة طعام(١)، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟! قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام؛ كي يراه الناس! من غش فليس مني»(٢).

ومنها: تعليم البائعين ما يجوز وما لا يجوز في البيع والشراء، وحثهم على الفقه في ذلك-بأي وسيلة من الوسائل الممكنة-.

فقد روي أن عمر رضي الله عنه كان يطوف في الأسواق ويقول: "لا يبيع في سوقنا إلا من قد تفقه في الدين"(٣).

وما أحسن أن تكون هناك لجنة شرعية تقوم بالتوعية السوقية؛ لتعريف أهل السوق ما يشرع وما لا يشرع، واستقبال الفتاوى المتعلقة بالبيع والشراء والإجابة عنها.

أيها المسلمون، إن على البائع المسلم أن يتعلم ويفقه الآداب والأحكام المتعلقة بالبيع والشراء؛ حتى يكون كسبه حلالاً، وقلبه مطمئنًا، وسمعته حسنة بين الناس.

وهذه الآداب التي سنذكرها للبائع منها الواجب، ومنها المستحب.

فعلى من يتصدر للبيع: أن ينوي بعمله التقرب إلى الله تعالى؛ لأنه بعمله هذا يكف نفسه عن الحرام، ويسعى على أهله وأولاده، وربما يتصدق، ويحسن على الخلق من

---

(١) الصُّبْرة: الطعام المجْتَمِع كَالكُومَةِ.

(٢) رواه مسلم.

(٣) شرح السنة، للإمام البغوي (٨/ ١٧).

ذلك الكسب، ولأن العادات تتحول إلى عبادات بصلاح النية.

وعلى البائع: أن يتحرى الحلال، ويحرص أشد الحرص على اجتناب الحرام في بيعه، فكل ما حرمه الله تعالى من المطعومات، والمشروبات، والملبوسات وغير ذلك يجب عليه أن يتجنب بيعه، ولا يسع المقام لذكر كل ذلك.

كما أن عليه أيضًا: أن يجتنب البيوع المحرمة؛ كبيوع الغرر، والربا، ونحو ذلك.

وعلى البائع كذلك: أن يتعلم ما يحل وما لا يحل في بيعه، والوسائل لذلك في عصرنا كثيرة: إما بدراسة، وإما قراءة، وإما سماع، وإما مشاهدة، وإما استفتاء وسؤال؛ لأن ذلك من العلم الواجب، قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١).

أيها الأحبة الكرام، ما أحسنَ أن يرى الناس بائعًا أمينًا لا يطفِّف في المكيال والميزان؛ بل يعطي المشتري حقه، ولا يأخذ منه إلا ما يستحقه؛ لأنه يعلم أن عقوبة المطفف شديدة، قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[المطففين:٦].

وما أجملَ أن يجد المشتري بائعًا لا يغش ولا يخدع، بل يكون ناصحًا للمشتري، قال النبي ﷺ: «خير الكسب: كسب العامل إذا نصح»(٢).

فإن كان في السلعة عيب أو نقص أظهره للمشتري، ولم يكتم ذلك.

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي، وهو صحيح.

(٢) رواه أحمد، وهو حسن.

قيل لعبد الرحمن بن عوف ﷺ: " ما سبب كثرة مالك؟ قال: ما كتمت عيباً، ولا رددت ربحاً "(١).

والبائع الأمين صادق مع المشترين، فلا يكذب في وصف السلعة، ولا في سعر شرائها، وهذا يبارك له في بيعه، قال رسول الله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»(٢).

والبائع الأمين لا يحلف اليمين الكاذبة، ولا يكثر من اليمين الصادقة من أجل ترويج بضاعته، وإقناع المشتري بها.

قال رسول الله ﷺ: «الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة»(٣). وفي رواية مسلم: «ممحقة للربح».

وعن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم»، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرارة، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»(٤).

والبائع الأمين لا يبيع المواد المحرمة لضررها، أو لفسادها بانتهاء زمنها المحدد لها من قبل مصانعها؛ لأنه لا يحرص على ربح فيه تلفٌ لنفوس الناس، وضرر عليهم، مهما كثر ذلك الربح.

---

(١) النجم الوهاج، للدميري (٤/١٧٧).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

فرضى الله هو غايته، وعدم غش الناس هو سبيله في كسبه، فهو يجلب البضاعة المباحة وينقيها من الحرام إن كان فيها، ويبيعها للمشتري بيعًا يرضي الله تعالى.

أيها الأحبة الفضلاء، إن من الواجبات على البائعين: ترك بيعهم في وقت الصلاة؛ لأن من المشاهد المؤلمة: ازدحام بعض الأسواق، وفتح محلات البيع في أوقات الصلوات، بل حتى في صلاة الجمعة!، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الجمعة:٩].

فكيف يطلب هؤلاء اللاهون عن الصلاة رزقَ الله تعالى وهم مقيمون على معصيته في ذلك الوقت؟!!.

ومن الواجبات على البائعين: أداء حق الله تعالى من الزكاة إذا بلغت بضاعتهم النصاب، وحال عليها الحول.

ومن الواجبات كذلك: أن يحفظ البائع عورات الناس، فيغض بصره عن تتبع محاسن النساء، ويحذر إمالتهن عن الستر والعفة بقول أو بفعل؛ فإن الله تعالى يراقبه، وإن له عورات، وللناس عيونٌ، وأقوال وأفعال أيضًا.

ومن الخصال الحميدة التي تُحمد من البائعين: استعمال الأخلاق الحسنة؛ كالسهولة والسماحة، وطلاقة الوجه وبشاشته، وحسن التعامل مع المشترين، وما أحسنَ أن يكون ذلك ابتغاء مرضاة الله.

قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا

اقتضى»[١].

وقال ﷺ: «إن الله يحب سمحَ البيع، سمح الشراء، سمح القضاء»[٢].

وقال ﷺ: «أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشتريًا، وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا»[٣].

أيها الإخوة الفضلاء، إن هذه الآداب والأحكام ونحو ذلك مما لم يُذكر إذا أخذ بها البائع المسلم ربح ونجا، واطمأن وسلِم، وبورك له في بيعه وماله، ونال الكسب الطيب. وزاد قُصَّاده من المشترين، واثقين بأمانته، وحسن معاملته، وجودة بِضاعته.

فلو كان الباعة عاملين بهذه الآداب والأحكام لعمَّ المجتمعَ الخيرُ الكثير، وتمكّنت في المال البركةُ والنماء، وساد في الناس الإخاء والحب والصحة.

فيا أيها البائع -أيًا كانت بضاعتك-، لا تغفل عن هذه الآداب والأحكام؛ فهي خير لك في الدنيا والآخرة، واحذر أن تبيع دينك من أجل دنياك، وآخرتك من أجل عيش لا يساوي عند الله جناح بعوضة.

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي والحاكم، وهو صحيح.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، وهو حسن.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً حمداً، والشكر له شكراً شكراً، والصلاة والسلام على من شرح الله له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، أما بعد:

أيها المسلمون، كما أن البائع محتاج إلى آداب وأحكام تحفظ له دينه في بيعه، كذلك المشتري مفتقر إلى شيء من الآداب والأحكام؛ كي يربح الحسنات، ويسلم من السيئات، ويُبارَك له فيما اشترى.

فالشراء حاجة يومية لا يستغني عنها الناس، وهو معاملة من المعاملات التي ينبغي للمسلم معرفة آدابها وأحكامها.

فعلى المشتري: أن يختار السوق التي تبعده عن معصية الله تعالى، ويختار الأوقات المناسبة التي يسلم فيها مما يؤذي قلبه وجسده؛ كأوقات الزحام، وكثرة النساء، وغير ذلك.

وعلى المشتري: أن يكون مال شرائه حلالاً، فلا يكون أكله وشربه، ولبسه وفرشه، ومركبه كالسيارة من الحرام، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت، النار أولى به»(١).

لأن المسلم التقي لا يملأ بطنه، ولا يصلح عيشه بشيء جاء من الحرام، قالت عائشة رضي الله عنه: "كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما

---

(١) رواه أحمد وابن حبان، وهو صحيح.

هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية وما أُحسنُ الكهانة، إلا أني خدعته، فأعطاني بذلك، فهذا منه. فأدخل أبوبكر يده فقاءَ كلَّ شيء في بطنه"(١).

وعلى المشتري كذلك: أن لا يقدم على شراء شيء حرمه الله تعالى ورسوله ﷺ؛ لأنه منهي عن ذلك، ولأن شراءه يشجع البائعين رقيقي الديانة على التجارة بالمحرمات.

وعلى المشتري أيضًا: أن يتعامل مع البائع بأمانة وصدق، من غير خيانة ولا غش ولا كذب، فلا يأخذ سلعة بغير حقها؛ كسرقة أو نهب أو اختلاس، أو من غير طيب نفس البائع، ولا يعطي البائع عملة مزوَّرة أو تالفة، ولا يخدعه في حساب ما اشترى؛ طمعًا في المال، ورغبة في السلعة من غير دفع ما تستحقه من الثمن.

أيها الأحباب الكرماء، إن من أخلاق المسلم الباذخة: الغيرة على نسائه، وكراهة أن يتعرضن لسوء قولي أو عملي.

ألا وإن من الغيرة المحمودة: أن تصان النساء عن الخروج إلى الأسواق وحدهن؛ خشية عليهن، وخشية منهن كذلك.

ألم يقل الله تعالى لأطهر النساء في أطهر العصور: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾[الأحزاب:٣٣]، فماذا سيقال لغيرهن، ولمن في عصرنا الحاضر؟.

ولكن إن كان للمرأة حاجة للسوق، وليس لها من يكفيها إياها فليكن خروجها لقضائها إلى سوق قريب غير مريب، وعلى حجاب كامل يرد عنها ذُباب البشر،

(١) رواه البخاري.

حجاب غير ضيِّق ولا شفاف، ولا رقيق ولا وصّاف، ولا مزيّن ولا جذاب لعيون الناظرين.

وأن تخرج في الأوقات الآمنة، غير متعطرة، ولا متبخترة، ولا مبخَّرة، ولا مبدية زينتها وفتنتها إعجابًا بنفسها، وفتنة لغيرها، وأن لا تكون خالية بالبائع، ولا مكثرة للحديث معه، فإذا قضت حاجة شرائها فلتعجل الرجوع إلى خدرها الكريم.

قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة تطيّبت، ثم خرجت إلى المسجد لم تقبل لها صلاة حتى تغتسل»(١). -من أجل إذهاب رائحة الطيب-. فإذا كان هذا إلى المسجد فكيف إلى السوق؟!

وقال ﷺ: «المرأة عورة، وإنها إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وإنها لا تكون أقرب إلى الله منها في قعر بيتها»(٢).

ومعنى: (استشرفها الشيطان): يعني: رفع البصر إليها، وزينها في أعين الرجال؛ ليغويها، أو يغوي بها، فيوقع أحدهما أو كليهما في الفتنة(٣).

أيها الفضلاء، إن البائع لينشرح صدره، ويشرق خاطره عندما يأتيه مشترٍ حسنُ الأخلاق، سهلُ التعامل، سمحٌ إذا اشترى، صادقٌ إذا أخبر، لا يكثر الخصام ولا الجدال، غير صخّاب ولا حالفٍ الأيمانَ الكاذبة، فإن نصح البائع لخطأ رآه منه كان ذلك بكلمة طيبة.

بل إن المشتري الأمين الناصح قد يشتري من البائع سلعة فلو وجدها تستحق

---

(١) رواه ابن ماجة، وهو صحيح.

(٢) رواه الترمذي والطبراني، وهو صحيح.

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٨٨١)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٠/ ٥٨).

أكثر من ثمنها فإنه يدفع للبائع زيادة على ذلك.

فعن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: "بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم"(١).

زاد ابن حبان في صحيحه: "فكان إذا اشترى شيئاً، أو باعه يقول لصاحبه: اعلم أن ما أخذنا منك أحب إلينا مما أعطيناكه فاختر". قال ابن حجر: "وروى الطبراني في ترجمته: أن غلامه اشترى فرساً بثلاثمائة فلما رآه جاء إلى صاحبه فقال: إن فرسك خير من ثلاثمائة، فلم يزل يزيده حتى أعطاه ثمانمائة"(٢). فانظروا -رحمكم الله- إلى أين وصلت به الأمانة والنصيحة؟

هذا وصلوا وسلموا على النبي الهادي...

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري (١/٢٤٩)، المعجم الكبير (٢/ ٣٣٤).

بهذا وصّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق القول كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى قد أنعم على آخر أمة أخرجت للناس بإرساله لها خيرَ أنبيائه، وسيد رسله وأصفيائه، محمدِ بن عبد الله الصادق الأمين. الذي جاءها على فترة من الرسل، وانقطاع من السبل، فهدى من الضلالة، وعلّم من الجهالة، وبصّر من العمى، ودعا إلى الحق المبين.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٢٠/١/١٤٣٨هـ، ٢١/١٠/٢٠١٦م.

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾[آل عمران:١٦٤].

فجاء نبينا محمد ﷺ من عند الله تعالى بالقرآن العظيم نوراً يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم.

ولما كان نبينا ﷺ هو المبلغَ عن الله تعالى رسالته فقد عصمه الله تعالى من ضلال القول والعمل؛ فكان أسوة لأمته في أقواله، وأعماله، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١].

عباد الله، لقد هيأ الله تعالى لسنة رسوله ﷺ رجالاً صادقين، وصلحاء موثوقين، وحفاظًا مأمونين، نقلوا إليها أقوال نبيه ﷺ، وأفعاله غضة طرية، مصونةً عن الزيادة والنقصان، والاختلاق والبهتان؛ لتكون تشريعًا مع القرآن الكريم لمن جاء بعد رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة؛ ليقول المسلم المتأخر كما قال رسول الله، ويفعل كما فعل رسول الله ﷺ.

ولما كان الأمر كذلك أمر اللهُ تعالى باتباع رسوله محمد ﷺ، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانكفاف عما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع.

وفي كتاب الله تعالى آيات كثيرة تأمر بهذا، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[الحشر:٧].

وقال: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴾[آل عمران:٣١].

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩].

أيها المسلمون، إن الله تعالى قد جعل سنة رسوله ﷺ مع القرآن الكريم مصدراً للتشريع، فهي شارحة للقرآن، ومفصلة لمجمله، ومبينة لمبهمه، ودالة على مقاصده، وآتية بأحكام أخرى لم تكن فيه نصًا؛ لأنها وحي من عند الله تعالى كذلك، قال عز وجل: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[النجم:٣-٤].

وعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه»[١].

عباد الله، إن المطَّلِع على سنة رسول الله ﷺ يجد فيها إرشاداً متنوعًا للأمة إلى طريق الهدى بما فيها من الأوامر والنواهي التي هي الدين الذي كُلِّف به الجن والإنس.

فمن ذلك الإرشادِ النبوي الوضّاء: ما جاء عن رسول الله ﷺ من الوصايا التي وصّى بها ابتداء، أو استُوصِي بها فنطق بها جوابًا.

والوصية بالخير وجه من وجوه الإرشاد الذي جاء في القرآن الكريم في آيات عديدة، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾[العنكبوت:٨]. وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾[النساء:١١].

---

١ رواه أحمد وأبو داود، وهو صحيح.

وقال: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الأنعام:١٥١].

وقد حكى القرآن الكريم عن خليل الله إبراهيم، وحفيد إبراهيم: يعقوب عليهما السلام أنهما سلكا طريق الوصية في إرشاد أولادهم، فقال تعالى: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٢].

أيها الأحبة الكرام، لقد زخرت سنة رسول الله ﷺ بوصايا نبوية كثيرة في جوانب متعددة من الدين، وسنشنِّف آذاننا -بعون الله تعالى في هذه اللحظات-، ونداوي قلوبنا بشيء من تلك الوصايا الواعظات، حاثين أنفسنا على العمل بتلك الوصايا المضيئة، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

فما أجملَ أن نسمع هذه الوصايا بآذان مصغية، وتصل منا إلى قلوب واعية، فهي ذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

فمن تلك الوصايا الثمينة: ما جاء عن سفير الهداية إلى اليمن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه أراد سفراً فقال: (يا نبي الله، أوصني، قال: «اعبد الله لا تشرك به شيئًا»، قال: يا نبي الله، زدني، قال: «إذا أسأت فأحسن»، قال: يا نبي الله، زدني، قال: «استقم،

وليحسن خلقك»[١].

فقد تضمنت هذه الوصية النبوية الجامعة: الأمر بعبادة الله تعالى وحده، وعدم الإشراك به، والوصية بهذا هي ما بعث الله تعالى به رسله عليهم السلام؛ لأن ذلك هو حبل النجاة من الشقاء في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٣٦].

وقال رسول الله ﷺ: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»[٢].

والوصية الثانية في الحديث: الأمر بالتوبة عقب عمل المعصية حيث قال ﷺ: «إذا أسأت فأحسن»؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ولأن المسارعة إلى التوبة عند حصول الذنب تدل على الندم، وبقاء الخير في قلب صاحبه، ولأن أجل الإنسان بيد الله تعالى لا يعلم به صاحبه، فربما وافاه قبل أن يتوب من خطيئته؛ فلذلك أوصى رسول الله ﷺ بسرعة المبادرة إلى التوبة؛ لأن التسويف، وطول الأمل ينسي الآخرة.

قال علي رضي الله عنه: " إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الأمل فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة.

والوصية الثالثة في الحديث: فهي أمر رسول الله ﷺ بالاستقامة، وهي كقول الله تعالى: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[هود:١١٢]. وكقول رسول الله ﷺ: «قل: آمنت بالله فاستقم»[٣].

---

(١) رواه ابن حبان والحاكم، وهو حسن.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

والاستقامة معناها: لزوم طريق الحق، وترك الانحراف عنه إلى غيره، وهي طريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[الأنعام:١٥٣].

والوصية الرابعة في الحديث: أمره ﷺ بحسن الخلق، الذي يراد به: بذل المعروف من قول أو فعل أو حال، وأداء الحق لذي الحق، وكف الأذى عن الورى.

وما أحوجَ الإنسان -خصوصًا المسافر- إلى التمسك بحسن الخلق في سفره ليدفع عنه المكروهات، ويحصد منه كثرة الحسنات؛ طاعةً لله تعالى، ويكون ذلك من أسباب دخول الجنة، قال رسول الله ﷺ: «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله، وحسن الخلق»(١).

إن هذه الوصية التي أوصى بها رسول الله ﷺ حبيبه معاذاً رضي الله عنه عند سفره هي كوصيته لأبي ذر رضي الله عنه حيث جاء عنه رضي الله عنه أنه قال: قلت: -يا رسول الله- أوصني، قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالقِ الناس بخلق حسن»(٢).

أيها الإخوة الأفاضل، ومن وصايا رسولنا ﷺ لمعاذ رضي الله عنه أيضًا: أن معاذاً رضي الله عنه قال: يا رسول الله، أوصني، قال: «اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك بك من هذا كله قال: هذا» وأشار بيده إلى لسانه(٣).

فقد أمر رسول الله ﷺ معاذاً رضي الله عنه بمراقبة الله عز وجل؛ لأن مراقبة الله تعالى

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

(٢) رواه أحمد والترمذي، وهو حسن.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد.

في السر. والعلن تحرس صاحبها من ركوب المعصية، أو التقصير في الطاعة، ومن كان مراقبًا لله جل وعلا في خلوته وجلوته صلح له شأنه في دنياه وآخرته.

كما أوصاه ﷺ بالاستعداد للموت؛ لأن من كان مستعداً للموت في كل وقت ذهبت عنه سِنَة الغفلة، وأخذ لما بعد الموت الأُهبة، فجهّز زاد النجاة، وملأ حقائب سفره بما ينفعه عند لقاء ربه، وتخلّص من مظالم الخلق وحقوقهم، وظل مشغولَ البال بالرحيل، فإذا ناداه منادي الرحيل أجابه فرحًا مشتاقًا، غيرَ فزِعٍ ولا مشعوف، ولا آبق ولا حزين، وقال: مرحبًا بحبيب جاء على موعد.

وكذلك وصّاه ﷺ بحفظ اللسان عما لا يجوز التفوه به؛ لأن اللسان إذا لم يستقم صار بوابة إلى النار؛ فكم من الذنوب اللسانية التي أوردت صاحبها موارد الهلكة، أما إذا استقام اللسان فإنه يكون بوابة إلى الجنة؛ فكم من الأعمال الصالحة اللسانية التي صيّرت أهلها في الدرجات العلى، بعد أن نالوا رضوان الله تعالى في الدنيا.

قال رسولنا ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»(١).

وقال النبي ﷺ: «أكثر ما يدخل الناس النار: الفم، والفرج»(٢).

أيها الإخوة الفضلاء، ومن وصايا رسول الله ﷺ لحبيبه معاذ رضي الله عنه كذلك: أنه أخذ بيده يومًا ثم قال: «يا معاذ، والله إني لأحبك»، فقال له معاذ: بأبي أنت وأمي يا

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) رواه الترمذي وابن حبان، وهو حسن.

رسول الله، وأنا والله أحبك، قال: «أوصيك -يا معاذ-: لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللّٰهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»(١).

فرسول الله ﷺ -من حُبِّه لمعاذ- أوصاه بهذه الوصية العظيمة، لتكون هجِّيراه وعادته المستمرة عقب الصلاة، وهي وصية بملازمة هذا الدعاء إثر طاعة عظيمة هي الصلاة؛ فتكون الدعوة أقرب إلى الإجابة. وهذا الدعاء الموصى به يتضمن معاني عظيمة؛ فإن العبد فقير عاجز، محتاج إلى معونة الله تعالى له في كل أموره، ومن أهمها: الإعانة على فعل المأمورات، ومنها: ذكر الله تعالى الذي يشمل أموراً كثيرة منها: الصلاة، وتلاوة القرآن، والثناء على الله تعالى بتهليله وتكبيره، وتحميده وتسبيحه، ونحو ذلك.

ومنها أيضًا: شكر الله على نعمه؛ فالإنسان قد يتنعم بنعم الله تعالى دون أن يشكر الله عليها عمداً أو غفلة، فما أحسن أن يأتي عون الله تعالى للعبد ليدفعه إلى شكر الله تعالى، فإذا رزق الشكر على النعمة فهي نعمة تحتاج إلى شكر أيضًا؛ فلذلك ليكن شكر العبد لله تعالى عبادة لا تنقطع ما بقيت الحياة.

ومنها كذلك: حسن العبادة، فالعبادة لله تعالى شيء عظيم، ولكن أعظم منها: أن تكون هذه العبادة عبادة رافقها الإحسان، فالعبادة الحسنة ما اجتمع فيها الإخلاص لله والمتابعة فيها لرسول الله، وتوفرت فيها شروط العبادة الصحيحة بأن تكون موافقة للشرع في كيفيتها، وجنسها، وقدرها، وسببها، وزمانها ومكانها.

فهذه الأمور العظيمة تحتاج إلى عون الله تعالى للعبد، فما أحسنَ أن تكون للمسلم دعاء مستمراً عقب الصلاة.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن حبان، وهو صحيح.

أيها المسلمون، ومن الوصايا العظيمة التي أوصى بها رسول الله ﷺ: ما جاء في حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ -وهو على ناقته الجدعاء، في حجة الوداع- يقول: «أوصيكم بالجار»، حتى أكثر، فقلت: إنه يورثه(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليلي ﷺ أوصاني: «إذا طبخت مرقًا فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف»(٢).

فقد تضمنت هذه الوصية النبوية في هذين الحديثين الشريفين: الأمر بأداء حق عظيم من الحقوق المجتمعية، ألا وهو حق الجار في المنزل أو العمل.

فإن للجار حقوقًا كثيرة على جاره يجمعها: بذل الإحسان إليه قولاً وفعلاً، وكف الأذى عنه قولاً وفعلاً، وحسًا ومعنى.

فالجار من أقرب الناس إلى جاره، ومن أعلم الناس بأخباره وأسراره، وهو أكثر الناس ملازمة للمكان الذي فيه أهله وولده وماله، أو ماله وقوام عيشه؛ فلهذا فهو محتاج إلى دوام الود، وتبادل المعروف معه؛ لأن العيش لا يطيب، والبال لا يستريح مع جار لا تؤمن بوائقه، ولا غوائله.

لأجل هذا جاءت الوصية بإحسان الجوار من الله تعالى حيث قال عز وجل: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء:٣٦].

---

(١) رواه الطبراني، وأحمد، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

ومن جبريل عليه السلام: كما قال رسول الله ﷺ «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»(١).

ومن نبينا ﷺ، كما في الحديثين السابقين، وغيرهما.

معشر المسلمين، ومن الوصايا النبوية: ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بثلاث لا أدعهن حتى أموت: «صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على الوتر»(٢).

ففي هذه الوصية النبوية: أمر رسول الله ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه بثلاث سنن: ثنتان في الصلاة، وواحدة في الصيام.

فالأولى: أوصاه بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، سواء صامها في أول الشهر أم وسطه، أم آخره، وصيام هذه الثلاثة الأيام يعدل في الثواب صيام سنة، كما في الحديث: «وصم من الشهر ثلاثة أيام؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر»(٣).

والصيام الصحيح من العبادات التي تصقل النفوس وتهذبها، وتربي صاحبها على إيثار ما عند الله على ما تحبه النفوس وتهواه.

والثانية: أمره بصلاة الضحى، وهي سنة حسنة تربط العبد بمعبوده في ذلك الوقت-من طلوع الشمس إلى قبيل الزوال- الذي ينهمك فيه الناس في عمل الدنيا

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

غالبًا ويغفلون عن الصلاة، وأقل هذه الصلاة: ركعتان يركعهما المسلم ليكفي بهما نفسه عن صدقة أعضائه؛ كما في الحديث: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة: فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزي من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[1].

والثالثة: أمره بصلاة الوتر قبل النوم؛ حتى لا تفوته إذا لم يستيقظ من الليل، وهذه الصلاة سنة مؤكدة حافظ عليها رسول الله ﷺ في حضره وسفره. ومن صلاها في أول الليل فأراد أن يقوم وسط الليل أو آخره ليصلي فليصل، ولكن لا يوتر مرة أخرى؛ لقوله عليه ﷺ: «لا وتران في ليلة»[2].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد والثلاثة، وهو صحيح.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

أيها الأحباب الأفاضل، ومن وصايا نبينا ﷺ: ما ورد في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بسبع: «بحب المساكين، وأن أدنو منهم، وأن أنظر إلى من هو أسفل مني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أصل رحمي، وإن جفاني، وأن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن أتكلم بمُرِّ الحق، وأن لا تأخذني في الله لومة لائم، وأن لا أسأل الناس شيئًا»(١).

ففي هذه الوصية الجامعة: أوصى ﷺ بحب المساكين، والقرب منهم؛ لأن ذلك يزيل عن صاحبه الكبر والغرور، ويزرع في قلبه الرفق والرحمة، ويخلق بين الناس المحبة والإخاء.

ووصى ﷺ في الحديث: بالنظر إلى الأقل حالاً من الدنيا؛ لأن ذلك أدعى إلى شكر نعم الله تعالى، وبعدم النظر إلى من فوق الإنسان في أمر الدنيا؛ لأن ذلك أدعى إلى عدم احتقار نعم الله واستقلالها.

كما أوصى ﷺ بصلة الرحم وإن قطعت؛ لأن ذلك يدل على تغليب إرضاء الله تعالى على ما تحبه النفس من الانتصار لها على من جفاها من الأقارب.

وأوصى ﷺ كذلك بكثرة قول: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ لأنها كنز من كنوز

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي وأحمد وابن حبان، وهو صحيح.

الجنة، وهي ذكر يستعان به على الإقبال على طاعة الله، وترك ما يشغل عنها، ولأنها اعتراف بحاجة العبد الفقير العاجز إلى المعبود القادر القوي سبحانه وتعالى.

وأوصى ﷺ أيضًا بقول الحق، ولو كان الناس لا يحبونه، أو يؤذون صاحبه، ويكون ذلك ابتغاء وجه الله من غير خوف من لوم اللائمين.

وختم ﷺ هذه السبع الوصايا بأمره بعدم سؤال الناس شيئًا، حتى يكون الإنسان عزيزاً شريفاً، متعلِّقَ القلب بالله تعالى وحده، فإذا احتاج شيئًا سأله من الله تعالى.

عباد الله، ومن وصايا النبي ﷺ: ما جاء في حديث عن جابر بن سليم الهجيمي قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: أوصني، فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإنه يكون لك أجره، وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار؛ فإن إسبال الإزار من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة ولا تسبن أحداً»، فما سببت بعده أحداً، ولا شاة، ولا بعيراً[١].

وهذه الوصية النبوية هنا جامعة لمكارم الأخلاق مع الخلق، حيث اشتملت على الحث على صنع المعروف للناس، والتواضع لهم، والصبر على أذاهم.

وبعد، أيها المسلمون، فهذه بعض الوصايا النبوية التي سمعتموها فيها أنوار هادية إلى الطريق المستقيم، وفيها محذِّرات من عبور طرق أهل الجحيم. وفيها تزكية للنفوس، وإصلاح للقلوب، وتقويم للسلوك المعوج، وتربية على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال.

---

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود، وهو صحيح.

وفيها استنهاض لهمم القاعدين، وحثٌّ على السير في سبيل السابقين، وعلاج ناجع لمرضى الفتور، وزاد نافع يوم البعث والنشور.

وفيها منطلَق راسخ على إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع.

فما أحسنَ أن نعمل بهذه الوصايا، ونتواصى بها فيما بيننا؛ لأنها من عمل الصالحات، ومن التواصي بالحق؛ لكي نسلم-إن عملنا بذلك- من الخسارة الإنسانية، كما قال تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ وَالْعَصْرِ. * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[العصر:١-٣].

هذا وصلوا على النبي المختار....

وعظ المشاهد[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ بن عبد الله، ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار..

أيها المسلمون، إن هذه الحياة بما فيها موعظة بليغة للمتعظين، وعِبرة نافعة للمعتبرين، مواعظها الناطقة ومواعظها الصامتة. وعلى الإنسان إذا أراد الاتعاظ أن يسير في هذه الحياة على مركب التأمل فيما يرى ويسمع ويلاقي، وأنْ لا يمر على مشاهد الدنيا مرورَ غافل غير معتبر.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٣/٤/١٤٣٦هـ، ٢٣/١/٢٠١٥م.

المسلم العاقل ينظر إلى الحياة نظرة اعتبار وادكار، فيستفيد من ناطقها ومن صامتها موعظة تسوقه إلى الخير و تحجزه عن الشر.. إنه يتجاوز نظرُه المظاهرَ إلى أعماق المشاهدَات فيرى عِبراً ترقق قلبه، وتدمِع عينَه، وتخصِب فكره، وتشرح صدره. أما من كان معرضًا عن العمل بالإسلام غارقًا في لهو الدنيا، تائهاً عقله في سكرة شهواتها فإنه ينظر إلى مشاهد الحياة بمنظار شهواته واهتماماته نظرة دنيوية قاصرة أو مشوهة.

عباد الله، لقد دعا القرآن الكريم إلى إعمال النظر في هذا الكون؛ لكي يعتبر الناظر بما يشاهد فيصلح معتقده وعمله بالنظر إلى تلك العِبر.

فقد أمر الله تعالى بالنظر إلى ما في السماوات والأرض؛ لمعرفة عظمة الخالق تعالى واستحقاقه العبودية وحده، فقال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[يونس:١٠١].

وأمر عز وجل بالنظر إلى الأرض كيف أنبت الله نباتها فأخرج منه طعام الإنسان الذي يعيش به.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنعام:٩٩].

وقال: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾[عبس:٢٤-٣٢].

وأمر تبارك وتعالى بالنظر إلى مصارع المكذبين ونهاية الظالمين؛ حتى لا يسلك غيرهم طريقهم فيهلك كما هلكوا، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦].

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[الروم:٩].

أيها المسلمون، إن الناظر في سنة رسول الله ﷺ يجد أنه ﷺ قد سلك مسالك متعددة في تعليمه الأمة ووعظه إياها؛ لأن الناس مختلفون في الطرق التي تؤثر فيهم. وإن من تلك الأساليب التي استعملها رسول الله ﷺ في التعليم والموعظة: الوعظ بالمشهد.

فهناك مشاهد رآها رسول الله ﷺ مع بعض الصحابة في مواقف مختلفة فصدرت منه كلمات مضيئة من الوعظ والإرشاد صارت أبلغ من القول المجرد. وسنتناول اليوم -بعون الله- بعضًا من تلك المشاهد وما قال فيها رسول الله من بديع الموعظة والتعليم، ولتكون لنا تلك النظرة المتأملة الثاقبة طريقًا لسلوك النظرة نفسها في غيرها من مشاهد الحياة.

أيها الأحبة الكرام، جاء في الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي ﷺ سبيٌ فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في

النـار»؟ قلنـا: لا، وهـي تقـدر عـلى أن لا تطرحـه، فقـال: «لله أرحـم بعبـاده مـن هـذه بولدها».

فتأملوا معي -رحمكم الله- في هذا المشهد المؤثر كيف رحمة هذه الأم وعطفها وهي بين السبي، فقد فقدت رضيعها فاجتمع لبنها ليشاركها البحث عن وليدها، فتضررت باجتماع اللبن، فكانت ترضع من لقيت من الرضعاء، وهي في ذلك تسعى باحثة عن ولدها، فلما وجدته بعد عناء البحث ألصقت ثديها بفمه ناسية آلام البحث وأوجاع نفسها في ظل السبي. فكيف سيكون فرحها به وسرورها بلقائه؟.

كثير من الناس وقتئذ شاهد هذا المشهد فرقّ للأم ورق للصبي ووقف عند ذلك، لكن رسول الله ﷺ نقل الصحابة رضي الله عنهم والأمة كلها إلى عِبرة أعظم وأعظم.

فإذا كان الوالدان هما مثالَ الرحمة في هذه الحياة فهناك من هو أرحم منهما، إنه الله رب العـالمين الـذي أوصى الوالـدين بـأولادهم فقـال تعـالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾[النساء:١١].

بـل إنـه أرحـم بالإنسـان مـن نفسـه؛ ولـذلك نهـاه عـن قتلهـا، قـال تعـالى: ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[النساء:٢٩].

أيها الإنسان إن من رحمة الله بك أنه أمرك أن ترحم نفسك بفعل طاعته وترك معصيته؛ لأنه لا يحب لك أن تدخل النار، فإذا عصيته ورددت رحمته بك فلا تلومن إلا نفسك.

أيها الإخـوة الفضـلاء، مشـهد آخـر مـن مشـاهد العـبرة، رواه البخـاري وغـيره عـن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده

جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع لقوله، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا»؟ فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

فهذا مشهد آخر يجلّي لنا قيمة الإنسان عند الله، وقيمته عند الناس. فأما لدى أكثر الناس فقيمة الإنسان بمظهره ومستواه الدنيوي حالاً ومالاً ووظيفة، فإذا كان من الأغنياء أو ذوي الوظائف الرفيعة فهذا هو الذي يُجلّ ويحترم، وتكون له الهيبة والمكانة في العيون والقلوب، ولو كان من أكثر الناس عصياناً لله، وبعداً عن الخُلق القويم. وأما إذا كان من الفقراء الهزلْ الذين لا يملكون المال الكثير والجاه العريض ولا الوظيفة الراقية فليست له مهابة، ولا تقدير ولا هيبة، ولو كان من أتقى الناس وأصلحهم.

قال ابن الأحنف:

يمشي الفقيرُ وكلُّ شيء ضدُّه ... والناسُ تُغلِق دونه أبوابَها
وتراهُ مبغوضًا وليس بمذنبٍ ... ويَرى العداوةَ لا يرى أسبابَها
حتى الكلابُ اذا رأتْ ذا ثروةٍ ... خضعتْ لديه وحرّكت أذنابَها
وإذا رأت يومًا فقيراً عابراً ... نبحتْ عليه وكشّرت أنيابها

وقال آخر:

إن الدراهمَ في المواطنِ كلِّها تكسو الرجالَ مهابةً وجمالا
فهي اللسانُ لمن أراد فصاحةً وهي السلاحُ لمن أرادَ قتالا

وقال آخر:

ما الناسُ الا مع الدنيا وصاحبِها فكلما انقلّبتْ يومًا به انقلبوا
يعظِّمون أخا الدنيا فإن وثبَتْ يومًا عليه بما لا يشتهي وثبوا

هذا النظر المتباين هو نظر أكثر الناس إلى الناس، بحيث يُنزِلون كل إنسان حسب ما يملك لا حسب ما يعمل من الخير أو الشر.

وهنا أراد رسول الله ﷺ بهذا المشهد أن يربي الأمة على أن يكون نظرها بمنظار التقوى. فالرجل الأول لما كان من أشراف الناس بماله وجاهه فهو ذو مكانة بينهم بذلك، فإن خطب امرأة لا ترد خطبته؛ طمعًا في ماله وحسن حاله، وإن شفع شفاعة قبلت شفاعته؛ رغبة فيما عنده أو رهبة مما عنده، وإن تكلّم سمعوا لقوله، لا لفصاحته وحسن كلامه، ولكن لمكانته وحسن دنياه، بخلاف الرجل الآخر.

فأراد رسول الله ﷺ أن يقول للناس: إن قدر كل إنسان بما يحمله من الصلاح والهدى والخلق الحسن، وليس قدره بماله أو جاهه أو وظيفته، وأراد أن يبين كذلك أن صلاح الحياة تكون بأمثال الرجل الثاني. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾[الحجرات:١٣].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى

قلوبكم وأعمالكم»[١].

أيها الإخوة الكرام، مشهد آخر يذكره لنا أنس بن مالك ﵁ قال: إن رسول الله ﷺ مر بشجرة يابسة الورق فضربها بعصاه فتناثر الورق، فقال: «إن الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة»[٢].
وفي رواية لأحمد في المسند: أن رسول الله ﷺ أخذ غصنًا فنفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فلم ينتفض، ثم نفضه فانتفض، فقال رسول الله ﷺ: «إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها».

إنه تقريب بديع لتكفير الذنوب بهذه الكلمات العظيمة: " سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر " كلمات فيها تنزيه الله وثناء عليه، وتوحيده وتعظيمه. إن الذنوب –معاشر المسلمين– بذر سيء، إذا لم يتداركه المسلم بالكفارات والحسنات الماحيات نبت شجره، وأينع ثمره، واشتد عوده، وتفرّعت أغصانه، لكن الله تعالى قد رزق العبد ما ينفض به ورق تلك الشجرة السيئة قبل أن يلاقي ربه عند حصاد العمر ومحاسبة الزرّاع فيما زرعوا. هذه الأشياء النافضة هي هذه الأذكار النافعة، وغيرها من مكفرات الذنوب.

فانظروا إلى هذا الأسلوب الرفيع القريب في بيان الذنوب والمكفرات لها، فهناك شجرة، وهناك أغصان، وهناك نفض، وهناك نافض، وهناك سقوط في النهاية، وثمت نكتة لطيفة في هذا التشبيه البديع ألا وهي أن بعض الأوراق قد تكون عنيدة فتحتاج إلى أكثر من ضربة حتى تسقط، وكذلك هناك معاصٍ كبيرة تفتقر إلى أكثر من مكفِّر

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي، وهو حسن.

وإلى استمرار المحو حتى تغفر.

عباد الله، وجاء في الصحيحين عن المغيرة بن شعبة ﵁ قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غَيْرَ مُصْفَحٍ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «تعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن». وفي رواية لمسلم قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا إلى ما يقول سيدكم، إنه لغيور». وعند أحمد بسند حسن، قال بعض الأنصار: (يا رسول الله، لا تلمه؛ فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها؛ من شدة غيرته).

ففي هذا المشهد يبدو سعد ﵁ رجلاً غيوراً غيرة شديدة حتى إنه لو وجد رجلاً مع زوجته على حال مكروهة لن ينتظر حتى يأتي بالشهود، بل سيباشر الفاعل بالقتل. فالنبي ﷺ بين أن غيرة سعد صفة كمال، ثم بين أن هناك من هو أغير منه وهو رسول الله وهناك أغير من رسول الله وهو الله تعالى، وغيرة الله اقتضت أن يحرم الفواحش على الناس ما ظهر منها وما خفي.

إن الغيرة -معشر المسلمين- إذا تجذّرت في أخلاق الإنسان ولازمته فهي درع حصينة له ولأسرته وللمجتمع من الفواحش، ولكن عندما تضعف الغيرة وينكسر بابها في شخصية المرء فإن العفة والنزاهة تبدأ بالتسلل والخروج من شخصيته لتلج مكانها الدياثةُ والرضا بالفاحشة.

أيها المسلمون، مشهد آخر يحكي لنا مثالاً من أمثلة عزة النفس، ويعطينا صورة مؤثرة من صور تربية رسول الله ﷺ وحسن موعظته. عن حكيم بن حزام ﵁ قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا

حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى». قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر ﷺ يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر ﷺ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم -يا معشر المسلمين- على حكيم أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي)[1].

فتأملوا في هذا المشهد كيف وعظ رسول الله ﷺ حكيمًا، بل كيف وعظ الأمة كلها، وانظروا أيضًا كيف استفاد حكيم من هذه الموعظة البليغة حتى مات. لقد سأل حكيم رسولَ الله ﷺ مالاً المرة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، ومن حسن تربية رسول الله ﷺ: أنه لم يقل له: أكثرت علي، أو لن أعطيك بعد ذلك، أو قسا عليه في الخطاب ومنعه المال، وإنما أعطاه هذه الكلمات المضيئة التي أصبحت نبراسًا له في طريق العزة، وقيداً وعظيًا يحول بينه وبين استعطاء غيره.

لقد وضح له رسول الله ﷺ أن النفوس البشرية بطبيعتها متعلقة بالمال، غير أنه بين له أن لأخذه طريقين: طريقًا مذمومًا، وطريقًا محموداً، فالطريق المذموم هو أخذه بطمع وجشع، والطريق المحمود هو أخذه من غير تطلع وشره.

وبين له كذلك العاقبة لأخذه بالطريق الأولى وهي أنه ينتِج قلةَ البركة، وعدمَ القناعة به، حتى ولو كثر ويكون كالذي يأكل ولكن لا يشبع مهما أكل.

ثم بين له ﷺ أن الشرف للإنسان أن يكون معطيًا لا أن يكون سائلاً فقال: «اليد

---

(١) رواه البخاري.

العليا خير من اليد السفلى».

فانظروا أثر هذه الموعظة في نفس حكيم، لقد بلغت هذه الكلمات المشرقة العميقة منه مبلغًا عظيمًا، بحيث عاهد رسول الله ﷺ على أن لا يأخذ من أحد بعده شيئًا لا بسؤال ولا بغيره حتى يموت فوفى بعهده رضي الله عنه حتى مات.

أيها الإخوة الأفاضل، جاء في الصحيحين عن عمرو بن عوف: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها وكان الرسول الله ﷺ هو صالحَ أهل البحرين وأمّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع النبي ﷺ فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء»؟. قالوا: أجل، يا رسول الله، قال: «فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم».

فانظروا -أيها الأحبة- إلى هذا المشهد الذي فيه: حضور مال كثير، ومجيء ناس للحصول عليه لحاجتهم، وموعظة رسول الله ﷺ فيه.

إن في هذا المشهد درسًا تربويًا وإيمانيًا رائعًا صدر من رسول الله ﷺ، لقد أراد ﷺ أن يربي الناس على أن الفقر مع الطاعة ليس مصيبة، إنما المصيبة أن يكون هناك غنى ترافقه المعصية، الذي يجعل أهله يعيشون من أجل التنافس على الدنيا مع نسيانهم الآخرة.

هنا رأينا قدوم الناس فرحين من أجل المال فأعطاهم رسول الله ﷺ شيئين:

شيئًا لأيديهم وهو المال، وشيئًا لقلوبهم وأرواحهم وهو الموعظة التي تضمنت التحذير من التنافس على الدنيا؛ لأن التنافس عليها يوصل أهله إلى الهلاك في الدنيا والآخرة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه، أما بعد:

أيها المسلمون، فما زلنا في حديث رسول الله ﷺ نقرأ مشاهد الموعظة والعبرة؛ لنجتني منها دروس الإرشاد في مسيرة حياتنا.

مشهد جديد، ولكن هذه المرة في سوق من الأسواق يدخله رسول الله ﷺ.

فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلاً من بعض العالية، والناس على جانبيه، فمر بجدي أسك- صغير الأذنين- ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: (أيكم يحب أن هذا له بدرهم)؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: (أتحبون أنه لكم)؟ قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال:(فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم)(١).

إنه درس إيماني بليغ من هذه الصورة، يكشف فيه عن حقيقة الدنيا، وأنها لا تستحق التنافس فيها واللهث وراءها، واللهف على فواتها؛ لأنها لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة. إنما الشيء الذي يستحق أن يتنافس فيه، ويبذل من أجله الغالي والرخيص هو الجنة التي كملت نعيمًا ولذة وبقاء، قال تعالى: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت:٦٤].

معشر المسلمين، ومن المشاهد المؤثرة التي تجعل المسلم يتعلق بالجنة مهما لقي في الدنيا

---

(١) رواه مسلم.

من النعيم والترف: ما جاء عن البراء بن عازب ﭬ قال: أُهدي لرسول الله ﷺ سَرَقةٌ من حرير فجعل القوم يتداولونها بينهم، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا»؟ فقالوا له: نعم، يا رسول الله، قال: «والذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا»(١).

لقد نقل رسول الله ﷺ الأذهان من هذا المشهد في الدنيا إلى الآخرة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فإذا كانوا يعجبون من لين ذلك الثوب الحريري وحسنه ونعومته، فكيف لو لمسوا ما أعده الله لعباده المؤمنين في الجنة ومنهم سعد بن معاذ ﭬ. ففي هذا درس للمؤمن أن يكون تعلقه بالدار الآخرة فيما يحس ويشاهد ويسمع.

أيها المسلمون، وبعد هذا نقول: إن عصرنا الحاضر يزخر بكثير من المشاهد المؤثرة التي لو تأملها الناس لكانت لهم من أسباب الهداية والاستقامة والتعلق بدار البقاء والزهد في دار الفناء. بل لقد تعددت وسائل نقل تلك المشاهد ووسائل إضافة نكهة التأثير عليها. وإذا كانت مشاهد النصوص أقوى تأثيراً على من حضرها في العصور الخالية فإن لدينا في العصر الحاضر وسيلة يمكنها حفظ الصورة ونقلها إلى مشاهدين آخرين، ففي هذا العصر صارت الصورة الثابتة أو المتحركة هي لغة العصر المعبرة عما يجري فيه، وربما تكون صورة واحدة أبلغ في التأثير من ألف كلمة.

إن الصورة المشاهدة تغير بعض المفاهيم الخاطئة، وتحرك الإنسان الواقف عن الخير للحركة إليه، وتثبّت ما كان في الأذهان بعد رؤيته بالعيان، كما جرى هذا لذلك الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وكما جرى كذلك لخليل الله إبراهيم ﵇

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

حينما انتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٥٩-٢٦٠].

ولكن نقول: إنه ومع كثرة الصور المؤثرة في هذا العصر إلا أن الاتعاظ قليل، وإن حصل فهو عند بعض الناس تأثرٌ آني، سرعان ما يذهب، دون أن يحرك إلى عمل صالح. وبالمقابل فهناك من أثرت فيهم صورة العصر الحاضر الثابتة أو المتحركة فنقلتهم إلى خير كثير. نسأل الله أن ينفعنا بالمواعظ الصامتة، والمواعظ الناطقة، ويجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

هذا وصلوا وسلموا على القدوة المهداة...

رحلة الموت: آداب وأحكام[(١)] [(٢)]

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليبلوَ عباده أيهم أحسن عملا، الذي جعل لمن عاش منهم أجلا، ولمن مات بعثًا ونشورا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحي القيوم الذي لا يموت وجميع خلقه يموتون. ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:٨٨].

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الذي قال الله تعالى له: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾[الزمر:٣٠].

والذي قال عنه: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِينْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤-١٤٥].

فاتقوا الله-عباد الله-؛ فإن تقوى الله أمرُه في كتابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٠/٤/١٤٣٦هـ، ٣٠/١/٢٠١٥م.

(٢) هذه الخطبة هي الأولى من سلسلة بعنوان: " الطريق إلى الوطن الأخير" وتتضمن هذه السلسلة ست خطب، وتلي هذه الخطبة: ٢- الفراغ من دفن الميت: آداب وأحكام ٣- أنباء القبور ٤- مشاهد في عرصات القيامة ٥- دار الشقاء: أهوال وأحوال ٦- دار النعيم: أوصاف وأفراح.

اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإنَّ أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ بن عبد الله، ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار...

أيها المسلمون، إنها مدة قصيرة، وأيام معدودة، وزيارة سريعة، يقضيها المسافر في دار غربته، ثم ينتقل بعدها إلى وطن إقامته، ماراً بمحطتين حتى يُلقي عصار التسيار في دار القرار.

لابد لهذا المسافر من ركوب رحلة لازمة يفارق فيها الأهلَ والأحباب، والأملاك والأصحاب، ويترك حياة الدنيا وأحياءها، راكبًا صهوة الموت التي لا يتخلف مخلوق عن ركوبها، ولن يفر أحد من امتطائها. قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥]، ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[النساء:٧٨]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الجمعة:٨].

عباد الله، إن هذه الرحلة هي رحلة الوداع، وانقضاء زمن الاستمتاع، ونهاية الحياة الفانية، وبداية الحياة الباقية، التي تبلى فيها السرائر، وتكشف فيها الضمائر؛ لحساب المكلفين على ما قدموا في عمرهم الغابر.

فمن هو المسرور في هذه الرحلة، ومن هو الحزين فيها يا عباد الله؟

إن السعيد الفرِح المشتاق إليها هو العبد المؤمن الذي ينتقل عبرها من دار العناء إلى دار الهناء، ومن دار الغربة إلى دار الوطن، ومن دار التكليف والعمل، إلى دار الجزء وبلوغ الأمل، وينتقل من مكابدة الأشواق إلى رؤية الحبيب الخلاق، تلك اللحظات التي يلاقي فيها ربه سبحانه الذي عبده بالغيب ولم يره، فكيف يكون فرحه بلقياه، وكيف لا يفرح إذن؟

وأما الحزين الكاره لمجيئها فهو العبد المسرف على نفسه بمعصية الله؛ لأنه ينتقل في هذه الرحلة من دار الغفلة التي لها فيه، وركب الملذات والشهوات المحرمة إلى دار اليقظة التي يجد فيها جزاء تفريطه وإسرافه على نفسه، وينتقل كذلك من دار الإباق عن سيده إلى دار يلقى فيها سيده الذي عصى أوامره، وركب زواجره، مع أنه أمهله، وأغدق عليه نعمه وحلمه، فكيف لا يحزن ولا يخاف؟

عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه أنه كان يحدث: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُرَّ عليه بجنازة فقال: «مستريح ومستراح منه». قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»(١). ولهذا قد تجدون بعض الصالحين تظهر الابتسامة على وجوههم، ويُرى فيها النور عند مفارقة الجسد؛ لأنهم رأوا البشرى بالوجوه المشرقة التي جاءت مع ملك الموت لقبض الروح الزكية. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت: ٣٠].

---

(١) متفق عليه.

أيها المسلمون، كثيراً ما يتحدث المتحدثون، ويسمع السامعون عن ترقيق القلوب بذكر الموت وما فيه، ولكنْ قليلاً ما يتكلم المتكلمون، ويصل إلى أسماع المتلقين الحديثُ عن الآداب والأحكام في رحلة الموت؛ ولذلك سنتحدث اليوم -بعون الله تعالى- عن بعض تلك الآداب والأحكام.

أيها الأحبة الفضلاء، على المسلم أن يكون مستعداً للموت في كل وقت؛ لأن الموت لا يستأذن على أحد، ولا يحدد زمانًا لحلوله، ولا مكانًا لنزوله، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٤].

فمن وجوه الاستعداد: أن يخرج المسلم من جميع المظالم التي في عنقه للناس، من دم أو مال أو عرض، فيرد الحقوق إلى أهلها وهو في زمن القدرة قبل مجيء زمن الإفلاس والقضاء من الحسنات والسيئات.

قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[١].

وقال النبي ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم، من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[٢].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

فحاسب نفسك -أيها المسلم- اليوم، وأعدِ الحقوق إلى ذويها، ولا تغرنك الحياة الدنيا، فعما قريب ستتركها وتترك ما فيها، ولن تأخذ معك منها إلا قطعة قماش تبقى معك في قبرك أيامًا ثم تبلى.

ومن الاستعداد: أن يبقى المسلم متصلاً بالتوبة طالبًا المغفرة، حريصًا على ملازمة طاعة الله تعالى؛ فقد يُقبض فجأة، ويختم له بعمل صالح، والأعمال بالخواتيم، ومن مات على شيء بعث عليه.

ومن الاستعداد: كتابة الوصية، فإن كانت لك حقوق مالية على الناس فاكتبها، وإن كانت للناس عليك حقوق مالية فدونها أيضًا. وهذه وصية واجبة، وإن لم تكن حقوق لا عليك ولا لك فأوصِ بما تريد أن يصنعه أقاربك أو من له شأن بك بعد موتك، وهذه وصية مستحبة. قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم يبيت ليلتين، وله شيء يريد أن يوصي فيه إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه». قال ابن عمر: "ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي"(١).

عباد الله، إذا وصل المسلم إلى مرض الموت، أو إلى حالٍ يظن فيها الموت فعليه أن يحسن الظن بالله، ويكون بين الخوف والرجاء، يخاف الله من ذنوبه، ويرجو رحمة ربه. دخل النبي ﷺ على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك»؟ قال: أرجو الله -يا رسول الله- وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»(٢).

وعليه أن يكثر من ذكر الله تعالى، وخاصة كلمة التوحيد، قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله عند الموت دخل الجنة يومًا من الدهر، وإن أصابه

(١) متفق عليه.

(٢) رواه ابن ماجه، وهو حسن.

قبل ذلك ما أصابه»(١).

هذا ما على المسلم في آخر لحظاته من الدنيا. فما أحسن أن يلقى المسلم ربه خفيفًا من الأوزار ثقيلاً بالطاعات، وما أجمل أن يفارق الناس وقد أعطى كل ذي حق حقه، فأراح نفسه، وأراح أقاربه وشركاءه، ولم يحمل معه من مظالم الناس شيئاً في كفنه إلى قبره.

أيها المسلمون، وأما الأقارب والحاضرون ساعةَ الاحتضار فعليهم أمور، منها: أولاً: لزوم الهدوء والسكينة، وعدم كثرة اللغط والاختلاف ورفع الأصوات؛ لأن قريبهم المحتضر يعاني سكرات الموت فلا ينبغي أن يضاف إليه عناء آخر.

وعليهم كذلك: أن يتكلموا بالخير في تلك الساعة، ويدعوا له بالرحمة والغفران. قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميت، فقولوا خيرا؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون»(٢).

وعليهم أيضًا: الصبر والاحتساب والاسترجاع والرضا بقضاء الله وقدره، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة:١٥٥-١٥٧].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض فصبر واحتسب بثواب دون الجنة»(٣).

---

(١) رواه ابن حبان، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه النسائي، وهو حسن.

وعليهم كذلك: الابتعاد عن الصياح والنواح، وخمش الوجوه، وتقطيع الثياب، وعن كل فعل ينبئ عن تسخط قضاء الله، قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»(١).

أما البكاء بدمع العين من غير صراخ فلا بأس به؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: (دخلنا مع رسول الله ﷺ وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف! إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى فقال: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم، لمحزونون»(٢).

وعليهم أيضًا: أن يلقنوه لا إله إلا الله بلطف من غير إكثار ولا إملال. قال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»(٣).

فإذا خرجت الروح يستحب للحاضرين أن يغمضوا عيني الميت ويغطوه؛ لحديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: «دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة، وقد شق بصره، فأغمضه ثم قال: إن الروح إذا قبض تبعه البصر. فضج ناس من أهله فقال: لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون، ثم قال: «اللّهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونوّر له فيه»(٤).

ويجوز للحاضرين ولغيرهم الكشف عن وجهه وتقبيله، كما فعل أبو بكر بالنبي

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه ابن حبان، وهو صحيح.

(٤) رواه مسلم.

ﷺ. ويجوز الإعلان عن وفاته من أجل الاجتماع للصلاة عليه ودفنه، من غير نعي يشبه نعي الجاهلية.

عباد الله، فإذا قبض المسلم فعلى أقاربه المبادرة إلى قضاء ديونه -إن أمكن-؛ لقول النبي ﷺ: «نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه»(١).

وعليهم كذلك الإسراع إلى تنفيذ وصيته، إن كان فيها شيء مباح يقام قبل الدفن. وعليهم كذلك الإسراع بتجهيزه وعدم تأخيره، قال النبي ﷺ: «أسرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»(٢).

هكذا كل إنسان تختم حياته الدنيا بالموت،لتبدأ بعده الحياة الحقيقية في دار البقاء.

لِدُوا للموتِ وابنُوا لِلخُرابِ فكُلّكُمُ يَصِيرُ إلى التراب
فمَرجِعُ كلّ حيٍّ للمَنايا وغايةُ كلّ مَلْكٍ للذهابِ
بنو الدنيا فرائسُ للمنايا ونابُ الموتِ عنهم غيرُ نابِ
ومَن يَغتَرّ في الدّنيا بعَيشٍ فقد طلبَ الشرابَ من السرابِ

أيها المسلمون، فينتقل الميت بعد ذلك إلى المغسلة؛ ليتم تغسيله وتكفينه؛ ليقدم على الله تعالى طاهراً.

وغسل الميت المسلم واجب كفائي على الأحياء إذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن بقيتهم. ويغسل الرجال الرجال، والنساء النساء، إلا الزوجين فيجوز أن يغسل أحدهما الآخر. وغسل الميت من الأعمال الصالحة التي فيها أجر عظيم، ولكن

(١) رواه أحمد وابن حبان وابن ماجه وغيرهم، وهو صحيح.
(٢) متفق عليه.

بشروط:

أولاها: أن يكون الغاسل مخلصًا لله في ذلك العمل، وثانيها: أن يكون ذا معرفة بالكيفية الصحيحة لغسل الميت، وثالثها: أن يكون أمينًا على ما يرى من الميت من العيوب الجسدية فيسترها ولا ينشرها.

قال رسول ﷺ: «من غسل مسلمًا فكتم عليه غفر له الله أربعين مرة، ومن حفر له فأجنّه أجري عليه كأجر مسكن أسكنه إياه إلى يوم القيامة، ومن كفنه كساه الله يوم القيامة من سندس واستبرق الجنة»(١).

وينبغي أن يكون التغسيل في مكان مستور، ولا يحضر مع المغسل إلا من يحتاج إليه.

وكيفية التغسيل: أن يبدأ المغسل بوضع الميت فوق مكان مرتفع ويجرده من ثيابه، وأن يضع على عورته من الثياب ما يسترها، وأن يلف الغاسل على يده خرقة غليظة يمسح عورته بها بعد أن يعصر بطنه عصراً خفيفاً؛ لإخراج الفضلات، وأن يوضئ الميت وضوءه للصلاة، ويمسح أنفه وأسنانه وشفتيه مسحاً رقيقًا، ثم يغسله بالماء والصابون ثلاثًا أو خمسًا بدءً بالجنب الأيمن ثم الجنب الأيسر، ويكون في الماء طِيبٌ وسدر، ثم يعم الماء على جميع البدن ابتداء من الرأس، ثم ينشفه بعد التغسيل. فإن كان الميت امرأة مضفورة الشعر فتفك الغاسلة ضفائرها، ثم بعد الغسل تضفر شعرها ثلاث ضفائر، وتلقيها خلفها.

ويستحب لمن غسل الميت أن يغتسل بعد ذلك.

فإذا كان الميت سقطًا فينظر: إن كان ابن أربعة أشهر فصاعداً فإنه يغسل ويكفن

---

(١) رواه البيهقي والحاكم، وهو صحيح.

ويصلى عليه ويقبر؛ لأنه قد صار نفسًا بنفخ الروح، وإن كان قبل أربعة أشهر فلا يغسل ويقبر على حالته.

أيها الإخوة الفضلاء، تأملوا في الإنسان الذي كان يأمر وينهى، ولا يتحرك إلا بإرادته، كيف صار في مغسلة الموتى يحركه الغاسل كما يشاء، ويقلبه كما يريد، إن في ذلك لعبرة في بيان ضعف الإنسان وعجزه، وفي بيان أن لقدرته وقوته وإرادته وسلطانه مدة محدودة، وزمانًا تنتهي فيه.

عباد الله، وبعد التغسيل تزال الثياب التي غطت عورته من غير نظر، ثم يكفن. ويصح التكفين بكل ثياب تستر جسد الميت، ولكن البياض إذا توفر فهو أحسن. ويستحب إحسان الكفن وتبخيره وتطييبه. ثم يجهز الميت للصلاة عليه ولتشييعه ومواراته في المقبرة.

هكذا-يا عباد الله- يأخذ الإنسان من دنياه كلها كفنًا ويمضي إلى الحساب على أعماله وأمواله في مدة عمره في الدنيا، فهل أخذ في ذلك الكفن مالاً أو قصراً أو جاهًا أو شيئاً مما كان يتمتع به في الدنيا؟

أين الثيابُ التي قد كنتَ تلبسُها وأينَ مالُك في أيامِك الأُوُل

قد أنزلوكَ إلى دارٍ بلا فُرشٍ ولا أنيسٍ ولا جاهٍ ولا خَوَل

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصلاة والسلام نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

أيها المسلمون، ومازال الميت يسير في رحلته، وقد بقيت له ثلاث مراحل حتى يستقر في قبره:

فبعد تكفينه يحمل للصلاة عليه، والصلاة عليه فرض كفاية. وصفة الصلاة على الميت: أن يوضع الميت بين يدي الإمام فيقف الإمام محاذيًا الرأس إن كان الميت رجلاً، وعند الوسط إن كان الميت امرأة، ويصف الناس خلفه ثلاثة صفوف فأكثر. فيكبر عليه أربع تكبيرات ويجوز خمسًا، فيقرأ بعد التكبيرة الأولى الفاتحة، وبعد الثانية الصلاة الإبراهيمية، وبعد الثالثة الدعاء للميت، بما ورد مثل: (اللّهم اغفر له وارحمه، واعف عنه وعافه وأكرم نزله، ووسع مدخله واغسله بماء وثلج وبرد، ونقه من الخطايا كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيرا من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجًا خيراً من زوجه، وقه فتنة القبر وعذاب النار)[١]. ومثل: (اللّهم اغفر لحينا وميتنا، وشاهدنا وغائبنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، اللّهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان، اللّهم لا تحرمنا أجره، ولا تضلنا بعده)[٢]. فإن لم يحفظ ذلك فليدعُ للميت بالمغفرة والرحمة. ثم يكبر التكبيرة الأخيرة فيسلم مثل تسليمه في الصلاة.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وهو صحيح.

عباد الله، لنتذكر هذا الموقف والإنسان بين يدي الإمام يصلي عليه، ليكون ذلك الدخول إلى المسجد هو آخر دخوله إليه في الحياة، بل إن بعض الناس يعد ذلك الدخول له إلى المسجد هو أول دخول وآخر دخول في وقت واحد؛ لأنه لم يعرف المساجد، فيا من هجر المسجد، ادخل المسجد ورجلاك تحملك، قبل أن تدخله والنعش يحملك.

أيها الأحبة، ثم بعد الصلاة يشيع الميت إلى قبره. والتشييع من الأحياء للميت من الأعمال الصالحة، ومن حق المسلم على المسلم. عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان، قيل: وما القيراطان؟ قال: مثل الجبلين العظيمين»(١).

ويستحب الإسراع بالجنازة؛ لقول رسول الله ﷺ: «ذا وضعت الجنازة، واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني، وإن كانت غير صالحة قالت: يا ويلها، أين يذهبون بها!؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه الإنسان لَصَعِقَ»(٢).

ويجوز المشي أمامها وخلفها وعن يمينها وعن يسارها، لكن المشي خلفها أفضل، ويستحب لمن حملها أن يتوضأ. وتحمل الجنازة حتى تصل مكان قبرها ودفنها في التراب، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾[طه:٥٥].

وينزل الميت إلى قبره من مؤخرة القبر، ويقول الذي يضعه في لحده: بسم الله، وعلى سنة رسول الله، أو ملة رسول الله. ويستحب لمن حضر الدفن أن يحثو عليه ثلاث

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

حثوات من التراب بعد الفراغ من سدِّ اللحد.

أيها المسلمون، ثم يرجع الناس الأقارب والأباعد إلى بيوتهم وقد خلفوا الميت وحيداً فريداً يلقى جزاء ما عمل في دنياه. لقد ترك الميتَ الأحبابُ والخلان، والأصدقاء والجيران بلا أنيس ولا جليس.

فيا أيها الإنسان، تجهز لهذه الرحلة بزاد من التقوى؛ فإن هذا الزاد يجعل تلك الرحلة رحلة سعيدة، تنقلك من بلاد الأتراح إلى بلاد الأفراح، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[البقرة:١٩٧].

هذا وصلوا وسلموا على الهادي البشير...

الفراغ من دفن الميت: آداب وأحكام[(١)] [(٢)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد وضعَ المشيِّعون قريبَهم أو صديقهم أو جارهم أو أخاهم المسلم في قبره ثم رجعوا إلى بيوتهم وأعمالهم وقضاء ما تبقى من أعمارهم، فعند ذلك تعود للميت روحه فيسمع قرع نعال مشيعيه إذا ولّوا راجعين، قال رسول الله ﷺ: «إن

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٧/٤/١٤٣٦هـ، ٦/٢/٢٠١٥م.

(٢) هذه هي الخطبة الثانية من سلسلة بعنوان: " الطريق إلى الوطن الأخير" تتضمن هذه السلسلة ست خطب، وكانت الخطبة الأولى بعنوان: رحلة الموت: آداب وأحكام، وتلي الخطبة الثانية: ٣- أنباء القبور ٤- مشاهد في عرصات القيامة ٥- دار الشقاء: أهوال وأحوال ٦- دار النعيم: أوصاف وأفراح.

العبد إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه حتى إنه يسمع قرع نعالهم»(١).

عباد الله، على المسلم الحي إذا عاد من دفن قريبه أو حبيبه أن يعود بنفس متعظة راضية بقدر الله تعالى، متطلعة إلى ما عند الله الذي به سلوة عن كل مفقود، وأُنسٌ عن كل ذاهب.

ويستحب للجيران والأقارب وغيرهم من المسلمين أن يصنعوا لأهل الميت الطعام وما يحتاجون إليه؛ لكونهم قد شُغِلوا عن ذلك بمصابهم. فإن رسول الله ﷺ لما بلغه استشهاد جعفر رضي الله عنه قال للناس: «اصنعوا لآل جعفر طعامًا؛ فإنه قد أتاهم ما يشغلهم»(٢). وهذا الفعل من الخصال الحميدة، ومن حق الجار على جاره. ولكن السيئة جرت اليوم بين الناس بأن أقارب الميت صاروا هم الذين يصنعون للناس المعزين الطعام، بل يستأجرون صالات للعزاء عدة أيام ويخسرون لذلك مالاً كثيراً، والمصيبة تتضاعف على أولئك الأقارب إذا كانوا فقراء؛ فقد فقدوا قريبهم، وفقدوا مالهم، وفقدوا راحتهم في استقبال الناس وإطعامهم. وهذا مع ما فيه من مخالفة شرعية فيه إسراف غالبًا، وقد يكون من مال التركة الذي يحتاجه وارثو الميت، خصوصًا إذا كانوا أطفالاً. ولو أبقوا هذا المال للورثة لكان خيراً لهم، ولو تصدقوا به عن الميت لكان خيراً للميت.

عباد الله، إن العزاء في الإسلام معناه: التسلية والتخفيف عن أقارب الميت وأحبائه بكلمات التصبير والرضا، والدعاء للميت بالمغفرة والرحمة، وليس معناه التثقيل على أولئك الأقارب وإرهاقهم بدنيًا وماليًا ونفسيًا. فالعزاء المطلوب يكون

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود والترمذي، وهو حسن.

بمثل: "إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبروا ولتحتسبوا"، ونحو ذلك من العبارات المباحة، سواء كان ذلك أثناء الدفن، أم في الطريق، أم في البيت في زيارة قصيرة، أم بالاتصال أم بالإرسال. ويحصل بذلك العزاء الشرعي من غير تثقيل بالإقامة والاجتماع الطويل. فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: (كنا نعد -وفي رواية: نرى- الاجتماعَ إلى أهل الميت، وصنيعةَ الطعام بعد دفنه من النياحة)(١). وقد تتابع فقهاء الإسلام على ما تضمنه هذا الحديث بذكر كراهية الاجتماع على العزاء والطعام في كتبهم.

أيها المسلمون، إن الإنسان إذا مات انقطع عمله، لكن المسلم قد تصل إليه أجور إلى قبره بأعمال صالحة تركها من بعده، أو أعمالٍ صالحة أهدى أجرَها له أقربوه أو محبوه، فما هي تلك الأعمال التي تصل حسناتها الميتَ إلى قبره؟

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علمًا علمّه ونشره، وولداً صالحًا تركه، ومصحفًا ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته»(٣). فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذين الحديثين من الأعمال: العلم النافع، وهذا يعم ما خلّفه صاحب العلم النافع من مؤلفات وفتاوى وطلاب يحملون علمه بعده. وذكرَ صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه ابن ماجه والبيهقي وابن خزيمة، وهو حسن.

الولدَ الصالح، ولعل الأب كان له يد في إصلاحه وتقويمه وهو كذلك سيدعو له من بعده. وذكر أيضًا: الصدقةَ الجارية، وهي تشمل: بناءَ المساجد، وحفرَ الآبار للناس ليشربوا ويستقوا منها، وبناءَ بيت لابن السبيل، والمصحفَ والكتبَ العلمية النافعة. وينتفع الميت كذلك من أقاربه ومحبيه بعد موته: بالدعاءَ والاستغفار له منهم، والصدقةِ عنه، ونشرِ خيره بين الناس بعد وفاته. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[يس:١٢].

ومن آثارهم الحسنة: هذه الأعمال الصالحة التي تضمنها الحديثان السابقان.

عباد الله، إذا أودع الإنسانُ قريبَه أو حبيبه في القبر فلا ينبغي أن ينساه، بل عليه أن يتذكره، ومن مظاهر التذكر: زيارة قبره للدعاء له. وزيارة القبور من الأعمال الصالحة المهجورة التي لا يعرفها كثير من الناس إلا عند إدخال ميت جديد، بخلاف زيارة الحدائق والمتنزهات التي قد تزار في الأسبوع مرات عدة؛ ولذلك تبقى المتنزهات مزدحمة بالزائرين، وزيارتها لإدخال السرور على النفس، أفما يكون هناك حق للقلب والروح كذلك؟ إن زيارة القبور من أدوية القلب والروح؛ فإن الزائر لها يتذكر الآخرة فيستعد لها بالأعمال الصالحة؛ فإنه عندما يصل إلى ذلك المكان الصامت الذي يعظ بصمته أبلغ من عظات الناطقين يرى تلك المنازل الخاليات المتجاورات الصغيرات فيتذكر حينئذ مصير أصحاب القصور وسكان الدور، وأرباب الجاه والسلطان والدنيا العريضة، ويتذكر أنه عما قريب سيصل إلى هذا المكان الخالي ويصبح جاراً جديداً لأهله. قال رسول ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنها تذكركم الموت»[1]. وعند الحاكم بسند حسن: «فإنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هُجرا».

---

(١) رواه مسلم.

وعلى الزائر حينما يصل إلى المقبرة: أن يسلم على الأموات ويدعو لهم كما فعل رسول الله ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ كلما كان ليلتها من رسول الله ﷺ يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»(١).

وعنها رضي الله عنها قالت: قلت: كيف أقول لهم؟ يا رسول الله، قال: «قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون»(٢).

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى على المقابر قال: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط، ونحن لكم تبع، أسأل الله العافية لنا ولكم»(٣).

أيها الأحبة الكرام، وعلى الزائر للقبور أيضًا: أن يعتقد أن المقبور قد انقطع نفعه وضره للأحياء؛ فلا يطلب منه شيئًا ولو كان وليًا أو عالمًا أو عابداً صالحًا، بل الميت هو المحتاج إلى الحي؛ لذلك لا يجوز أن يُدعى أو يُرجى، ولو حصل ذلك فإنه لا يجيب ولا يُثيب. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾[الأحقاف:٥].

وعلى الزائر كذلك: أن يسلك الطريق المخصصة للمشي بين القبور، وإذا لم تكن

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

هناك طريق خاصة فلا يجوز له أن يمر فوق القبور بحذائه؛ فإن إيذاء الأموات كإيذاء الأحياء، إلا إذا خشي ضرراً عليه بخلع الحذاء. فعن بشير ابن الخصاصية أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يمشي في القبور وعليه نعلان فقال: «يا صاحب السبتيتين، - ويحك- ألقِ سبتيتيك»(١).

ويشرع للزائر-إذا لم يصلِّ على ميته صلاة الجنازة- أن يصلي عليه عند قبره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها بعد أيام فقيل له: إنها ماتت، فقال: «فهلا آذنتموني، فأتى قبرها فصلى عليها»(٢). وعلى الزائر إذا أراد أن يدعو للميت أن يستقبل القبلة.

أيها الفضلاء، لا يجوز للزائر أن يقعد فوق القبر، ولا أن يصلي في المقبرة إلا صلاة الجنازة إذا فاتته.

وكذلك لا يجوز أن يسب الأموات الذين يكرههم؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الأموات؛ فإنهم أفضوا إلى ما قدموا»(٣). إلا إذا مرّ بقبر كافر فيبشره بالنار فقط؛ لقول رسول الله ﷺ: «حيثما مررت بقبر كافر فبشره بالنار»(٤).

معشر المسلمين، هناك بعض الأعمال المنهية أو المحدثة التي يعملها بعض المسلمين في المقابر وعند زيارتها وبعضها جاء من تقليد الكفار، وهذا الأفعال يجب الابتعاد عنها؛ لأنها ليست من هدي رسول الله ﷺ، فمن تلك الأعمال: البناء على

(١) رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود والنسائي وغيرهم، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

القبور حتى تصير مرتفعة، وسؤال الميت جلب الخير أو دفع الشر، واستلام القبور وتقبيلها وإلصاق البدن بها، وتبخيرها وتطييبها. ووضع الزهور عليها، ورشها بالماء، ونحو ذلك من الأعمال المجانبة لهدي رسول الله ﷺ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المجتبى، وعلى آله وصحبه الأخيار الأوفياء، أما بعد:

أيها المسلمون، من المسائل المهمة التي تتعلق بهذا الموضوع -وهي من شأن المرأة-: مسألة الإحداد لموت زوج أو قريب. فنقول: إن الإحداد معناه: ترك الزينة والطيب وما في معناهما مما يحسِّن المرأة للناظرين. فإذا كان الميت قريبًا للمرأة: كأب أو أم أو أخ أو أخت أو ابن فيجوز للمرأة أن تحدّ عليه ثلاثة أيام فقط، ولا يجوز لها أن تحد فوق ذلك؛ لحديث زينب بنت أبي سلمة قالت: دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ فقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا» ثم دخلت على زينب بنت جحش - حين توفي أخوها- فدعت بطيب فمست، ثم قالت: مالي بالطيب من حاجة، غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول -فذكرت الحديث- [(١)].

أما إذا كان الميت زوجًا فإن مدة الإحداد أربعة أشهر وعشر ليال من تاريخ الوفاة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[البقرة:٢٣٤].

وبقاء الزوجة هذه المدة تكون وفاءً بحق الزوج وتعظيمًا لهذا العقد الوثيق، وإظهاراً لبراءة رحمها. ولأن تزينها قد يدعو إلى الزواج بها، وقد تلجأ بعض النساء

---

(١) رواه البخاري.

المستعجلات إلى الكذب في انقضاء عدتها حتى لا يفوتها الزوج، فجعل الله تعالى هذه المدة لهذه الحِكم ولغيرها.

عباد الله، إن هذه المدة في الامتناع عن النكاح والزينة والخروج من المنزل للمرأة إذا كانت حائلاً- يعني: غير حامل-، أما إذا كانت حاملاً فإن العدة تنقضي. بوضع الحمل، ولو بعد يوم من موت الزوج. كما جاء في الصحيحين من حديث سبيعة الأسلمية أنها لما مات عنها زوجها وولدت وطهرت أفتاها رسول الله ﷺ بأنها قد حلّت حين وضعت حملها، وأمرها بالتزوج إن بدا لها.

فإذا كان حملها سقطًا فوضعته ميتًا فينظر: فإن كان ابنَ أربعة أشهر فصاعداً فإن عدتها تنتهي بوضع ذلك السقط؛ لأنه صار نفسًا، وأما إذا كان ذلك السقط قبل أربعة أشهر فإنها تتم أربعة أشهر وعشرا.

أيها الإخوة الفضلاء، يلزم المرأةَ أثناء مدة الإحداد أن تترك لبس الزينة من حُلي بجميع أنواعه من ذهب وفضة وكرستال ونحوها، ويلزمها ترك العطور والبخور ونحوها من أنواع الطيب، ويلزمها أن لا تلبس الثياب التي فيها زينة، وإنما تلبس الثياب العادية التي ليس فيها زينة. ويلزمها كذلك الابتعاد عن استعمال الأصباغ التي تكون على الوجه أو سائر البدن، ومن ذلك: الكحل والدهون المعطرة.

ويباح لها أن تلبس ما شاءت من الثياب إذا لم تكن زينة، ومن أي لون كانت، ولا يجوز لها تخصيص السواد فقط، بل يجوز لها أن تلبس الأسود والأحمر والأبيض وغيرها من غير تخصيص لون معين، ويجوز لها أن تغتسل للنظافة والتبرد، ويجب عليها ذلك عقب حيضتها. وعليها أن تلزم بيت زوجها فلا تخرج منه إلا لحاجة لا يمكن أن يقضيها لها أحد سواها، فيجوز لها أن تخرج إلى وظيفتها إن كانت موظفة، أو مدرستها

أو جامعتها إن كانت طالبة، ويجوز لها أن تخرج لشراء حاجاتها من طعام أو شراب أو دواء، إذا لم يكن هناك من يشتري لها. وأما تحوّلها عن بيت زوجها إلى بيت آخر كبيت أبيها أو أخيها فيجوز إذا كان بيت زوجها لا يؤمَن عليها فيه. أما إذا لم يكن هناك سبب صحيح شرعًا يدعو إلى تحويلها عن بيت زوجها فإنه لا يجوز لها أن تخرج من بيت زوجها قبل انقضاء عدتها.

هذا وصلوا على البشير النذير...

أنباء القبور (١) (٢)

الحمد لله حمداً حمدا، والشكر له شكراً شكرا، أحمده على نعمه الغزيرة، وأشكره على آلائه الكثيرة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٢٤/٤/١٤٣٦هـ، ١٣/٢/٢٠١٥م.

(٢) هذه هي الخطبة الثالثة من سلسلة بعنوان: " الطريق إلى الوطن الأخير" تتضمن هذه السلسلة ست خطب، وكانت الخطبة الأولى بعنوان: رحلة الموت: آداب وأحكام، والخطبة الثانية: الفراغ من دفن الميت: آداب وأحكام، وتلي الخطبة الثالثة: ٤- مشاهد في عرصات القيامة ٥- دار الشقاء: أهوال وأحوال ٦- دار النعيم: أوصاف وأفراح.

أيها الناس، جاء في مصنف ابن أبي شيبة، ومسند الإمام أحمد، ومستدرك الحاكم، وشُعَبِ الإيمان للبيهقي بسند صحيح عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: (خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولمَّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، وكأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر. ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون بها -يعني: على ملأ من الملائكة- إلا قالوا: ما هذا الرَّوح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيُفتح لهم، فيشيّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض؛ فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادى منادٍ في السماء: أنْ صدقَ عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره، قال: ويأتيه رجل

حسن الوجه، حسن الثياب، طيّب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجئ بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة؛ حتى أرجع إلى أهلي ومالي. قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفّود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرَّوح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأعراف:٤٠].

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا ثم قرأ: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[الحج:٣١].

فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب، فأفرشوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيَّق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي

يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجئ بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربِّ لا تقم الساعة).

أيها المسلمون، لقد تحدث هذا الحديث الشريف عن رحلة الإنسان منذ خروج روحه واستقراره في القبر إلى أن تقوم الساعة.

فاعلموا -عباد الله- أن الله تعالى جعل للإنسان بعد خروجه من بطن أمه ثلاثة دور: دار الدنيا -وهي دار العمل-، ودار البرزخ -وفيها بعض جزاء العمل، ودار الآخرة -وفيها تمام الجزاء، والاستقرارُ في دار الخلود إما في الجنة وإما في النار.

وقد جعل الله تعالى من إكرام الإنسان إذا مات: مواراته في التراب الذي كان أصلَه الأول، قال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾[طه:٥٥].

ففي التراب: يُحفظ بدن الإنسان من السباع، وفي التراب يسلم الناس من رائحة بدن الميت؛ لأن في التراب خاصية تجعل البدن يبلى فلا تبقى إلا العظام، ومع تطاول الزمن تلحق العظام بالبدن.

غير أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وبعض الصالحين من أتباعهم كبعض الشهداء في سبيل الله تعالى، فللأنبياء والشهداء حياة خاصة في القبور غير الحياة المتعارف عليها في الدنيا. قال تعالى:﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ ﴾[البقرة:١٥٤].

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام»(١).

وقد ورد أن بعض شهداء أحد أُخرجوا بعد مرور عشرات السنين فوجِدوا كما دُفنوا، وإن الدم ليسيل من بعضهم. إلا هناك شيئًا لا يبلى من بدن الإنسان عمومًا، وذلك الشيء هو عظم صغير في ظهره يقال له: عجْب الذنب، قال رسول الله ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجْب الذنب، منه خُلق، ومنه يُركّب الخلق يوم القيامة»(٢).

أيها الأحبة الفضلاء، لقد اهتدى ابن آدم إلى طريق دفن الميت بفعل مخلوق أصغر منه، مما دلّه على ضعفه وعجزه؛ كي لا يتكبر على الله ويتباهى بقدراته. فقد ظل ابن آدم القاتل يطوف بأخيه المقتول لا يدري ما يفعل بجثته، حتى رأى غرابًا يبحث في التراب ليدفن غرابًا آخر. قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[المائدة:٣١].

أيها الإخوة الكرام، إن الحياة البرزخية هي حياة من عالم الغيب لا يدركها أهل الدنيا، فكل من مات حصل له في القبور من النعيم أو العذاب ما كُتب له، وإن لم يرَ الأحياء ذلك، سواء دفن الميت في التراب، أم أكلته السباع، أم حُرِّق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أم غرق في البحر، أم حفظ في وعاء بالتحنيط، أم غير ذلك، فأي ظرف استقر فيه فهو قبره.

إن القبر –معشر المسلمين– واعظ من الواعظين، إذا تذكره المسلم استعد للآخرة؛

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه وأبو داود وغيرهم، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

فإنه بيت الوحدة والظلمة والوحشة والضيق إلا على المؤمن. فعن هانئ مولى عثمان بن عفان قال: كان عثمان ﵁ إذا وقف على قبر يبكي حتى يَبل لحيته، فقيل له: تذكرُ الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي! فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد»، قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه»(١).

غير أن المؤمن ينتقل إلى ذلك المنزل فيُذهب الله خوفَه، ويرزقه الاطمئنان والأمان. قال رسول ﷺ: «إن الميت يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح في قبره غيرَ فزع ولا مشعوف»(٢).

حتى ضمةُ القبر التي أخبر رسول الله ﷺ أنها كائنة في القبور على كل إنسان فإنها لا تؤذيه ولا تضره. فعن عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: «إن للقبر ضغطة، ولو كان أحد ناجيًا منها نجا منها سعد بن معاذ»(٣).

فضمة القبر للمؤمن ضمة رحمة ليس فيها عذاب، وإن كان فيها بعض الألم الذي يذهب سريعًا، وضمة الكافر ضمة سخط فيها عذاب.

عباد الله، لقد تضمن حديث البراء السابق بعض القضايا المتعلقة بالقبر والمقبور، ومنها:

انفساح القبر وإضاءته، وهو حدث حقيقي يجده الميت، وإن لم يشعر به الأحياء؛ لأن ما في القبر هو من عالم الآخرة.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه، وهو حسن.

(٢) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

(٣) رواه أحمد، وهو صحيح.

ومنها: سؤال الملكين عن الأصول الثلاثة: عن الرب، وعن الرسول، وعن الدين، فيثبت الله المؤمن فيجيب الإجابة المرضية التي كان يعلمها ويعمل بها في الدنيا، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[إبراهيم:٢٧].

وأما الكافر فلا يستطيع الجواب؛ لأنه لم يكن يعمل بها في الدنيا. عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل»(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر والآخر النكير»(٢).

ومن القضايا التي تناولها الحديث: ذهاب وحشة المؤمن في قبره، وحصول أُنسه بعمله الصالح الذي يأتيه على هيئة رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيّب الرائحة، فيقول له: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت، فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير؟، فيقول: أنا عملك الصالح.

ومما ذكره الحديث: حصول النعيم لأهل الإيمان في قبورهم، وكذلك العذاب لمن سواهم. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه، تعوذوا بالله من عذاب النار، تعوذوا بالله من عذاب القبر، تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن،

---

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٢) رواه الترمذي، وهو صحيح.

تعوذوا بالله من فتنة الدجال»[١].

ومن النعيم الذي ينعم به المؤمن في القبر: أنه يعرض عليه مقعده من الجنة بكرة وعشية، ويفتح له باب إليها، فيأتيه من رَوحها وطيبها ما يملأ نفسه مسرةً وفرحة. ومن العذاب الذي يعذب به غير المؤمن: أن يعرض عليه مقعده من النار فيأتيه من حرّها وسمومها، ويضيَّق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجئ بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث.

أيها المسلمون، لقد جاء عن رسول الله ﷺ تحذيرُ المسلمين من عمل المعاصي التي تكون من أسباب عذاب القبر، ومن تلك المعاصي التي يعذب أهلها عليها في القبر -إذا لم يتوبوا قبل الموت-: النميمة وعدم الاستبراء من البول، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (مر النبي ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول (وفي رواية: بوله»، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)[٢].

ومن الذنوب التي يعذب صاحبها عليها في القبر كذلك: ما جاء في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس ورجل قائم على رأسه بيده كلّوب من حديد فيدخله في شدقه فيشقه حتى يخرجه من قفاه، ثم يخرجه فيدخله في شدقه الآخر ويلتئم هذا الشدق، فهو يفعل ذلك به فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق؛ فانطلقت معهما فإذا رجل مستلقٍ على قفاه ورجل قائم بيده فهر أو صخرة فيشدخ بها

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

رأسه فيتدهده الحجر، فإذا ذهب ليأخذه عاد رأسه كما كان، فيصنع مثل ذلك، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق؛ فانطلقت معهما فإذا بيت مبني على بناء التنور أعلاه ضيّق، وأسفله واسع يوقد تحته نار، فيه رجال ونساء عراة، فإذا أوقدت ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا، فإذا أخمدت رجعوا فيها، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق؛ فانطلقت فإذا نهر من دم فيه رجل، وعلى شاطئ النهر رجل بين يديه حجارة، فيقبل الرجل الذي في النهر فإذا دنا ليخرج رمى في فيه حجراً فرجع إلى مكانه، فهو يفعل ذلك به، فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلق؛ فانطلقت فإذا روضة خضراء وإذا فيها شجرة عظيمة، وإذا شيخ في أصلها حوله صبيان، وإذا رجل قريب منه بين يديه نار فهو يحشها ويوقدها، فصعدا بي في شجرة فأدخلاني داراً لم أر داراً قط أحسن منها، فإذا فيها رجال شيوخ وشباب، وفيها نساء وصبيان فأخرجاني منها فصعدا بي في الشجرة فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل فيها شيوخ وشباب فقلت لهما: إنكما قد طوفتماني منذ الليلة فأخبراني عما رأيت قالا: نعم؛ أما الرجل الأول الذي رأيت فإنه رجل كذاب يكذب الكذبة فتحمل عنه في الآفاق فهو يصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، ثم يصنع الله تعالى به ما شاء؛ وأما الرجل الذي رأيت مستلقيًا على قفاه فرجل آتاه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل بما فيه بالنهار، فهو يفعل به ما رأيت إلى يوم القيامة؛ وأما الذي رأيت في التنور فهم الزناة؛ وأما الذي رأيت في النهر فذاك آكل الربا؛ وأما الشيخ الذي رأيت في أصل الشجرة فذاك إبراهيم عليه السلام؛ وأما الصبيان الذين رأيت فأولاد الناس؛ وأما الرجل الذي رأيت يوقد النار فذلك خازن النار، وتلك النار؛ وأما الدار التي دخلت أولاً فدار عامة المؤمنين؛ وأما الدار الأخرى فدار الشهداء؛ وأنا جبريل وهذا ميكائيل؛ ثم قالا لي:

ارفع رأسك فرفعت فإذا كهيئة السحاب فقالا لي: وتلك دارك فقلت لهما: دعاني أدخل داري فقالا: إنه قد بقي لك عمر لم تستكمله، فلو استكملته دخلت دارك»(١).

أيها الأحبة الأفاضل، لقد ذُكر في هذا الحديث العظيم من المعاصي الذي يعذب عليها صاحبها في القبور ذنوبٌ عِدّة:

أولاً: الكذب، وعذاب صاحبه: أن يدخل في شدقه كلوب حتى يبلغ إلى قفاه، ثم يفعل بشدقه الآخر كذلك إلى يوم القيامة.

وثانيًا: الزنا، وعذاب أهله: أن يوضعوا في تنانير توقد عليهم ناراً إلى يوم القيامة.

وثالثًا أهل الربا، وعذابهم: أن يجعلوا في نهر من دم يسبحون فيه، وعلى حافته رجل بيده حجارة كلما اقترب رمى في فيه حجراً فرجع إلى مكانه فهو يفعل ذلك به إلى يوم القيامة.

ورابعًا: الذي يأخذ القرآن ولا يعمل بأوامره ولا ينزجر بزواجره، وعذابه: أنه يصير مضطجعًا ويوكل به شخص يهوي بصخرة على رأسه فيثلغه ثم يصحُّ رأسه فيعود إلى ثلغه كلما صح، وهكذا يفعل به إلى يوم القيامة. وهناك ذنوب أخرى غير هذه الذنوب يعذب أصحابها في القبور. نسأل الله أن يجيرنا من عذاب القبر.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

عباد الله، إن مما يقي الإنسان أهوالَ القبور وعذابها: أن يأتي عليه الموت وهو من أهل الإيمان والاستقامة. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]،.

ومما يقيه: أن يحافظ على فرائض الله، ومنها الصلاة في أوقاتها.

ومما يقيه: أن يحفظ لسانه من الطعن في أعراض المسلمين والكذب عليهم.

ومما يقيه: أن يحسن طهارته ويستبرأ من بوله.

ومما يقيه: أن يبتعد عن المال الحرام؛ كالربا وغيره.

ومما يقيه: أن يكثر من الدعاء والتعوذ من عذاب القبر؛ فقد كان رسول الله ﷺ يكثر من التعوذ من عذاب القبر.

أيها المسلمون، لقد سمعتم بعض أنباء القبور، وما يحصل فيها من الأمور للمقبور، فماذا أعددتم لذلك المنزل؟

فيا أيها الغافل، أما آنَ لك أن تنتبه، يا أيها النائم عن أمر الآخرة، أما حان لك أن تستيقظ، يا أيها النشوان بسكرة الدنيا، أما آن لك أن تصحو؟

أما تذكرتَ القبور وربما ذهبت إليها مع المشيعين وأنت تضحك، أما تذكرت أنه سيأتي عليك يوم تشيَّع إليها كما شيَّعت غيرك؟

ألا رحم الله امرأً تهيأ لقبره قبل نزوله، وأعدَّ الجوابَ قبل سؤاله، وعمل لآخرته وما ينجيه فيها قبل انتقاله.

فالعاقل من اتعظ واستعد، وسمع فتذكر، وعمل فأحسن. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[ق:٣٧].

هذا وصلوا على النبي المختار...

مشاهد من عرصات القيامة(١) (٢)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، فبعد أن تأفُل شمس الحياة، ويُطوى كتابُ الدنيا، ويمضي زمان

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٨/٥/١٤٣٦هـ، ٢٧/٢/٢٠١٥م.

(٢) هذه هي الخطبة الرابعة من سلسلة بعنوان: " الطريق إلى الوطن الأخير " تتضمن هذه السلسلة ست خطب، وكانت الخطبة الأولى بعنوان: رحلة الموت: آداب وأحكام، والخطبة الثانية: الفراغ من دفن الميت: آداب وأحكام، والخطبة الثالثة: أنباء القبور. وتلي هذه الخطبة: ٥- دار الشقاء: أهوال وأحوال ٦- دار النعيم: أوصاف وأفراح.

الأحلام بوشاح الغروب، ويلمح أوان الحقيقة بالشروق، وتنتهي الزيارة إلى دنيا التكليف والعمل تُقبِل أيامُ الآخرة، ويُدعى الخلق للوقوف بين يدي الخالق؛ لحساب المكلفين على أعمالهم التي عملوها في حياتهم الدنيا. ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾[الحاقة:١٨].

إن الناس يبقون إلى آخر فصل من فصول كتاب الدنيا حتى يأذن الله تعالى عند ذلك بموت ما تبقى من الأحياء وفناء مظاهر الحياة الدنيا. فتذهب الشمس والقمر والنجوم والجبال، وتفجّر البحار، ويهلك كل شيء يدب في بالحياة في الأرض والسماوات، فلا يبقى إلا الله تعالى. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[القيامة:٧-١٣]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾[الانفطار:١-٥]، وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:٨٨].

وذلك كائن عندما يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخ في الصور نفخةَ الموت، فيصعق الناس ويفزعون فلا يبقى أحد حيًا. قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨]، وقال: ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾[يس:٤٩-٥٠].

فيبقى الخلق بعد هذه النفخة أربعين، ولا ندري: أهي أربعون يومًا أم شهراً أم سنة؟ ثم يأذن الله تعالى بعدها بالنفخة الثانية وهي نفخة البعث، وبها يُبعث الخلقُ أولُهم وآخرهم، حيث ينزِل الله تعالى من السماء ماءً فينبتون منه. قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾[يس:٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون، قيل: أربعون يومًا؟ قال: أبو هريرة: أَبيتُ، قيل: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قيل: أربعون سنة؟ قال: أبيت، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء لا يبلى إلا عظمٌ واحد وهو عجب الذنب، منه يركب الخلق يوم القيامة»(١).

عباد الله، ثم بعد حصول نفخة البعث والمدة التي تعقبها يخرج الخلق من قبورهم إلى أرض المحشر، وهي أرض بيضاء مستوية ليس فيها دار ولا ملك لأحد من الخلق.

قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، ليس فيها عَلَم لأحد»(٢). ويخرج الخلق كلهم إلى أرض المحشر للحساب لا يتخلف منهم أحد، ويقفون بين يدي الله جميعًا لا يخفى عليه أحد منهم. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[الكهف:٤٧]،وقال: ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[غافر:١٦].

وحشرُ الله تعالى لعباده جميعًا سهلٌ عليه يسير؛ لكمال علمه وقدرته وقوته. قال تعالى: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾[ق:٤١-٤٤].

ويحشر الخلق كما خلقهم الله تعالى: حفاةً غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلاً غير مختتنين، بُهمًا ليس معهم شيء من الدنيا. عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً، قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»(١).

وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيحين: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٤].

وفي رواية عبد الله بن أنيس رضي الله عنه عند أحمد والبخاري في الأدب المفرد بسند حسن: «قلنا: وما بُهمًا؟ قال: ليس معهم شيء».

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[الأنعام:٩٤].

أيها المسلمون، حينما يبعث الله تعالى الكفار من قبورهم يستغربون من البعث، ويسرعون إلى أرض المحشر وعليهم الذل والخوف والتفرق والشتات، مستقلين مدة الحياة الدنيا. قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾[يس:٥١-٥٢].

---

(١) متفق عليه.

وقال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾[القمر:٦-٨]، وقال: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾[المعارج:٤٣-٤٤].

ويحشر الله الكافرين قد تغيرت من الهول والظمأ والخوف عيونُهم وألوانهم، يمشون على وجوههم السوداء عميًا وبكمًا وصمًا، ثم يُعاد لهم البصر والسمع والنطق بعد ذلك. يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾[طه:١٠٢-١٠٣]، وقال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾[الإسراء:٩٧]، وقال: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾[الروم:٥٥].

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ﴾[الفرقان:٣٤].

أيحشر الكافر على وجهه؟! قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً، على أن يمشيه على وجهه»؟ قال: قتادة حين بلغه: بلى، وعزة ربنا[1].

ويحشر أهل الربا كالمجانين، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[البقرة:٢٧٥].

---

(١) متفق عليه.

ويبعث الإنسان على آخر عمل عمله في الدنيا، فعن ابن عباس ﵄ قال: (بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذا وقع من راحلته فأقصعته أو قال: فأقعصته فقال رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه؛ فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا»(١). وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مكلوم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يَدَمى، اللون لون دم، والريح ريح مسك»(٢).

وعن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات على شيء بعثه الله عليه»(٣).

عباد الله، إن الخلق يبقون في أرض المحشر مدة طويلة منتظرين ما الله فاعل بهم.

نعم، إنهم يقفون ذلك اليوم، في زمان عبوس قمطرير مستطير، لا يدرون ماذا يفعل بهم، وإلى أين يُساقون؟

في ذلك اليوم يقفون بين يدي ملك الملوك، جبار السماوات والأرض الذي لا تخفى عليه خافية مما عملوا في حياتهم الدنيا. إن الناس في أرض المحشر يلاقون معاناة شديدة، فهم يعانون الخوفَ والقلق، حتى تصل القلوب إلى الحناجر. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾[غافر:١٨].

ويعانون شدة الحر وكثرة الزحام، وكثرة العرق، ويكون ذلك على حسب

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد والحاكم، وهو صحيح.

أعمالهم. قال رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل»، قال سليم بن عامر: والله ما أدري ما يعني بالميل: مسافة الأرض، أو الميل التي تكحل به العين؟ قال: «فتكون الناس على قدر أعمالهم في العرق: فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا»، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه(١).

ومن شدة ذلك اليوم ينسى كلُّ حبيب حبيبه، وكل قريب قريبه؛ إذ لم يعد للإنسان همٌّ إلا نجاة نفسه؛ لأنه مشغول بحاله عن غيره. قال تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾[المعارج:١٠].

وقال: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[عبس:٣٧].

وفي تلك الشدة والكرب يزداد الظمأ والحاجة إلى الماء فيكون لكل نبي حوض في العرصات يَرِده مؤمنو قومه فيشربون منه، ومنهم نبينا محمد ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «إن لكل نبي حوضًا، و إنهم يتباهون أيهم أكثر واردة، وإني أرجو الله أن أكون أكثرهم واردة»(٢). وقال ﷺ: «هل تدرون ما الكوثر؟ هو نهر أعطانيه ربي في الجنة، عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم فأقول: يا رب، إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»(٣).

أيها الأحبة، وحينما تبلغ الشدة مداها في العرصات يذهب الناس إلى الأنبياء

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي والبخاري في التاريخ، وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم.

ليستشفعوا بهم عند الله تعالى؛ ليقيم الحساب، فيعتذر كل نبي ويقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، حتى يصل المستشفعون إلى رسول الله محمد ﷺ فيقول: «أنا لها، قال: فأستأذن على ربي فيؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد وأخر له ساجداً، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: انطلق، فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل ثم أعود فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع»[1]. وفي رواية للبخاري: «فيشفع ليقضي بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محموداً يحمده أهل الجمع كلهم».

عباد الله، وبعد هذا يُقام حساب الخلائق على ما قدموا، فيجيء الله تعالى مع ملائكته لفصل القضاء، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد رياء لا يستطيع السجود. قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[الفجر:٢٢]، وقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾[البقرة:٢١٠]، وقال: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[القلم:٤٢].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقًا واحداً»[2].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

فعند ذلك يحاسب الله تعالى الإنسان الكافر على أعماله السيئة فينكرها، فينطق الله جوارحه لتشهد عليه. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾[النور:٢٤-٢٥]، وقال: ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[فصلت:٢٠-٢١].

فينكشف للإنسان الكافر في ذلك اليوم غيرُ ما كان يتوقع، قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾[الزمر:٤٧].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضحك، فقال: (هل تدرون مما أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي-إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال: فيقول: بعداً لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل)(١).

أما المؤمن الذي كتب الله له النجاةَ فيحاسبه الله حسابًا يسيرا، حسابَ الحبيب الكريم للحبيب المخطئ المعترف بذنوبه. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه-أي: ستره- فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف؟ فيقول: أيْ رب، أعرف، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك

(١) رواه مسلم.

اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق ﴿ هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾[هود:١٨]"(١).

وهذه المقابلة بين المؤمن وربه موقف عظيم، فمجرد المناقشة للحساب تعدُّ عذابًا؛ لأنها بعثرة للأعمال بين يدي ذي الجلال، لكن يعقبها الفوز والفلاح. عن عائشة رضي الله عنها: عن النبي ﷺ قال: «من نوقش الحساب عُذِّب». قالت: قلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾[الانشقاق:٨]؟، قال: «ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب هلك»(٢).

أيها المسلمون، ثم بعد الحساب ينتظر الناس كتب أعمالهم: هل يأخذونها بأيمانهم فيفوزوا، أو بشمائلهم من وراء ظهورهم فيخسروا. أما المؤمن فيأخذ كتاب عمله بيمينه فيفرح فرحًا شديداً، ويذهب يبشر بفوزه من لقي. وأما غير المؤمن فيأخذ كتاب عمله بشماله من وراء ظهره فيبأس بؤسًا شديداً. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾[الحاقة:١٩-٢٩]، وقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا * إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾[الانشقاق:٧-١٥].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

عباد الله، ثم ينطلق الناس بعد ذلك إلى الميزان لينظروا درجاتهم في الجنة، أو دركاتهم في النار، فمن رجحت حسناته دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته دخل النار. قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[الأنبياء:٤٧]، وقال: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٢-١٠٣].

ومن الأعمال التي تثقل الميزان: حسن الخلق، وذكر الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «أثقل شيء في ميزان المؤمن خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش المتفحش البذيء»(١). وقال ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»(٢).

عباد الله، أما من استوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء يقال لهم: أصحاب الأعراف، حيث يقفون بين الجنة والنار ينظرون إلى أهل الجنة فيشتاقون، وإلى أهل النار فيخافون، ثم يرحم الله أهل الأعراف فيدخلهم الجنة برحمته. قال تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾[الأعراف:٤٦-٤٩].

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان والبخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

أيها المسلمون، وبعد الحساب والميزان ينطلق الناس مارين على الصراط، فمن قوي نوره بإيمانه جاوز الصراط ونجا، ومن اشتدت ظلمة أعماله تخطفته كلاليب جهنم فكُردس فيها. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[مريم:٧١]، وقال: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[الحديد:١٢-١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «ثم يُضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللّهم سلم سلم، قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق وكالريح وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم ومخدوش مرسل، ومكدوش في نار جهنم»(١).

أيها الأحبة الكرام، ثم بعد مجاوزة الصراط يبقى المؤمنون في قنطرة قبل دخول الجنة، ويذهب من ذهب من العصاة إلى النار. وبهذا ينقضي حساب الخلائق ويصيرون إلى دار القرار إما في الجنة وإما في النار. يقول تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[الزمر:٦٩].

---

(١) رواه مسلم.

وقال: ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الزمر:٧٥].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

أيها الإنسان، وبعد هذا، فهل استعديت لذلك اليوم الذي هو يوم أنذر الله تعالى به عباده ليستعدوا؟ فقال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾[غافر:١٧-١٨]، وقال: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[مريم:٣٩].

ذلك اليوم العظيم هو يوم العدل ينال فيه المؤمن ثوابه وأَمنه؛ ولذلك فإن الله تعالى يؤمّن المؤمن من أهوال ذلك اليوم بقدر ما يشاء، قال تعالى: ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[الأنبياء:١٠٣].

وذلك اليوم يوم يفرح فيه المظلوم، ويشقى فيه الظالم، إنه يوم القصاص وإرجاع الحقوق إلى أهلها.

قال رسول الله ﷺ: «أتدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله، من لا درهم له ولا متاع، فقال ﷺ: «المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته فيأتي وقد شتم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقعد فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته -قبل أن يقضى ما عليه- أخذ من خطاياهم فطُرح عليه، ثم طرح في النار»(١).

---

(١) رواه مسلم.

وذلك اليوم يوم تكشف فيه السرائر، ويخرج ما في الضمائر على رؤوس الأشهاد، فيسعد المؤمن الصالح في باطنه وظاهره، ويحزن أهل السوء والنفاق والرياء ويفضحون على رؤوس الناس.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾[الطارق:٩].

وقال النبي ﷺ: «لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها، كلما مر عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شيئًا ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»(٢).

هذا وصلوا وسلموا على القدوة المهداة...

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم .

دار الشقاء: أهوال وأحوال[(١)] [(٢)]

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده؛ ليكون للعالمين نذيرا، وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا، أحمده على نعمة الإسلام حمداً كثيرا، وأشكره على نعمة الهدى والقرآن شكراً غزيرا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدّره تقديرا. وأشهد أن نبينا وهادينا محمد بن عبدالله، بعثه الله إلى الجن والإنس بشيراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا، أنار بالقرآن العقول، وشرح به الصدور، وشفى به القلوب، فامتلأت به حبوراً وسرورا، فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فاتقوا الله -عباد الله- فبتقوى الله تستنير البصائر، وتستريح الضمائر؛ فتفرّق بين الحق والباطل، والسليم والسقيم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الأنفال:٢٩].

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٥/٥/١٤٣٦هـ، ٦/٣/٢٠١٥م.

(٢) هذه هي الخطبة الخامسة من سلسلة بعنوان: " الطريق إلى الوطن الأخير" تتضمن هذه السلسلة ست خطب، وكانت الخطبة الأولى بعنوان: رحلة الموت: آداب وأحكام، والخطبة الثانية: الفراغ من دفن الميت: آداب وأحكام، والخطبة الثالثة: أنباء القبور. والخطبة الرابعة: مشاهد في عرصات القيامة، وتلي هذه الخطبة: ٦- دار النعيم: أوصاف وأفراح.

أيها الناس، فما زلنا نتابع خطى الراحلين، ومنهاجَ السالكين إلى لقاء رب العالمين، ونشاهد محطات السفر وما فيها من عظات وعبر، أشرقت الدنيا على المسافرين ثم أظلمت فبدت الحياة البرزخية ونطقت لنا بما فيها من الأفراح والأتراح حتى انتهت، فقامت القيامة فتقاطرت الجموع إلى ساحة العرض الأكبر ليشهدوا أكبر اجتماع شهده العالم كله أوله وآخره، فلم يكن قبله مثله ولن يكون بعده مثله، وظلوا هناك ينتظرون، نعم، ظلوا منتظرين فصلَ القضاء في أعمال ما مضى، ورأوا في ذلك الجمع المهيب مشاهدَ لم يروا لها مثيلاً من قبل. وهناك هناك نفذ فيهم حكم الملِك العدل، ونفِد زمانُ الوقوف الطويل والاجتماع الكبير، فسيق فريق إلى النار وفريق إلى الجنة، وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين.

عباد الله، فبعدَ هذه القسمة العادلة يأمر الله تعالى ملائكته بأخذ أهل النار إلى النار، فيُساقون إليها جماعاتٍ وأفواجاً سوقًا شديداً، ويرِدونها وهم عِطاشٌ من حُرقِ الموقف وطوله وأهواله، ويُرمون فيها على ركبهم، عليهم الأغلالُ والقيود، ويسحبون على وجوهم فيلقون في النار إلقاء. قال تعالى:﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾[الزمر:٧١]،

وقال: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾[مريم:٨٥-٨٦] ، أي: عطاشا، وقال: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾[مريم:٦٨]، وقال: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾[الحاقة:٣٠-٣٢]، وقال: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان:٣٤]، وقال: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾[الشعراء:٩٤]، وقال: ﴿

أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[ق:٢٤].

أيها المسلمون، وحينما يُلقى أهل النار في النار تستقبلهم جهنم بشهيقها وزفيرها وشدة فورانها، حتى تكاد تتقطع من شدة غضبها عليهم؛ فقد طال انتظارها لهؤلاء الأشقياء الذين عصوا الله تعالى. قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾[الفرقان:١٢]، وقال: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾[الملك:٧-٨].

فإذا وصلوا إليها مقيّدين ومسّوا حرها دعوا هنالك على أنفسهم بالويل والثبور والخسار، فيجابون بالعتاب وشدة العذاب. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾[الفرقان:١٣-١٤]، وقال: ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنصَرُونَ ﴾[المؤمنون:٦٤-٦٥].

عباد الله، إن نار جهنم مستقرُّ عدلِ الله تعالى وغضبه على الذين لم يستجيبوا لإنذاره، فصاروا أشقياء. قال تعالى: ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لا يَصْلاهَا إِلَّا الأَشْقَى ﴾[الليل:١٤-١٥].

ولم يتقوها بطاعة الله وترك عصيانه، وقد قال تعالى لهم: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[البقرة:٢٤].

ونار جهنم شيء عظيم من الهول والمخاوف، فإذا كان الإنسان يخشى مسّ نار الدنيا وهي لا تساوي شيئًا أمام نار جهنم، فكيف سيقوى على نار جهنم؟! نسأل الله السلامة من غضبه وعقابه، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾[التوبة:٨١].

وقال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم، قالوا: والله إن كانت لكافية، قال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها»(١).

فيا من يريد أن يسأل عن أحوال النار وصفاتها فاسمع؛ لكي تنزجر وتتعظ وتتخذ الدرع الواقي من ذلك المصير المخزي.

فأما عِظَمُ النار فيقول ربنا الجبار تبارك وتعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾[الفجر:٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنار يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(٢).

وأما سعتها فيقول تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾[ق:٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله قدمه عليها فتقول: قط قط -يعني: حسبي حسبي- فهنالك تمتلئ، وينزوي بعضها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا»(٣).

وأما بُعدُ قعرها فإنها ذات بُعدٍ سحيق؛ لأنها دركات بعضها تحت بعض، يقول النبي ﷺ: «إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين عامًا وما

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) متفق عليه.

تُفضي إلى قرارها»(١).

وأما خزانها من الملائكة المكلفين بتعذيب أهلها فيها فهم ملائكة غلاظ شديدو البطش، عظيمو الخِلقة، وهم تسعة عشر. قال تعالى: ﴿ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ. * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾[المدثر:٢٩-٣٠].

وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[التحريم:٦].

وأما حطبها الذي تُشعل به فهو أهلها الذين تتحول جلودهم وعظامهم وأجسادهم إلى مادة تُذكى بها النار، كلما نضجت جلودهم أُعيدت من جديد. قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[النساء:٥٦].

ومن حطبها: الحجارة؛ لأن الحجر إذا اشتعل صار أشدَّ إحراقًا وأبطأ انطفاء، قال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[البقرة:٢٤].

ومن حطبها: الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾[الأنبياء:٩٨].

إن أهل النار في حال عذابهم لا يجدون متنفسًا ولا مهربًا مما هم فيه؛ لأن النار تحيط بهم من كل جانب، وأبواب جهنم عليهم مغلقة. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

﴾[العنكبوت:٥٥]، وقال: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُوصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾[الهمزة:٨-٩].

أيها المسلمون، إن أهل النار -وهم يقاسون حرارة النار- يستغيثون ويطلبون النجاة ويعلنون التوبة، فلا يجيبهم أحد إلا جوابَ عتاب يضاف إلى العذاب. فيستغيثون بالله، قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٨]، وقال: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾[فاطر:٣٧].

ويستغيثون أيضًا بخزنة جهنم من الملائكة فلا يجابون أيضًا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ ﴾[غافر:٤٩-٥٠].

ويستغيثون بأهل الجنة ولو لشربة ماء، فلا يجابون كذلك، قال تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[الأعراف:٥٠].

وعندما ييأسون من إجابة استغاثتهم يطلبون من مالك أميرِ الخزنة أن يدعو الله بأن يكتب عليهم القضاء بالفَناء، فماذا يُردّ عليهم، وبماذا يُقضى عليهم؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴾[الزخرف:٧٤-٧٧]، وقال: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾[الإسراء:٩٧]. فبعد اليأس من الخروج والتخفيف من العذاب يعودون إلى عتاب

بعضهم بعضًا: التابع والمتبوع، والضال والمضل، كلٌّ يدعو على الآخر ويلعنه. قال تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾[الأعراف:٣٨-٣٩]، وقال: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب:٦٧-٦٨].

وهذا التلاوم كله لا ينفعهم، ولا يدفع عنهم ما هم فيه: تابعين ومتبوعين؛ لأنهم في النار جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[الزخرف:٣٩].

إن العذاب الشديد-معشر المسلمين- الذي ينزل بأهل النار لا تتحمله أجسام الدنيا التي كانوا عليها؛ ولذلك فإن الله تعالى يخلق أهلها يوم القيامة بأجسام ضخمة غير أجسامهم الصغيرة الضعيفة التي في الدنيا، يقول النبي ﷺ: «ضرس الكافر مثل أُحد، وفخذه مثل البيضاء-اسم جبل- ومقعده من النار كما بين قُديد ومكة، وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعًا بذراع الجبار»(١).

عباد الله، إن العذاب الذي يلاقيه أهل النار ليس بمرتبة واحدة، بل كل عبد يعذَّب فيها على حسب عمله، فمن كان من عصاة المسلمين يعذب بقدر معصيته، ومن كان من الكفار -على اختلاف أصنافهم- يعذب بقدر ما فعل زيادة على كفره، فكما أن أهل الجنة ليسوا على منزلة واحدة بل على منازل فكذلك أهل النار. قال تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(١) رواه أحمد، وهو صحيح.

المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء:١٤٥].

وقال النبي ﷺ: «إن أهون أهل النار عذابًا رجل في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه، كما يغلي المرجل بالقمقم»(١).

أيها الأحبة الكرام، إن أهل النار يتعدد عذابهم فلا يقاسون عذابًا واحداً، بل عذابين عمومًا: عذاب معنوي، وعذاب حسي.. فأما العذاب المعنوي فهو ما يلاقونه من كلمات التوبيخ والتقريع والتنديم من الله تعالى، ومن الملائكة، ومن العتاب والتلاوم فيما بينهم. قال تعالى:﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٨]، وقال: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدخان:٤٩]، وقال: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[الأحقاف:٣٤]، وقال: ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾[الملك:٨-٩].

وأما العذاب الجسدي فهناك طعام وشراب وكساء وفراش وظلال، ولكن الطعام لا يسمن آكله ولا يغنيه من جوع، والشراب لا يطفئ ظمأه ولا يبرد حرارة باطنه، والكساء لا يستر جسده، ولا يقيه ما يكره، والفراش لا يريح بدنه ولا يقيه ما يضره، والظلال لا يمنعه من الحرارة. قال تعالى عن طعامهم:﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴾[الدخان:٤٣-٤٦]، وقال: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ * لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾[الغاشية:٦-٧]، وقال: ﴿ وَلا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾[الحاقة:٣٦].

(١) متفق عليه.

وأما عن شرابهم فقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف:٢٩]، وقال: ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾[النبأ:٢٤-٢٥]، وقال: ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾[إبراهيم:١٦].

وأما عن كسائهم فيقول: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[الحج:١٩-٢٢]، وقال: ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[إبراهيم:٥٠].

وأما عن فراشهم فيقول: ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[الأعراف:٤١]، وقال: ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾[الزمر:١٦].

وأما عن ظلالهم فيقول: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾[الواقعة:٤١-٤٤].

نعوذ بالله من النار، نعوذ بالله من النار، نعوذ بالله من النار.

أيها المسلمون، إن أكرم ما في ظاهر الإنسان وجهُه الذي يكرمه ويحسن إليه بأنواع من الإحسان، هذا الوجه المكرم أمر الله تعالى صاحبه أن يعفّره ساجداً لله تعالى الذي خلقه وكرمه وزيّنه. غيرَ أن هذا الوجه حينما أبى الخضوع والانحناء لمن أبدعه وخلقه فلم يسجد بين يديه مؤمنًا؛ سينال جزاء وفيراً خاصًا من العذاب دون غيره من سائر الأعضاء. فالسواد القاتم، والذلة الغاشية ستعمه عندما يساق إلى جهنم، قال تعالى: ﴿

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[آل عمران:١٠٦]، ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[يونس:٢٧].

وهناك شيء آخر وهو أن السوق والسحب إلى السعير سيكون على الوجوه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾[القمر:٤٨]، وقال: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[الفرقان:٣٤].

فإذا ما كان صاحبه في النار فإن الإحراق وتلقَّيَ النار والكي والتقليب فيها ينال منه الوجه أوفرَ نصيب، قال تعالى: ﴿ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾[إبراهيم:٥٠]، وقال: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾[المؤمنون:١٠٤]، وقال: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا ﴾[الأحزاب:٦٦].

فنسأل الله أن يقينا عذابه يوم يبعث عباده.

قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

أيها الناس، وبعد هذا التخويف والإنذار، وذكرِ ما أعد الله لمن عصاه في النار، ألا يدعونا ذلك إلى التوبة والادكار، والكف والانزجار عن معصية العزيز الجبار؟

إنه لا ينبغي لأحد أن يأمن على نفسه مهما بلغت طاعته وقربه أن يكون وقودَ النار غدا، قال النبي ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»(١).

فيا أيها المسلم اعلم أن النار ليست للكفار وحدهم، بل هي أيضًا لعصاة المسلمين إذا وردوا الآخرة غيرَ تائبين ولم تنلهم شفاعة من الشفاعات. فأنت اليوم -أخي- في زمن المهلة فاجعل بينك وبين النار وقاية بأداء ما أوجب الشرع عليك فعله، وترك ما حرم عليك قربانه، عملاً بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[التحريم:٦].

هذا على سبيل الإجمال، وإن شئت على التفصيل، فاحذر قتل النفس المؤمنة بغير حق شرعي؛ فإن ذلك من أسباب ولوج النار، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٩٣]. واحذر أيضًا أكل المال الحرام؛ كأكل أموال اليتامى، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[النساء:١٠].

واحذر أن تذهب لعدوٍّ مسلمٍ فتشي بأخيك المسلم عنده وشاية ليؤذيه وتصيب أنت

---

(١) رواه البخاري.

جائزة ذلك الخبر، قال رسول الله ﷺ: «من أكل برجل مسلم أكلة، فإن الله يطعمه مثلها من جهنم، ومن اكتسى برجل مسلم ثوبًا، فإن الله يكسوه مثله في جهنم، ومن قام برجل مسلم مقام سمعة، فإن الله يقوم به مقام سمعة يوم القيامة»(١).

واحذر كذلك أن تسلط لسانك في أعراض المسلمين غيبة ونميمة وكذبًا وسخرية، قال رسول الله ﷺ: «وهل يكب الناسَ في النار على وجوههم، أو على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم!»(٢).

فاللهم أجرنا من نار جهنم يا حي يا قيوم.

هذا وصلوا وسلموا على صاحب المقام المحمود...

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه الترمذي والنسائي وأحمد، وهو صحيح.

دار النعيم: أوصاف وأفراح(١) (٢)

الحمد لله الذي جعل الدنيا دارَ ممر إلى دار مقر، ومزرعةَ أعمال، وفرصة إمهال؛ لنتزود منها بصالح العمل إلى دار المآل. أيام تمضي، وسنونَ تنقضي، وأعمار تنتهي، ولا يبقى إلا العمل بعد انقضاء الأجل سبباً للسعادة، أو للشقاوة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتفضل على عباده بإرسال الرسل، وإنزال الكتب للبشارة والنذارة؛ لئلا يكون للناس على الله حجةٌ بعد الرسل، ولئلا يقول الخلق: ما جاءنا من بشير ولا نذير وقد جاءهم بشير ونذير. وأشهد أن محمداً عبدالله ورسوله الذي أرسله الله بالجنة مبشراً، ومن النار محذِّراً، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما.

أما بعد:

فاتقوا الله -عباد الله- فتقوى الله سبب كل هناء، وذهاب كل شقاء، فيا فرحة المتقين يوم لقاء رب العالمين، قال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾[القمر: ٥٤-٥٥].

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٤٣٦/٥/٢٢هـ، ٢٠١٥/٣/١٣م.

(٢) هذه هي الخطبة السادسة والأخيرة من سلسلة بعنوان: " الطريق إلى الوطن الأخير" تتضمن هذه السلسلة ست خطب، وكانت الخطبة الأولى بعنوان: رحلة الموت: آداب وأحكام، والخطبة الثانية: الفراغ من دفن الميت: آداب وأحكام، والخطبة الثالثة: أنباء القبور. والخطبة الرابعة: مشاهد في عرصات القيامة، والخطبة الخامسة: دار الشقاء: أهوال وأحوال.

أيها الناس، لقد روت لنا كتب الأدب أخباراً وأشعاراً كثيرة عن العاشقين وهيامهم بمنازل من يحبون، شوقًا إليها بعد بَيْنِهم عنها، وطمعًا بلقاء الحبيب في جنباتها، يسهرون ويبكون ويستدرون دموع غيرهم؛ ليشاركوهم تألم غرام البعد عنها بعد إلفِها، فإذا وصلوا إلى تلك المغاني بعد عناء رحلة الشوق ومكابدة البعد أصابهم من السرور والحبور ما لا يوصف، وذلك كله على منزل دنيا وحبيب دنيا كلاهما إلى زوال، فكيف بجنة عرضها السماوات والأرض، ينظر فيها العبد إلى رب العالمين.

ألا تشتاق النفوس إلى تلك المنازل العالية، والمغاني الغالية، ألا تشتاق إلى رؤية الله فيها ومخاطبته لساكنيها؟

عباد الله، بعد أن يُقضى بين الخلائق في العرصات يساق أهل الجنة إلى الجنة فيمرون على الصراط مسرعين حسب أعمالهم في الدنيا، فيخلصون إلى مكان بين الجنة والنار فيبقون هناك حتى يقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، وتصفّى قلوبهم من أدواء الحسد والحقد والكراهية فيما بينهم، حتى إذا نُقّوا دخلوا الجنة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[الحجر:٤٧]. وقال رسول الله ﷺ «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدُهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»(١).

أيها المسلمون، ثم بعد ذلك يُساقون إلى الجنة وفوداً مكرمين، تحيط بهم السعادة من كل جانب، وتستقبلهم على أبواب الجنة ملائكة الرحمن تحييهم وتهنئهم بسلامة

(١) رواه أحمد، وهو صحيح.

الوصول والنجاة من الدنيا وما بعدها. قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾[الزمر:٧٣-٧٤]، وقال: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾[مريم:٨٥]، وقال: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[النحل:٣٢]، وقال: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾[الرعد:٢٤].

وممن يستقبل المؤمنَ على أبواب الجنة: أولادُه الذين ماتوا قبل البلوغ في حياته فاحتسبهم وصبر عند مصيبته بهم، فعن قرة بن إياس رضي الله عنه أن رجلاً كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه ابن له فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «تحبه؟ قال: نعم، يا رسول الله، أحبك الله كما أحبه، ففقده النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ قالوا: يا رسول الله، مات، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبيه: ألا تحب أن لا تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟ فقال رجل: يا رسول الله، أله خاصة أم لكلنا؟ قال: بل لكلكم»[1].

وعن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما من مسلم يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل»[2].

عباد الله، لقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن نصيب هذه الأمة من أهل الجنة، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من

---

(١) رواه ابن ماجه، وهو حسن.

(٢) رواه البخاري.

سائر الأمم»(١).

تتجه هذه الصفوف جميعها إلى أبواب الجنة زمراً على حسب أعمالهم، والنور يعلو وجوههم، فيصلون إلى تلك الأبواب فيجدونها ثمانية، قال رسول الله ﷺ: «للجنة ثمانية أبواب»(٢).

وقال ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة: يا عبدالله، هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، وأرجو أن تكون منهم»(٣).

فقد بين النبي ﷺ في هذا الحديث أن أبواب الجنة مسماة بالأعمال الصالحة، فمن أكثرُ عمله وأظهرُه الصلاة دخل من باب الصلاة، وهكذا بقية الأعمال، ومن كان مكثراً من جميع تلك الأعمال دعي للدخول من جميع تلك الأبواب فيدخل من أيها شاء.

وهذه الأبواب أبواب عظيمة في الاتساع والمسافة بين مصاريعها. فعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: «ولقد ذكر لنا أن مصراعين من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين

---

(١) رواه الترمذي، وهو صحيح.

(٢) رواه أحمد، وهو صحيح.

(٣) متفق عليه.

سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»(١).

عباد الله، لقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن أوائل معينة عند أبواب الجنة. فأول من يدخل الجنة نبينا محمد ﷺ، وأول الأمم دخولاً أمته، قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة»(٣).

وأخبر رسول الله ﷺ أن الفقراء المهاجرين وأهل المعروف هم أيضًا أول من يدخل من الناس. وقال رسول الله ﷺ: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره»(٤).

وقال ﷺ: «وأول من يدخل الجنة أهل المعروف»(٥).

ومن الأوائل: قوله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة»(٦).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد وابن حبان، وهو صحيح.

(٥) رواه الطبراني، وهو صحيح.

(٦) متفق عليه.

ومن الأوائل: قوله ﷺ: «أول طعام يأكله أهل الجنة زيادة كبد حوت»(١).

أيها المسلمون، وحينما تفتح لهم الأبواب يلجون فرحين مسرورين فيقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾[الحجر:٤٦]، وقال: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق:٣٤-٣٥].

ويتجهون إلى قصورهم وحدائقهم فيعرفونها أكثر من معرفتهم لبيوتهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[محمد:٦]. على أحد التفسيرين في الآية.

وقال ﷺ: «فوالذي نفس محمد بيده لأحدُهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»(٢).

عباد الله، إن الله تبارك وتعالى كما خلق أهل النار خلقًا آخر يتناسب مع عذابهم فكذلك خلق أهل الجنة خلقًا آخر يتناسب مع نعيمهم، فقد طيّب خلقهم، وأكمله باطنًا وظاهراً، وأزال عنهم آفات الدنيا وعيوبها. فقبل دخولهم تنقّى صدورهم من الغل والحسد وغير ذلك من الأمراض فيدخلون على قلب رجل واحد. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[الحجر:٤٧].

وقال رسول الله ﷺ: «قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض»(٣).

ويدخلونها أبناءَ سنٍ واحدة، وعلى طول واحد، وعُرض واحد، قال رسول الله

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم.

ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضًا جعاداً مكحلين أبناءَ ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعا، في عرض سبعة أذرع»(١).

ويخلق الله زوجات الدنيا المؤمنات خلقًا آخر في الجنة فيصرن أبكاراً على سن واحدة متحببات لأزواجهن من غير حيض ولا نفاس ولا سوء خلق. قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾[الواقعة:٣٥-٣٧]، وقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[البقرة:٢٥].

وتذهب عنهم عيوب الدنيا من قبح وعمى وعرج وعجز وضعف وغير ذلك. وتزول عنهم آفات الدنيا ومنغصاتها، فلا موت في الجنة، ولا حر ولا برد ولا حزن ولا تعب ولا إعياء ولا خروج منها. قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[فاطر:٣٤]، وقال: ﴿ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر:٤٨]، وقال: ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾[الإنسان:١٣].

وليس في الجنة عزوبية ولا جوع ولا ظمأ، ولا حاجة إلى الخلاء، ولا مرض ولا هرم ولا بؤس ولا خوف ولا وسخ ولا تهرَّ للثياب.

قال رسول الله ﷺ: «لكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، وليس في الجنة عزب»(٢).

وقال ﷺ: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون، ولا يتغوطون ولا يتمخطون. قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح

(١) رواه أحمد والبيهقي، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

المسك»(١).

وقال ﷺ: «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(٢).

وقال ﷺ: «ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، و إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا، و إن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا»(٣).

ويذهب عنهم كل قول وفعل باطلين، ويُلهَمون التسبيح كما يلهمون النفس، يتنعمون بذلك ولا يتعبدون، ويُحيي بعضهم بعضًا بالسلام.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾﴾[النبأ:٣٥]، وقال: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا﴾[النبأ:٣٥]، وقال: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلامًا سَلامًا﴾[الواقعة:٢٥-٢٦]، وقال: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[يونس:١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «يُلهَمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس»(٤).

أيها المسلمون، إن نعيم الجنة الذي ينتظر المؤمنين نعيمٌ لا يحيط به الوصف، فكل ما خطر في بالك ففي الجنة أعظم من ذلك، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

وذلك النعيم الكبير ينقسم إلى قسمين: نعيم حسي، ونعيم معنوي. فالنعيم الحسي كثير متعدد، فمنه: ما على أبدانهم من الرُّواء والحسن. قال تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾[المطففين:٢٤].

ومنه: الطعام والشراب، وهو أنواع كثيرة بلغت غاية اللذة في الشكل والطعم واللون والآنية التي تحملها، وقد جاءت في وصفه نصوص متعددة، قال تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾[الواقعة:٢٠-٢١]، وقال: ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[المطففين:٢٥-٢٦]، وقال: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[الرعد:٣٥].

ومن النعيم: نعيم النكاح، قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾[الدخان:٥٤]، وقال: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾[الواقعة:٢٢-٢٣].

ومن النعيم: نعيم اللباس والحلية والفراش والمتكآت، قال تعالى: ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴾[الإنسان:١٢-١٣].

ومن النعيم: نعيم الخدمة، فيخدمهم ولدان مخلدون بلغوا الغاية في الحسن. قال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴾[الإنسان:١٩].

ومن النعيم: منازلهم وقصورهم الواسعة العالية الحسنة داخليًا وخارجيًا. قال تعالى: ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[الصف:١٢].

وقال النبي ﷺ: «إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام»(١).

وقال ﷺ: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا»(٢).

عباد الله، هذا شيء يسير من النعيم الحسي لأولئك الكرام نسأل الله أن يجعلنا منهم.

وأما النعيم المعنوي، فمنه أن أهل الجنة يجلسون على الأرائك ويتحادثون فيما بينهم عما كانوا عليه في الدنيا من العناء والنصب، وكيف نجاهم الله تعالى من ذلك، فيشكرون الله على ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾[الطور:٢٥-٢٨]. ومن النعيم المعنوي: رؤيتهم لوجه الله تعالى، وإحلالُ رضوانه عليهم. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة:٢٢-٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة: إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل الله موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، وينجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم»(٣).

---

(١) رواه الترمذي وابن حبان، وهو صحيح.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان، وهو صحيح.

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»(١). أيها المسلمون، إن الموحدين من عصاة المسلمين يدخلون جهنم فيعذبون فيها بقدر ذنوبهم ثم يخرجون بعد ذلك إلى الجنة. فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»(٢).

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن آخر أهل الجنة دخولاً إليها، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولاً: رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربي، وجدتها ملأى فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا فيقول: أتسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك». فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة(٣).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، وبعد أن طوّف الخيال في دار الجمال، وسافر القلب بشوقه إلى تلك المنازل البهية، وتاقت الروح إلى الانتقال إلى ذلك النعيم المقيم، ألا يحثنا هذا الشعور العارم إلى اغتنام ما تبقى من رصيد العمر بصرفه في العمل لتلك الدار الأنيقة.

إن العاقل يتمنى ويشتاق لكنه يعمل للوصول إلى ما تمنى. فالجنة تحتاج إلى مسابقة، قال تعالى: ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الحديد:٢١].

والجنة تحتاج إلى منافسة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[المطففين:٢٢-٢٦]. والجنة تحتاج إلى مسارعة، قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران:١٣٣].

فلا تكسل أيها الإنسان ولا تبطئ؛ فما هي إلا أيام قليلة من التعب تعقبها الراحة التامة والسعادة الدائمة. فانتصر على نفسك وهواك وشيطانك ودنياك، واجعل الله معبودك الواحد الذي تعبده وتتوكل عليه، واجعله ملاذك ومعاذك، واتبع سنة نبيك فيما أمر وفيما نهى، واجعله أسوتك وقدوتك. وافعل الخير كله ما استطعت، واجتنب الشر كله أينما

توجهت، وأحسن معاملة الخالق ومعاملة المخلوقين، حتى يأتيك الموت وقد أديت وظيفة العبودية كما يحب رب البرية، فتصير بذلك من أهل الاستقامة، فعند ذلك تكون من أهل هاتين الآيتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأحقاف:١٣-١٤].

فنسأل الله تعالى باسمه الأعظم أن يجعلنا من أهل الجنة.

هذا وصلوا وسلموا على الهادي البشير...

علاج نبوي ناجع(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

روى الإمام أحمد في مسنده بسند صحيح عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال النبي ﷺ: «أُدنُه، فدنا منه قريبًا»، قال: فجلس، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال:

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ٢٠/٢/١٤٣٦هـ، ١٢/١٢/٢٠١٤م.

أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أفتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليه، وقال: اللّهم اغفر ذنبه، وطهّر قلبه، وحصّن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

أيها المسلمون، هذا نص نبوي شريف يحكي لنا هديًا نبويًا في علاج المشكلات، وكيفية التعامل مع أهلها. وفي ظلال هذا الحديث الكريم دروس دعوية، وتربوية ترسم لمن وعاها الطريقَ الصحيح في الاستشفاء والشفاء من أدواء الخطايا.

إن مرحلة الشباب مرحلة عمرية مهمة في حياة الإنسان، تُلقي بحسناتها أو بسيئاتها على ما تلاها من مراحل العمر؛ لأنها مرحلة القوة والنشاط، وسرعةِ الاستجابة للمؤثرات، والإقبالِ على تفجير الطاقات، واستنباط القدرات.

والإنسان في هذه المرحلة إذا لم يدركه حفظ الله تعالى وحمايته، ولم يحرسه عقله وبصيرته فإنه سيسقط في مهاوي الردى، وتخطفه أيادي الإثم والهوى. فالشاب إن لم يكن له دين يمنعه، وعقل يحجزه، وأُسرةٌ ناصحة توجّهه، فسيتجه إلى البطش والظلم، وإراقة طاقاته وقدراته فيما يضره ولا ينفعه، ومن ذلك القوة الجنسية، فإن لم يجد الحلالَ أسالها في الحرام.

ولا شك أن القوة الجنسية تبلغ مداها في هذه المرحلة العمرية؛ ولهذا وجّه الشرع الحكيم أهلَ هذه المرحلة إلى تلبية نداء دعوة هذه القوة بالزواج عند القدرة عليه، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر

وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»(١).

وتبدأ هذه القوة بالتناقص بعد هذا الكمال تدريجيًا؛ ولهذا عظُمَ في الشرع والعقل والعُرف تصابي الشيوخ في عمل الفاحشة؛ لضعف الداعي قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذاب، وعائل مستكبر»(٢).

إن القوة الجنسية التي فُطِر الإنسان عليها إذا كُبحت ولم يُستجب لها في الحلال ولم يُنزح منها فيه أَسِنت وأدّت إلى أضرار حياتية خاصة وعامة؛ كحصول الأمراض النفسية والجسدية، وقلة عدد العنصر البشري، مع كثرة الاحتياج إليه في إصلاح العيش الدنيوي.

فكان من حكمة الله تعالى خلقُ هذه القوة في هذه المرحلة للانطلاق المبكِّر لتكوين الأسرة وبناء الحياة.

أيها الأحبة الكرام، إن هذا الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ يستأذنه في الزنا لم يكن طفلاً ولا رجلاً كبير السن، بل كان ممتلئَ القوة والشباب، فلعلّ قوته الجنسية اشتدت لديه، ولم يجد مؤونة الزواج، فأراد تلبية هذه الرغبة الجامحة. وكان عنده علمٌ بأن الزنا حرام، فأراد أن يجد له مسوِّغًا شرعيًا من رسول الله ﷺ ينطلق منه إلى قضاء شهوته! فانطلق إلى رسول الله ﷺ ليجد حل هذه المشكلة التي لقي منها العناء، ولم يجد من يطفئ عنه لهيبها.

فجاء رسولَ الله ﷺ -وهو بين الناس- ومن غير مقدمات بادر رسولَ الله

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

بالاستئذان للزنا! فقال يا رسول الله ائذن لي بالزنا!. هذه الكلمة كانت كأنها قنبلة صوتية أُلقيت بين أولئك الحاضرين؛ لأنهم يعرفون بشاعة هذه الفاحشة دينيًا وخُلقيًا واجتماعيًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[الإسراء:٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(١).

وقال ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله»(٢).

وقال ﷺ: «لا تزال أمتي بخير ما لم يفشُ فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب»(٣).

هذه بعض عقوبات الدنيا، وأما عقوبات الآخرة، فمنها: ما جاء في حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت الليلة رجلين أتياني-يعني: جبريل وميكائيل-فانطلقا بي... إلى قوله...فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: فأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغطٌ وأصوات، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هـمْ يأتيهم لهبٌ من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا، قال: قلت: ما هؤلاء؟... قال: الزناة والزواني»(٤).

عباد الله، إن الصحابة رضي الله عنهم لما سمعوا هذا الاستئذان الغريب اشتد عليهم الأمر، فأمروا صاحبه بالسكوت. لكن رسول الله ﷺ-وهو طبيب الأمة- يستدني ذلك الفتى ليعالجه علاجًا ناجعًا؛ فالشهوة العارمة مرض من الأمراض التي تحتاج إلى دواء

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

(٣) رواه أحمد، وهو حسن.

(٤) رواه البخاري.

يخففها أو يوجهها إلى مسارها الصحيح.

فالإنسان لا يُلام على هذه القوة الفطرية، وإنما يلام على تصريفها في السبل المحظورة.

لقد داوى رسول الله ﷺ هذا الشاب دواء شافيًا بدا عليه أثره قبل أن يفارق ذلك المجلس وينقلب إلى رحله.

والطبيب الناجح هو من يعالج كل داء بما يناسبه، هذا في أمراض البدن، وكذلك في أمراض النفوس. فهناك بعض النفوس لا تعالجها الأدلة النقلية، وإنما تعالجها الحجج العقلية.

أيها الأحبة الكرام، إن رسول الله ﷺ قد استخدم في علاج هذه المشكلة علاجين شافيين:

العلاج الأول: الإقناع العقلي المتجه إلى الفطرة السليمة، وبقايا الأخلاق المستقيمة في الإنسان مثل خُلق الغَيرة. فالمسلم العاقل غيور على أمه وعلى ابنته وعلى أخته وعلى عمته وعلى خالته وعلى بقية محارمه، حتى ولو كان من أهل الزنا ما لم يصل إلى درجة الدياثة والعياذ بالله. فلهذا قال رسول الله ﷺ لهذا الشاب: (أفتحبه لأمك)؟! لقد كان جواب رسول الله ﷺ بهذا السؤال لذلك الشاب كالصاعقة الأولى التي أحرقت بعضَ عروق حُبِّ الخطيئة لديه؛ فلذلك كان جوابه دالاً على خوفه من ذلك حيث قال: (لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك). فقال رسول الله عند ذلك: (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم). فكان هذا الجواب هو الكبسولة الأولى.

ومن هنا يقال لمن هو واقع في هذه الخطيئة: ما موقفك لو كان هذا الفعل الشنيع الذي تقارفه يقع من أحد من الناس على أمك؟ فمن انتهك حرمات الناس انتُهكت

حرماته، ومن كان بيته من زجاج فلا يرمي أبواب الناس بالحجر، كما قيل.

ويُنسب للإمام الشافعي أنه قال:

عفوا تعفّ نساؤكم في المَحرمِ ... وتجنَّبوا ما لا يليقُ بمسلمِ
إن الزنا دَينٌ إذا أقرضتهُ ... كان الوفا من أهل بيتِك فاعلم
من يزنِ يُزنَ به ولو بجدارِه ... إن كنتَ يا هذا لبيبًا فافهم

ثم إن رسول الله ﷺ واترَ عليه ذِكرَ محارمه: بنته، وأخته، وخالته وعمته. فذكر له رسول الله صلى عليه وسلم هذه المحارم وهو يجيب بذلك الجواب الذي ينفي حبه وقوعَ ذلك على محارمه، حتى تقطعت عروق حب الخطيئة من قلبه عرقًا عرقًا، ورسول الله ﷺ يعظه بواعظٍ من الغيرة المرتّب ابتداء بالأم ثم البنت ثم الأخت ثم العمة ثم الخالة. وهذا الترتيب مقصود، فأشد ما يغار الإنسان على أمه ثم بنته ثم أخته ثم عمته ثم خالته.

لقد استخدم نبينا ﷺ الإقناعَ العقلي في علاج هذه المشكلة حتى انتفع به ذلك الشاب. وهذا أسلوب مناسب يُستفاد منه في علاج مشكلات الشهوات، ومشكلات الشبهات.

أيها المسلمون، إن الرسول ﷺ كان حكيمًا في حلّ المعضلات وإيجاد الحلول الكافية الشافية لها، حتى يكفي ويُرضي ويغني عن غيره. فعن أبي هريرة رضي الله قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكت يا رسول الله، قال: «وما أهلكك؟» قال: وقعت على امرأتي في رمضان، قال: هل تجد ما تعتق رقبة؟ قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهريين متتابعين؟ قال: لا، قال: فهل تجد ما تطعم ستين مسكينًا؟ قال: لا، قال: ثم جلس، فأُتي النبي ﷺ بِعَرَقٍ فيه تمر فقال: تصدق بهذا، قال: أعلى أفقر منا؟!

فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: اذهب فأطعمه أهلك»(١). فانظروا وتأملوا، كيف جاء هذا الرجل المذنب خائفًا حزينًا فقيراً، وكيف رجع فرحًا مسروراً عنده قوته وقوت أهله!

وهذا مثال آخر يدل على حكمة نبينا ﷺ في مداوة الأخطاء وكسبِ القلوب والتأثير على النفوس، جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه، دعوه»، فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه» وفي رواية للبخاري: فقال الأعرابي -وهو في الصلاة-: «اللّهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا. فلما سلم النبي ﷺ قال للأعرابي: «لقد حجَّرت واسعا» يعني: ضيّقت رحمة الله.

وهذا مثال كذلك جاء في الصحيحين أيضًا: أن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى». قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا فقال عمر: إني أشهدكم -يا معشر المسلمين-

---

(١) متفق عليه.

على حكيم أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي. هكذا داوى رسول الله وهكذا ربّى أصحابه.

أيها الإخوة الفضلاء، أما العلاج الثاني الذي استعمله رسول الله ﷺ مع هذا الشاب فهو أنْ وضعَ يده الشريفة عليه ودعا له فقال: «اللّٰهم اغفر ذنبه، وطهّر قلبه، وحصن فرجه».

فقد دعا له ﷺ ثلاث دعوات جامعات نافعات، الدعوة الأولى: (اللّٰهم اغفر ذنبه) وهذه دعوة بفتح صفحة جديدة تبدأ بالعفاف والطهر ومحو خطيئات الماضي.

والدعوة الثانية: (وطهر قلبه) وهذه دعوة بتصفية منطلق الخطيئة، فحب المعصية ينشأ في القلب، وهذا الحب لها قذرٌ ونجاسة، والقلب هو المحرك للجوارح، فإذا طُهِّر القلب من حب الذنب انكفّت الجوارح عن مقارفته.

وأما الدعوة الثالثة فهي: (وحصّن فرجه) تنتظم هذه الدعوةُ الأخيرة الخطَّ الأخير إلى ورود المعصية، وهي عملية إيقاف عن امتطاء الخطيئة يسمّى بالتحصين، وتحصين الفرج وكبح جماحه يكون إما بالكف عن الحرام بمانع العفة والنزاهة والصبر عن المقارفة؛ مراقبةً لله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[النور:٣٣].

وقال-بعد أن ذكر جواز حل الزواج بالإماء المؤمنات العفيفات لمن عجز عن مهور الحرائر، ولما يترتب على الزواج بالإماء من الآثار السيئة على الأولاد في المستقبل: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[النساء:٢٥].

وإما أن تكون الدعوة بالتحصين بأن يسهل الله الزواج بزوجة تكفيه عن الحرام، والله أعلم.

وهذه الدعوة دعوة نافعة عظيمة لمن بُلي بالفاحشة، فيدعو بها لنفسه بصدق وإخلاص، فإن صدق وأخلص فسيجد-إن شاء الله- أثرها عليه. وكذلك يدعو بها المسلم لغيره من المسلمين ممن يقترفها، ويدعو بها المفتي والمستشار الأسري لمن شكا إليهما سيطرةَ هذه المعصية عليه؛ فلعل الله أن يستجيب فيه ما دعوا له.

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، أما بعد،

أيها المسلمون، في هذه القصة درس عظيم ذو أهمية كبيرة نُفيده منها ألا وهو: الرحمة بأهل المعاصي، والحرصُ على انتشالهم من أوحال الخطيئة بالأساليب الحسنة المؤثرة.

فإن الإنسان العاصي -خاصة في معصية الفاحشة- إنسان ضعيف استطاع الشيطان أن ينتصر عليه، وقدرت نفسه الأمارة بالسوء أن تغلبه وتستحكم عليه، ولم يكن لديه من دروع الحماية والحصانة ما يكفي لصدّ دعوة الخطيئة، فصار عند ذلك ضحية لذلك الشر المحدق به. وغالبًا أن المسلم الذي تبقَّى في نفسه خير يحس بالألم، ويشعر بالذنب، ويكتوي بالكرب، ويعاني غمًا وهمًا كبيرين، ويجد في نفسه أنه كالغريق في بحر عميق ينتظر قواربَ النجاة وأطواق الإنقاذ، وأيدي المنجدين يتشبث بها ليخرج من مهلكته. فهذا الإنسان أهلٌ لأن يُرحم، فيُساعَد على الخروج من مستنقعه الآسن. فلتُسرع إليه خُطى المنقذين ولا يسلموه للشيطان والهوى، وإن جاء تائبًا فينبغي أن يُستقبل بالحنو والعطف والرأفة حتى يشعر بأنه يلامس كفًّا حانية، وقلوبًا عليه حريصة، تريد له الخير والسعادة. ولا يجوز أن يقابل بالسخرية والتقنيط، والإزراء والشتيمة؛ فييأسَ من رحمة الله، ويكره العفاف وأهله، فيرجع إلى خطيئته وأهلها محبًا متمسكًا.

فانظروا -رحمكم الله- كيف أنقذ رسولُ الله ﷺ هذا الشاب، وكيف أعتقه من

رِبقة الهوى، وكيف حرّره من أسر الشيطان، وكيف نصره على نفسه الأمارة بالسوء، وكيف خلّصه من بوتقة المعصية وعَذابها إلى رحابة الطاعة وعُذوبتها.

هكذا تصنع الأخلاق العالية، وهكذا تعمل الرحمة، وهكذا يداوي الطبيب الأسوة، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[النساء:٢٥]، وقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩]، وقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١].

فيا أيها المسلمون، الحكمةَ الحكمةَ في علاج المشكلات، والرحمةَ الرحمةَ بأهل الخطيئات.

ويا من أسرف على نفسه، سارع إلى التوبة، وبادر إلى الإنابة؛ فما عند الله خير وأبقى للتائبين المنيبين.

وما تجده في الحرام ستجد أطيب منه في الحلال، وتذكّر العواقبَ الوخيمة على مقارفة الجريمة، فإن فعلتَ فقد هُديت إلى طريق مستقيم.

فنسأل الله تعالى لمن واقع الفاحشة من المسلمين أن يردّهم إلى حصن العفاف، وأن يغفر ذنوبهم، وأن يطهر قلوبهم، ويحصّن فروجهم.

هذا وصلوا وسلموا على القدوة المهداة...

فتية الكهف(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، يا أهل الجمعة، لعل الكثير منكم قرأ اليوم سورة الكهف؛ فقد جاء الترغيب في قراءتها هذا اليوم، قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين»(٢).

إن هذه السورة الكريمة أنزلها الله تعالى على رسوله محمد ﷺ في مكة حينما بلغ

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ١٤٣٦/٥/٢٩هـ، ٢٠١٥/٣/٢٠م.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي، وهو صحيح.

أذى المشركين للمسلمين الغاية، فجاءت هذه السورة لتفتح للسابقين الأولين أبواب الفرج، وترسم أمامهم طريق الأمل، وسبيل الخروج من الضيق الذي يعانونه إلى سعة عظمى تنتظر موكبهم الكريم.

ولقد كان من وسائل التأثير التي اتخذتها هذه السورة: وسيلةُ القصة، فكان من القصص التي ذكرتها: قصة أصحاب الكهف، وهي أول قصة فيها. يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾[الكهف:٩]، إلى قوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾[الكهف:٢٦].

عباد الله، هذه قصة شُبّانٍ آمنوا بالله وحده بين قوم يعبدون غير الله تعالى، فلم يستطيعوا أن يجهروا بالحق في بيئة تعجُّ بالشرك والمشركين، فخرجوا من أرض قومهم إلى كهف قريب من مدينتهم ليعبدوا الله فيه. فضرب الله تعالى على آذانهم النوم فناموا أكثر من ثلاثمائة سنة، وبقوا تلك المدة على حالتهم لم يتغيروا. ثم أيقظهم الله عز وجل بعد ذلك فقاموا من نومهم وظنوا أنهم ما ناموا إلا يومًا واحداً؛ فأجسادهم لم تتغير وشعورهم كما هي عليه وأظفارهم لم تطل(١). فاحتاجوا إلى الطعام فأرسلوا واحداً منهم إلى المدينة لجلب ذلك، فرجع بالطعام إلى رفاقه، وقد كُشف أمرهم لأهل المدينة، بالدراهم التي اشترى بها صاحبهم(٢). فأماتهم الله تعالى بعد أن أطلع أهلَ المدينة على قصتهم؛ لتكون للناس عظة وعبرة.

أيها المسلمون، هذه القصة قصة عجيبة؛ ولذلك تداولتها الأجيال جيلاً بعد جيل

---

(١) ينظر: فتح القدير، للشوكاني (٣/ ٣٩٢).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٩٦).

إلى عهد رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات على رسوله ﷺ ليبين أنها قصة فيها عظات وعبر، لكنه يقول لرسوله وللناس: إن في خلق الله ما هو أعجب من ذلك. يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾[الكهف:٩]، [الكهف:٩]. والرقيم: هو اللوح الذي كتبت فيه أسماؤهم.

لقد أجمل الله تعالى قصتهم في ثلاث آيات بيّن فيها خروجهم ودعاءهم ثم إماتتهم ثم إيقاظهم. قال تعالى: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾[الكهف:١٠-١٢].

وهذا الأسلوب القائم على الإجمال ثم التفصيل مما يشوّق المتابع للقصة؛ فقد جاء التفصيل بعد هذا الإجمال يبين للناس أن القرآن الكريم سيذكر خبرهم العجيب كما هو عليه من غير تحريف ولا كذب كما هي عادة بعض القُصّاص، وكما هي عادة القصص التي تتناقلها الألسنة. فبين تعالى أن هؤلاء المؤمنين كانوا شبابًا آمنوا بالله تعالى وزادهم الله ثباتًا وهدى وقوّى قلوبهم لاتباع الحق بين قومهم المشركين الذين حادوا عن سبيل الحق فعبدوا غير الله تعالى من غير برهان فجاأوا بأعظم فرية. قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾[الكهف:١٣-١٥].

عباد الله، إن هؤلاء الشباب الصالحين عندما عرفوا الحق لم يترددوا في قبوله والتضحية في سبيله؛ فقد فارقوا الأهلَ والجيران والمحبوبات والوطن فاعتزلوا؛ فراراً

بـدين الله تعـالى كـما فعـل أصـحاب رسـول الله ﷺ مخلّفـين وراءهـم علائـق دنيـاهم ليفوزوا بـدينهم. وهـذا فيه رسالة للناس وخاصـة للشباب؛ -لأنهم أصحاب أذهان صافية فهم أسرع من غيرهم لقبول الحق-، هذه الرسالة مضمونها: أن الدنيا بجميع ملذاتها ومتعلقاتها إذا كانت تقف عائقًا أمام الحق فإنها تترك وتهجر، ويُنتقل عنها إلى المكان الذي يسهل لزوم الحق فيه والعمل به. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[النساء:١٠٠].

أيها الأحبة الكرام، إن البيئة الفاسدة عقديًا وعمليًا وخُلقيًا تـؤثّر على الإنسان الصالح مع مرور الزمن، فهؤلاء الشباب كانوا يستطيعون أن يخفوا إيمانهم بين قومهم ويعبدون الله في السر. لكنهم خافوا إن استمروا بين قومهم وهم يرون تلك المنكرات؛ فلذلك لجأوا إلى العزلة التي وجدوا فيها صلاحَ الدين والدنيا. قال تعالى: ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴾[الكهف:١٦].

فوصلوا إلى الكهف فضرب الله تعالى عليهم النوم الطويل فناموا، فحفظ الله أجسامهم من البلى فلم تأكلها الأرض خلال تلك المدة الطويلة. وكان من إكرام الله لهم أن الشمس إذا طلعت من المشرق تميل عن مكانهم إلى جهة اليمين، وإذا غربت تتركهم إلى جهة اليسار، فلا تؤذيهم حرارة الشمس ولا ينقطع عنهم الهواء. قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ

ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[الكهف:١٧-١٨].

أيها المسلمون، إن المسلم إذا كان من الأتقياء الصالحين الذين آثروا الآخرة على الدنيا، وقدموا مرضاة الله على شهوات أنفسهم فإن الله يرعاهم ويحوطهم بعنايته وحفظه، ويدفع عنهم السوء بقدر ما عندهم من الإيمان والعمل الصالح. قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾[النحل:١٢٨]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[الحج:٣٨].

ويجعل من أحوالهم عبرة للمعتبرين يتعظون بها، وتسلك بالاقتداء بهم طريقُ الحق أحياء وأمواتًا. وهذا يربي المسلم على أن القيام بالحق باطنًا وظاهراً يرفع شأن صاحبه، ويصبح له درعًا حصينة تدفع عنه الضرر ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الشورى:٣٦].

عباد الله، وكما أن الله جعل بهم آية حينما أنامهم تلك المدة الطويلة حافظًا لهم؛ أيقظهم بعد ذلك دون تغيُّر. فجعل بعضهم يسأل بعضًا عن المدة التي ناموها، فقال بعضهم: نمنا يومًا أو بعض يوم، وبعضهم فوّض الأمر إلى الله تعالى. وانشغلوا بما هو أهم لهم من معرفة الزمن الذي لبثوه وهو البحث عن الطعام، فأرسلوا واحداً منهم إلى السوق ليشتري لهم طعامًا، وكانت لديهم عُملة من الفضة، وحذروا صاحبهم من أي عمل يعمله يكون سببًا لكشف أمرهم؛ لأن أهل المدينة لو اطّلعوا عليهم فإنهم إما أن يقتلوهم، وإما أن يردوهم إلى الكفر بالله تعالى. وهم لا يدرون أن أهل جيلهم قد ماتوا وجاء جيل آخر عقبهم. قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ

فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف:١٩-٢٠].

عباد الله، إن هاتين الآيتين تشيران إلى أن على الإنسان أن لا يشغل بالَه بالأشياء التي لا تُعلم أو التي لا فائدة من معرفتها، بل عليه أن يشغل نفسه بما ينفعه من أمر دينه ودنياه. وأن على المسلم أن يتحرى الحلالَ الطيب فيأخذه ويترك الحرام الخبيث فيجتنبه. وأن عليه أن يكون حذراً من الأمور المكروهة، ويتخذ الوسائل المناسبة لحمايته منها، وأن لا يتمنى لقاء الفتن، ويسأل الله العافية منها؛ فإنها لو أصابته في دينه فاستجاب لها فقد يموت عليها، فيخسر بذلك خسرانًا مبينًا.

أيها المسلمون، فلما كشف البائعُ أمرَ الدراهم بدأ خبر الفتية ينتشر في المدينة، ولعل أهل تلك المدينة قد تناقلوا الخبر عمن قبلهم بأن فتية تركوا المدينة في ذلك الزمن. وكان أهل المدينة وقت إيقاظ هؤلاء الفتية مؤمنين فكان في ذلك عبرة وآية على إمكان البعث، وتقوية لإيمان أهل المدينة بيوم القيامة؛ لوجود المنكرين والمشككين في زمانهم، فكانت هذه الحادثة رداً على المنكرين، وتقوية لإيمان المؤمنين(١).

فلما رآهم أهل المدينة واطّلعوا على قصتهم أمات الله هؤلاء الفتية ؛ لتمام حصول العبرة، فاختلف الناس المؤمنون ماذا يفعلون بهم؟ فقال بعضهم: نبني عليهم بنيانًا يمنع الناس من الاقتراب منهم؛ خشية أن يؤذوا أجسادهم، لكن أهل الكلمة والسلطان فيهم قالوا: نبني على مكانهم مسجداً للعبادة؛ إكرامًا لهم وتعهداً لهم. وقد

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٥/ ٤١)، تفسير ابن كثير (٥/ ١٤٦).

كان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سنة النصارى[١]، لكن في شريعة نبينا محمد ﷺ جاء النهي عن ذلك، قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا القبور مساجد؛ إني أنهاكم عن ذلك»[٢].

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾[الكهف:٢١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) ينظر: أضواء البيان (٢/ ٣٠١)، أيسر التفاسير للجزائري (٣/ ٢٤٨)، تفسير ابن كثير (٥/ ١٤٧).

(٢) رواه مسلم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعد، أيها المسلمون، لما شاعت قصة أهل الكهف صارت حديثَ النوادي والألسنة في ذلك الزمان وبعده، حتى اختلف أهل الكتاب في عدد هؤلاء الفتية على ثلاثة أقوال، حكم القرآن على اثنين منها بالإبطال؛ لأنها كانت قائمة على الظن والحدس، ولم يتعقّب القولَ الثالث منها ليدل على صحته. فالقول الأول: أنهم ثلاثة رابعهم كلبهم، والقول الثاني: أنهم خمسة سادسهم كلبهم، والقول الثالث أنهم سبعة ثامنهم كلبهم، وهذا هو الصحيح.

لكن الله تعالى نهى رسوله ﷺ عن مجادلة أهل الكتاب واستفتائهم في شأنهم؛ لأنهم لا علم لهم بذلك على وجه الحقيقة، ولأنه لا عبرة من معرفة العدد، إنما العبرة بحصول الحدث. قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾[الكهف:٢٢].

عباد الله، ذكر الإمام الطبري في تفسيره أن المشركين لما سألوا رسول الله ﷺ مختبرين له-كما علّمهم أهل الكتاب- عن أهل الكهف، وعن ذي القرنين وعدَهم ﷺ بالإجابة عن سؤالهم الغد، ولم يقل: إن شاء الله، فلم يأته جبريل إلا بعد خمسة عشر يومًا، وقيل غير ذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ❋ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾[الكهف:٢٣-٢٤].

وهـذا يعلمنـا قـول: إن شـاء الله عنـد إرادة الفعـل في المسـتقبل، وأن نـذكر الله عنـد النسيان؛ لأن ذكر الله يذّكر الإنسان ما نسي. ثم أخبر الله رسوله ﷺ بالمدة التي بقي فيها أهل الكهف نيامًا في كهفهم أنها ثلاثمائة سنة بالتاريخ الشمسي.الذي كان عليه أصحاب الكهف وهو تاريخ الروم النصارى، وبالتاريخ القمري-وهو تاريخ العرب والمسلمين- ثلاثمائة وتسع سنين(١). وذلك أن الفرق بين التاريخ الشمسي.والقمري سنة قمرية زائدة في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية، ففي ثلاثمائة سنة شمسية تسع سنوات قمرية، قال تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾[الكهف:٢٥].

أيها الأحبة الكرام، ثم ختم الله تعالى القصة بدرس عظيم وهو أن على الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلم الجواب عنه أن يكل أمره إلى الله تعالى، وبهذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ. وفي نهاية القصة أشار سبحانه وتعالى إلى سعة سمعه وبصره وإحاطته بخلقه، وأنه لا وليَ للخلق من دون الله تعالى، وأنه المتفرد في حكمه بين عباده من غير شريك. قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾[الكهف:٢٦].

فيا أيها المسلمون، بعد هذا علينا أن نستحضر.هذه المعاني عند قراءة هذه القصة يوم الجمعة، وفي غير الجمعة؛ لكي نستفيد علمًا وعملا. نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا.

هذا وصلوا وسلموا على نبينا محمد...

---

(١) ينظر: البحر المديد، لابن عجيبة(٤/ ٢١٩).

قوارب المغفرة(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، جاء في الحديث الصحيح عند الترمذي في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وعند أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه، وعند الطبراني في معاجمه الثلاثة عن ابن عباس رضي الله عنهما قالوا: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٢/٤/١٤٣٧هـ، ٢٢/١/٢٠١٦م.

خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة».

عباد الله، هذا حديث عظيم يُلقي على النفوس ظِلالَ الطمأنينة والسكينة، ويكسو القلوب ألبِسة الإجلال والبهجة، ويغرس فيها دوحات الإعظام والمحبة لربنا الكريم سبحانه وتعالى.

كما أنه يفتح للمسلم أبواب الأمل والتفاؤل، ويغلق عنه منافذ اليأس والقنوط، ويرشده إلى الطريق القويم حينما يزيغ عنه في ظلمات الخطايا والانحراف، ويهديه الدواءَ إذا أسقمه الداء، ويعطيه قوارب النجاة عندما تتقاذفه أمواجُ الشبهات والشهوات، ويعيده إلى دار الأمان والعز، بعد أن تاه عنها في طرقات الضياع والذل.

لقد تجلّت في هذا الحديث- معشر المسلمين- صفاتٌ من صفات الله تعالى البالغةِ في الحسن الغاية، وفي الكمال النهاية.

ففيه بيان صفة علم الله تعالى؛ فهو -جل وعلا- العالم العليم العلاّم الذي أحاط بكل شيء علمًا، فلا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يعلم ما كان وما يكون لو كان كيف يكون، ويعلم الأشياء دقيقها وجليلها، وظاهرها وخفيها، قال تعالى: ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[سبأ:٣]. فمن علمه تعالى: أنه يعلم أعمال عباده: طاعاتها ومعاصيها، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المجادلة:٦].

وبناء على هذا العلم المحيط بكل شيء؛ دعا عباده المذنبين إلى الاستغفار والتوبة من الذنوب التي أحاط بها علمًا؛ ليغفرها لهم فضلاً منه وكرمًا.

وفي الحديث بيان صفة رحمة الله تعالى التي لولاها لهلكَ عبادُه أجمعون، فهو الرحيم الرحمن الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، فبها خلَقهم، وبها رزقهم، وبها أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وبها أسبلَ عليهم النعم، ودفع عنهم النقم، وبها أدخل صالحيهم الجنة، ونجّاهم من النار، فسبحانه من إله رحيم، رحم عباده وهو قادر عزيز!.

فلذلك دعاهم في هذا الحديث إلى استغفاره؛ حتى يغفر لهم خطاياهم التي لو لم تُغفر لأهلكتْهم، فاللهم هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

وفي الحديث الكريم بيان صفة حلم الله تعالى، الذي يحلم على عباده المذنبين عن قدرة وكرم، لا عن ضعف وعجز، فلم يعاجلهم بالعقوبة، بل أمهلهم؛ لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا عن غيهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾[فاطر:٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى؛ إنهم يجعلون له نداً، ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم، ويعافيهم ويعطيهم!»(١).

فمن حلمه: أنه دعا عباده –إذا عصوا– أن يستغفروه ويتوبوا إليه.

وفي الحديث: بيان صفة مغفرة الله ذنوبَ عباده، فهو عز وتعالى الغافر الغفور الغفار، يغفر ذنوب المذبين، ويستر على عباده العاصين؛ ولذلك يخبرهم بهذه الصفة العظيمة فيقول: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[الحجر:٤٩].

---

(١) رواه مسلم.

ويدعو المسرفين على أنفسهم بالخطايا أن يتركوها، ويدعوا القنوط من غفرانه، ويقبلوا تائبين إليه منيبين وسيغفر لهم، فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾[الزمر:٥٣-٥٤].

فلهذا دعاهم في هذا الحديث إلى الرجاء والدعاء والاستغفار والتوحيد؛ لكي يسدل على معاصيهم ثوب المغفرة والستر.

وفي الحديث كذلك: بيان صفة الوحدانية لله الواحد الأحد، فالله سبحانه المعبود الحق الواحد لا شريك له، فمن لقي الله تعالى موحداً غير مشرك بالله في الأقوال أو الأفعال نال مغفرة لذنوبه، ونجا من النار، ودخل الجنة.

أيها الأحبة الكرام، إن هذا النص الكريم يتحدث عن قضية مهمة، ألا وهي قضية الذنوب، وسبل التخلص منها.

إن الذنوب نار تحرق صاحبها عاجلاً أو آجلاً، وداء يمرض الروح أو يميتها، الذنوب أخرجت آدم وحواء من الجنة فهبطا إلى الأرض بعد حياة الرغد، والذنوب طردت إبليسَ إلى لعنة الله، والذنوب هي التي تجلب الشقاء والتعاسة، والكدر والحزن، وتسلب عن العبد معيةَ ربه وتوفيقه وحمايته، والذنوب تورث العزيز ذلاً، والعمر محقًا وخسراً، والذنوب ما حلّت قلبًا إلا ضيقت سروره، وسوّدت بياض أيامه، وقطعته عن أسباب راحته ونعيمه، والذنوب هي التي تجلب لأهلها الكوارث والجوائح، والمصائب والمعاطب، والنقم والبلايا.

كم من نفس كانت بالطاعة عالية، فأصبحت بالمعصية دانية، وكانت بالصلاح في فسحة ونعيم، فأضحت بالخطيئة في ضيق وجحيم، وكانت ببُعدها عن الخطايا قريبة

من رب البرايا، فلما عصت ابتعدت عن الرحمن، واقتربت من الشيطان، فسبحان الله! كيف يرضى العاقل لنفسه ذلَّ المعصية، ولا يرضى لها عزَّ الطاعة، وكيف يستضيف بالخطيئة الضيقَ والعناء، ويطرد بهجر الطاعة السرورَ والهناء، وكيف يسعى جاهداً لسلوك أسباب العذاب في العاجل والآجل بالمعصية، ولا يسلك طرق السلامة في الدنيا والآخرة بالطاعة!.

فيا من غرق في لجج الخطايا اعلم أن هناك يداً تمتد إليك لتنقذك فلا تردها، ويامن أحرقته نيران المعاصي، إن هناك وسائل إطفاء تُعرض عليك فاقبلها، ويامن ضلّ في دياجي الذنوب، إن هناك نوراً يناديك ليخرجك من الظلمات إلى النور ويهديك إلى صراط مستقيم فأحسن استقباله، ويامن تدنَّس بعصيان خالقه، إن هناك مغتسَلاً طهوراً ينتظرك ليطهرك فأسرع إليه، ويامن ما زال في سجن مخالفة ربه، إن هناك سبلاً كثيرة لإطلاق سراحك فاقبل زيارتها لك، ويامن تعاني آلام الخطيئة، إن هناك دواء مجانيًا يقدم لك فخذه قبل أن يهلكك المرض.

فتعال- يا عبد الله- إلى كرم الله ولطفه، ورحمته وحلمه، وهو يناديك لتقبل عليه تائبًا ليقبل عليك غفوراً رحيمًا، فيقول لك: "يا ابن آدم"، إنه نداء كريم يصل الحاضر بالماضي، ويربط الابن بأبيه، ويذكّر الفرعَ بالأصل، ولقد أضاف الولد إلى الوالد لعل إنسان اليوم يتذكر إنسان الأمس، ويقيس حاله على حاله.

فآدم عليه السلام في ظلِّ الطاعة كان في نعمة سابغة: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة:٣٥]. فلما حصلت المعصية بالأكل من الشجرة كانت النتيجة: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ

إِلَى حِينٍ ﴾[البقرة:٣٦].

لكن آدم عليه السلام حينما عرف كيد الشيطان الرجيم، وجاءه عتاب الرحمن الكريم استغفر ربه وتاب إليه، فقبل الله تعالى الرحيم توبته وتوبة زوجته، وغفر لهما حوبتهما، قال تعالى: ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الأعراف:٢٢-٢٣]. وقال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[البقرة:٣٧]. فكذلك أنت- يا ابن آدم- فما دمت على الطاعة فأنت في نعمة، فإذا عصيت فاتك من النعم بقدر معصيتك، فإذا أردت رضا الله عنك فتب كما تاب أبوك، تنلْ ما ناله من توبة الله عليه.

أيها المسلمون، لقد تضمن هذا النص القدسي الكريم ثلاثة أسباب من أسباب مغفرة الذنوب:

السبب الأول- الدعاء، (يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي). فالدعاء بوابة العبد إلى السماء، تُستنزل به النعماء، ويُستدفع به البلاء، يطلب به العبدُ حوائجه، ويزيل به مواجعه، فعبره تتحقق- بمشيئة الله- الآمال، وتذهب الآلام، والدعاء طريق إلى راحة النفس واطمئنانها، وسرور القلب وسكونه، وهو باب مفتوح يلجه المخلوق إلى خالقه الذي يحب من ولج هذا الباب وفتح، واستمر فيه وألح، وهذا برهان على كرم الله وجوده، ورحمته بعبيده؛ ولذلك أمرهم به، ووعدهم الإجابة عليه فقال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠]. وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا

دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة:١٨٦].

فيا من له حاجة من حاجات الدنيا، أو حاجة من حاجات الآخرة، لا تذل نفسك على أبواب مخلوقين مثلك؛ فهذا باب دعاء الخالق أمامك مفتوح فأقبل عليه.

غير أن الدعاء الذي يُرجى قبوله -معشر المسلمين- يحتاج إلى قوة توجّهٍ إلى الله وحده، وحضور قلب، واستمرار تضرع، وأكل حلال، وغير ذلك من شروط الدعاء وآدابه.

عباد الله، من أهمّ ما يدعو به المسلم: الدعاء بمغفرة ذنوبه التي إذا غُفرت له سعد في الدنيا والآخرة؛ ولذلك جاء الحث الشرعي على الدعاء بالمغفرة في مواطن كثيرة في العبادات، ومن ذلك في الصلاة: في دعاء الاستفتاح، وفي السجود، وفي الجلسة بين السجدتين، وقبل التسليم.

ولابد أن يكون مع الدعاء رجاء، وهو الأمل المخالف لليأس، فيدعو المسلم ربه وهو آمل بأن الله يجيبه فيغفر له، وأن حاجته لا يقضيها إلا الله تعالى على أيدي من يشاء من عباده.

فيا أيها المسلم، مهما كثرت ذنوبك، ومهما عظمت خطاياك ادع الله بالمغفرة لها ولا تيأس من غفران الله، ولا تجعل الشيطان ينتصر عليك مرتين: الأولى عند الوقوع في المعصية، والثانية: عند إرادة دعاء الله بالمغفرة لها، حيث يزين للعبد بأن معاصيه كثيرة، فاعصه، ولا تسمع نصحه الخادع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللّهم اغفر لي إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء

أعطاه»[١].

فادعُ-أيها المذنب، وكلنا كذلك-؛ فعفو الله أعظم من الذنوب.

واليوم قل:

يا ربِّ إنْ عظُمتْ ذنوبي كثرةً		فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ		فمن الذي يدعو ويرجو المجرم؟!
أدعوك ربِّ كما أَمرتَ تضرّعًا		فإذا رددتَ يدي فمن ذا يرحم؟
ماليْ إليكَ وسيلةٌ إلا الرجا		وجميلُ ظني ثم إنيَ مسلم

وقل كذلك:

ولما قسا قلبي وضاقتْ مذاهبي		جعلتُ الرجا مني لعفوك سُلَّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنتُه		بعفوك ربي كان عفُوك أعظما
فما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل		تجودُ وتعفو مِنَّةً وتكرُّما

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

(١) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله الرحمن الرحيم، الغفور الحليم، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

أيها المسلمون، والسبب الثاني الذي ذكره الحديث من أسباب المغفرة: الاستغفار، فقال: (يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي). إن الاستغفار عبادة عظيمة من أعظم العبادات التي تقال به العثرات، وتغفر به الزلات، أمر الله تعالى به فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[البقرة:١٩٩]. وأثنى على أهله فقال:﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾[آل عمران:١٧]. لكن لابد أن ينبعث الاستغفار من قلب منيب، ولسان صادق، تكف به الجوارح عن الآثام، وتقبل على الطاعات خاشعة مخبتة، قائلة: أستغفر الله، من القلب ومن اللسان، وتصدق ذلك الجوارح. ومن أكمل صيغ الاستغفار: ما جاء عن رسول الله ﷺ كدعاء سيد الاستغفار، وهو: (اللّهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك، ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)(١).

وقوله ﷺ: «اللّهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم»(٢).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

وقوله ﷺ: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه»(١).

إن على المسلم الحريص على غفران ذنوبه أن يلهج لسانه دائمًا بالاستغفار، وأن يكون له في ليله ونهاره استغفار كثير؛ فلعلَّ ساعةَ مغفرة تدركه وهو على ذلك.

عباد الله، والسبب الثالث من أسباب المغفرة في هذا الحديث القدسي: لقاء الله تعالى بالتوحيد، من غير إشراك، (يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة).

فانظروا إلى كرم الله تعالى! كيف يتفضل على عباده الموحدين. فتوحيد الله تعالى، وعدم الإشراك به هو السبب الأعظم لنجاة العبد بين يدي ربه، فمن كان أكثرَ توحيداً كان أكثر مغفرة، ومن كان أكثر شركًا كان أبعد عن المغفرة. والشرك بالله تعالى يكون في الاعتقادات، وفي الأقوال، وفي أعمال الجوارح.

فمن توجه بتعظيمه وإجلاله وعبادته، وتقربه رغبةً ورهبة ومحبة لله، وغير ذلك من أنواع التوحيد-اعتقاداً وعملاً-؛ فهو الموحد، ومن عبد غير الله تعالى، أو عمل العمل لغير الله، وعظم غير الله تعالى تعظيمًا لا يكون إلا لله، أو رغب فيه أو رهب منه، وانحرف في ذلك عن شرع الله في الحب والتعظيم والرغبة والرهبة ونحو ذلك مما لا يكون إلا لله؛ فصرفه لغير الله فهو المشرك، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٨].

أيها الفضلاء، ألا هلْ من حرصٍ كبير على التوبة النصوح، والاستغفار الصادق، والتوحيد الخالص؛ حتى تظفروا بغفران الخطايا.

---

(١) متفق عليه.

فيا سعدَ من لقي الله تعالى وقد محيت سيئاته في الدنيا قبل الآخرة.

ألا وإن من فضل الله تعالى: أن جعل للذنوب في الدنيا كفارات كثيرة-غير ما ذكر-، فمن ذلك: الوضوء الكامل، والصلاة التامة، والصيام المقبول، والصدقة المخلصة، والحج المبرور، والجهاد في سبيل الله، والأذكار في الليل والنهار، وغير ذلك.

فيا أيها المسلم، كما أن الذنوب كثيرة في الليل والنهار، فاجعل لنفسك كفارات كثيرة في ليلك ونهارك، فالسعيد من إذا أذنب استغفر، وتاب وأناب قبل يوم المآب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:١٣٥].

هذا وصلوا على البشير النذير...

نبي الله داود عليه السلام: سيرة، وعبرة

(الجزء الأول)[١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد بن عبد الله، ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد، وتربية وتقويم، يقود الخلقَ إلى الخالق، ويحذرهم سبل المفاسد والبوائق. والمتدبرون له هم الذين يستفيدون من هدايته وعظاته، فتدبرُ القرآن غاية من غايات إنزاله، قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني.

مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[ص:٢٩].

إلا وإن من وسائل هداية القرآن: ذكرَ القصة عن الأفراد والجماعات والأمم، ومن ذلك: قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم: المسلمين والكافرين. وقد تميزت القصة القرآنية بأنها قصة حقيقية لا مكذوبة، وأنها واقعية لا متخيلة، وأن المذكور منها هو جانب العظة والعبرة؛ ولذلك نجد القصة القرآنية لا تتسم بالحشو والتفصيلات التي لا حاجة إليها.

وينبغي أن نعلم أن القصص عن الأمم الماضية قد امتدت إليها أيدي أهل الكتاب الآثمة وغيرهم فحرفتها زيادة ونقصانًا، بل أضافت فيها أشياء لا تليق بأهل الإيمان، ومن ذلك ما زادوه فيما يتعلق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهذا ما يسمى في علوم القرآن بالإسرائيليات والموضوعات، وهي الأكاذيب والأقاصيص التي طرأت على القصص القرآني. وقد تولى كِبرَ ذلك اليهودُ عليهم غضب الله، وقد تسلل بعضٌ من تلك الخرافات المنسوجة إلى بعض كتب التفسير والتاريخ.

والواجب علينا-معشر المسلمين-الاعتمادُ في القصة القرآنية على ما جاء في القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، وأما التفصيلات الزائدة على ذلك فإن أهل العلم ينظرون فيها إلى ما وافق القرآن والسنة فيحكمون بقبوله، وإلا فحسب المسلمين كتابُ الله، وسنة رسوله ﷺ.

ويجب علينا كذلك أن نعتقد أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الدنايا ورذائل الأخلاق، وما يشين السلوكَ المستقيم، وعليه فكل حكاية أو قصة تخلُّ بمقام النبوة مما جاء عن بني إسرائيل وغيرهم يجب علينا ردُّها وتكذيبها.

أيها المسلمون، إن من القصص التي نُسجت حولها الأكاذيب، بل تغلغلت هذه

الكذبات في عقول بعض الناس: قصةَ نبي الله داود ﷺ الذي أكرمه الله تعالى بكرامات متعددة.

وستناول في هذه الخطبة -بعون الله تعالى- قصة داود عليه السلام كما جاءت في القرآن وصحيح السنة، وننظر في تلك الأكاذيب الشنيعة التي نسبت إلى هذا النبي الكريم وهو بريء منها براءة الذئب من دم يوسف، وسنرجئ الدروس والعبر المستفادة من سيرة هذا النبي الكريم إلى خطبة قادمة إن شاء الله تعالى.

عباد الله، لقد كان نبي الله داود عليه السلام شابًا من بني إسرائيل، وحينما خرج طالوت ببني إسرائيل إلى مواجهة جالوت وجنوده خرج داود في جند طالوت، فثبت مع الثابتين، وبقي من الفئة القليلة التي واجهت جالوت وجنده، فلما تواجه الجمعان والتقى الفريقان أعان الله تعالى داودَ عليه السلام على قتل جالوت بيده، فلمعَ نجمُ داود في بني إسرائيل وعرفوا قدره، فملّكوه عليهم بعد طالوت، وآتاه الله النبوةَ بعد ذلك، فجمع الله له بين النبوة والملك وبين خير الدنيا والآخرة، وقد كان المُلْك في بني إسرائيل في سبط، والنبوة في سبط آخر، فجمعهما الله تعالى لداود عليه السلام. قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة:٢٥١].

أيها الأحبة الفضلاء، عاش داود عليه السلام عفيفًا حريصًا على العزة في طعامه وصلاح أمر عيشه، فما كان يأكل إلا من عمل يده، قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل

يده»(١).

وقد كانت مهنته التي علّمها الله تعالى إياها مهنةً عسكرية تنفع الناس وهي: نسجُ الدروع وبيعها، وقد أحسنَ صناعتها وإتقانها بتعليم الله له، فكانت دروعه دقيقة وغير ثقيلة على لابسها، وإنما هي أخف محملاً، وأتم وقاية، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[الأنبياء:٨٠]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[سبأ:١٠-١١].

قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ: "أول من صنع الدروع داود. وإنما كانت صفائح، فهو أول من سردها وحلّقها"(٢).

أيها المسلمون، لقد حكمَ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في بني إسرائيل، وقضى بينهم في الخصومات، فكان الحاكم العادل، والقاضي الفاصل، وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم من قصص حكمه وقضائه قصتين:

القصة الأولى: في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ *

إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ *

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير القرطبي (١١/ ٣٢٠).

قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ۞ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص:٢١-٢٦].

وفي هذه الآيات الكريمة بعض التنبيهات:

أولاً: يجب علينا أن نعتقد أن عصمة الأنبياء تقضي بعدم صحة ما ورد في بعض كتب التفسير والتاريخ من قصة المرأة مع داود عليه السلام؛ فإن ذلك المنسوب إليه مَعيبٌ في حق أدنى المؤمنين فضلاً عن الأنبياء والمرسلين.

ثانيًا: وأما قصة القائد المزعومة فإن أهل الإيمان والأخلاق العالية يتنزهون عن هذا الفعل الدنيء من النظر الحرام إلى المرأة، ثم تدبير حيلة التخلص من زوجها، وهي حيلة لقتل لبريء وتخلص من صاحب مساعد!، فإذا كان هذا لا يليق بهؤلاء فكيف بنبي أثنى الله تعالى عليه؟!.

ثالثًا: الخصومة التي حكتها الآيات خصومة حقيقية، وادعاء أنهما ملكان ليس عليه دليل، والأصل حمل الأشياء على حقيقتها حتى يقوم دليل صحيح ينفي الحقيقة.

رابعًا: ومثل ذلك يقال في معنى النعجة، فالمعنى الحقيقي لها معروف أنه في الغنم، وصرفه إلى المرأة معنى مجازي لم يقم عليه دليل، والقاعدة المطردة حمل الشيء على حقيقته حتى يقوم دليل على إرادة المجاز.

خامسًا: أن سبب فزع داود عليه السلام هو مجيئهما من غير الباب، فظن أنهما أرادا به سوء حينما تسوّرا المحراب، والله أعلم.

سادسًا: القول بأن ذنب داود عليه السلام هو سماعه من الخصم الأول دون سماع الثاني غير صحيح؛ فإن هذا يطعن في عدل أي قاضٍ فكيف بداود عليه السلام الذي أثنى الله عليه بالعدل وحسن القضاء.

سابعًا: لم يذكر الله تعالى ما هو ذنب داود عليه السلام الذي استغفر منه؛ لذلك لا داعي للخوض في الحدس والظنون للبحث عن ذلك، وتحميلِ الآيات ما لا تحتمل. والتوبة ليست مقصورة على التوبة من الذنب، بل التوبة قد تكون من البعد عن ذكر الله مدة من الزمن كما يقول الخارج من الخلاء: (غفرانك)، وقد تكون التوبة من التقصير في الطاعة، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين[١]. قال بعض المفسرين: " وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله؛ لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها "[٢].

أيها المسلمون، والقصة الثانية في قوله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[الأنبياء:٧٨-٧٩].

تحكي هاتان الآيتان خبر حادثة عدَتْ فيها غنمُ أحد الخصمين في الليل على زرع الخصم الآخر فاحتكما إلى داود عليه السلام، فكان حكم داود: أن تدفع الغنم إلى صاحب

---

(١) ينظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، لأبي شهبة (ص: ٣٤١).

(٢) تفسير السعدي (ص: ٧١١).

الزرع؛ لسبب اقتضى عنده ترجيح ذلك، ولعل السبب أن ثمن تلك الغنم يساوي ثمن ما أتلفت من الحرث، فكان ذلك حكمًا عادلاً في تعويض ما أتلف، وأما حكم سليمان عليه السلام فكان أن رأى أن تدفع الغنم لأصحاب الحرث مدة عام كامل كي ينتفعوا من ألبانها وأصوافها ونسلها ويدفع الحرث إلى أصحاب الغنم؛ ليقوموا بإصلاحه، فإذا كمل الحرث ورجع إلى حالته الأولى عاد إلى كل فريق مالُه، فرجع داود إلى حكم سليمان ابنه؛ لأنه أرفق بالخصمين، وإن كان قضاء داود صحيحًا؛ إذ الأصل في الغرم أن يكون تعويضًا ناجزاً؛ ولذلك أثنى الله عليهما فقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (١).

عباد الله، وهناك قصة ثالثة في قضاء داود عليه السلام قريبة من القصة السابقة لم تذكر في القرآن، وإنما ثبتت في السنة، فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنتِ، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: لا، يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى».

قال العلماء: يحتمل أن داود عليه السلام قضى به للكبرى؛ لشبه رآه فيها، أو أنه كان في شريعته الترجيح بالكبير، أو لكونه كان في يدها، وكان ذلك مرجحًا في شرعه. وأما سليمان فتوصل بطريق من الحيلة والملاطفة إلى معرفة باطن القضية، فأوهمهما أنه يريد قطعه؛ ليعرف من يشق عليها قطعُه فتكون هي أمَّه، فلما أرادت الكبرى قطعه عرف

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٧/ ٨٦).

أنها ليست أمه، فلما قالت الصغرى ما قالت عرف أنها أمه، ولم يكن مراده أنه يقطعه حقيقة، وإنما أراد اختبار شفقتهما؛ لتتميز له الأم، فلما تميزت بها ذكرت عرفها، ولعله استقر الكبرى فأقرت بعد ذلك به للصغرى، فحكم للصغرى بالإقرار لا بمجرد الشفقة المذكورة(١).

وأما عن سبب نقض سليمان لحكم أبيه عليهما السلام، فقد قيل: إن داود لم يجزم، أو أن كلامه في القضية فتوى لا حكم، أو لعله كان في شرعهم نسخُ الحكم إذا رفعه الخصم إلى حاكم آخر يرى خلافه(٢)، والله أعلم.

أيها الأحبة الفضلاء، إن نبي الله داود عليه السلام لم يُلهه ملكه وحكمه عن الإكثار من عبادة ربه تبارك وتعالى، فقد كانت روحُه المتألقة في سماء الطاعة تزداد رقيًا وصعوداً على أجنحة العبادة ومعارج الخلوة بربه سبحانه وتعالى؛ ولذلك كان ذا عبادة عظيمة، وتزلّف كثير؛ ولهذا أثنى عليه الله تعالى بكثرة التوبة والرجوع إليه، فقال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص:١٧].

وأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحسن الصيام والصلاة، وأخبر أن خير الصلاة النافلة في الليل صلاتُه، وخير الصيام المستحب صيامه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه»(٣).

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي كان يديم الصيام: «فصم يومًا،

---

(١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ١٨).

(٢) شرح النووي على مسلم (٦/ ١٥٢).

(٣) متفق عليه.

وأفطر يومًا، وذلك صيام داود، وهو أفضل الصيام». قلت: إني أطيق أفضل منه يا رسول الله، قال:«لا أفضل من ذلك»(١).

أيها المسلمون، لقد جمع الله لنبيه داود عليه السلام خيري الدنيا والدين، فقد أنعم عليه بنعم كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ﴾[سبأ:١٠].

وذكر ذلك أيضًا ابنه سليمان عليه السلام في معرض التحدث بالنعمة والشكر لله عليها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النمل:١٥].

فمن تلك النعم:

أولاً: القوة العلمية، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾[البقرة:٢٥١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾[النمل:١٥].

وهذا العلم يشمل العلم بدين الله، والعلم بتدبير أمر الملك، والعلمَ بمنطق الطير، والعلم بمعرفة تسبيح الجبال معه، والعلم بصناعة الدروع الحصينة الخفيفة على حاملها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾[سبأ:١٠]، وقال: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾[ص:١٨-١٩].

ثانيًا: القوة البدنية، وتشمل هذه القوة: القدرةَ العظيمة على صناعة الدروع فكان الحديد في يده كالعجين يتصرف فيه كما يشاء، قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾[سبأ:١٠]، وتشمل كذلك: القوةَ العسكرية بقتله جالوت، والقوة على كثرة العبادة

(١) متفق عليه.

من صيام وصلاة وغيرها مع انشغاله بالملك.

ثالثًا: قوة الملك بتسخير الأسباب المادية والمعنوية؛ ليقوى ملكه من كثرة الجنود، وحسن السيرة، والعدل والفصل في الخصومات. قال تعالى: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾[ص: ٢٠].

رابعاً: الإصابة في القول والفهم في القضاء، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[ص: ٢٠].

خامسًا: المنزلة العالية عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾[ص:٢٥].

سادسًا: البركة في الوقت، وتيسير القراءة عليه، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «خُفِّفَ على داود عليه السلام القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه»(١). والمراد بالقرآن هنا: التوراة أو الزبور، وقرآن كل نبي يطلق علي كتابه الذي أُوحِي إليه، وقيل: المراد بالقرآن: القراءة(٢).

سادسًا: حسن الصوت، فقد كان داود عليه السلام ذا صوت جميل، فكان إذا رجّع التسبيح والزبور بصوته الشجي رجّعت الجبال والطير مثل تسبيحه طربًا لصوته. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ٧٩]، وقال: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾[ص:١٨-١٩].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) فتح الباري، لابن حجر(٦/ ٤٥٥).

وفي الصحيحين عن أبي موسى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي موسى: «لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أُوتِيت مزماراً من مزامير آل داود».

قال العلماء: المراد بالمزمار هنا: الصوت الحسن، وأصله الآلة المعروفة وأطلق اسمها على الصوت للمشابهة، وآل داود هو داود نفسه، وآل فلان قد يطلق على نفسه؛ إذ لم يعرف من أقاربه أنه أُعطي من حسن الصوت ما أُعطي(١).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

(١) فتح الباري، لابن حجر(٩/ ٩٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، لقد عاش نبي الله داود عليه السلام مائة سنة كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم! اذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملأ منهم جلوس فقل: السلام عليكم، قالوا: وعليك السلام ورحمة الله، ثم رجع إلى ربه فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم، فقال الله له ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت، قال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته فقال: أي رب! ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم أو من أضوئهم قال: يا رب، من هذا؟ قال: هذا ابنك داود، وقد كتبتُ له عمر أربعين سنة، قال: يا رب، زد في عمره قال: ذاك الذي كتبت له قال: أي رب، فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال: أنت وذاك...»(١).

وقد كانت قصة موته كما جاء عند الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أُغلِقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد، حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وغلّقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدارَ والدارُ مغلقة؟! والله لتفتضحن بداود، فجاء داود فإذا الرجل

---

(١) رواه الترمذي وأحمد والحاكم والبيهقي وابن حبان، حديث حسن صحيح، وإسناده على شرط مسلم.

قائم وسط الدار فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمتنع مني شيء، فقال داود: أنت والله ملك الموت، فمرحبًا بأمر الله فقبضت روحه في مكانه»[١].

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

(١) رواه أحمد، قال ابن كثير: وإسناده جيد قوي، رجاله ثقات.

نبي الله داود عليه السلام: سيرة، وعبرة

(الجزء الثاني)[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدي هدي محمد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

أيها الناس، لقد عشنا في خطبة الجمعة الماضية مع قصة داود عليه السلام في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية، منذ أن كان شابًا إلى أن توفي عليه السلام.

وكان في حياة هذا النبي الكريم محطات مهمة متنوعة تستدعي الوقوف عندها

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني.

لأخذ العظة والعبرة؛ فإن دراسة حياة الأخيار دراسة تدبرية عميقة يعطي الدارسَ والسامع والقارئ أنواراً تضيء طريق العبد إلى ربه تعالى، وحياة العظماء-بهداياتها وإضاءاتها- بعد موتهم أمدُّ منها قبل وفاتهم.

وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنتَ اليوم أوعظُ منك حيّا

عباد الله، في حياة نبي الله داود عليه السلام -مما ذكرنا في النصوص في الجمعة الماضية- دروس وعبر منيرة، في جوانب كثيرة من الحياة، فهناك دروس علمية، وهناك دروس سياسية، وهناك دروس قضائية، وهناك دروس عسكرية، وهناك دروس اقتصادية، وهناك دروس عامة أخرى.

فمن الدروس العلمية في قصة هذا النبي الكريم: بيان شرف العلم النافع وأثره الحسن في صلاح الحياة، سواء كان علم دين أم علم دنيا، فالعلم نور يشرق على جوانب الحياة الخاصة والعامة فيرى به صاحبُه السبل السوية فيسلكها، والأحوال المرضية فيأخذ بها، ونبي الله داود عليه السلام كان ممن جُمع له علم الدين والدنيا، فكان عالمًا بالشرع، وعالمًا بالسياسة، وعالمًا بالقضاء، وعالمًا بالصناعة، وغير ذلك.

ومن الدروس العلمية: شكر الله تعالى على نعمة العلم النافع، علم الدين وعلم الدنيا، فالشكر يزيد هذه النعمةَ ويبارك فيها ويحفظها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم:٧].

ومن شكر العلم: استعمالُه فيما يرضي الله تعالى، كنفع الناس به، والاستعانة به على صلاح الدنيا والدين، وهكذا كان نبي الله داود مع ابنه سليمان عليهما السلام، قال تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ

الْمُؤْمِنِينَ»[النمل:١٥].

ومن الدروس العلمية: أن العلم نعمة من الله تعالى على صاحبه، وهبة سَنَية منه وحده، فليس باستحقاق العبد ولا بقدرته ولا بذكائه، وهذا يجعل ذا العلم متواضعًا، لا يرى لنفسه أيَّ موجب للكبر، بل يوجب عليه رد العلم إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[ص:٢٠]، وقال:﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾[سبأ:١٠]، وقال: ﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾[البقرة:٢٥١].

ومن الدروس العلمية: أن الإعلان بالعلم والتحدث به، إن كان من باب الشكر والتحدث بالنعمة لا يعدّ مذمومًا، إنما المذموم إظهاره شهرةً أو رياء أو عُجبًا. ولهذا أظهر داود وسليمان عليهما السلام نعمة العلم على اللسان؛ شكراً لله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النمل:١٥].

ومن الدروس العلمية: أن الناس متفاوتون في العلم والفهم، فليسوا في مرتبة واحدة، ولو بين الأب وابنه، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الحديد:٢١].

ولا يعني هذا التفاوت انتقاص المفضول بتقدم الفاضل، فلكلٍّ فضله، وإن نقص حظه في جانب ما كمل في جانب آخر، وهنا أعطى الله تعالى سليمان عليه السلام مزيدَ فهمٍ في القضاء يفضل أباه عليه السلام، قال تعالى:﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾[الحديد:٢٩].

أيها الإخوة الفضلاء، وفي هذه السيرة العطِرة لهذا النبي الكريم دروس في السياسة، فمن تلك الدروس: أهمية وجود الحكم والدولة لحكم الناس وسياسة أمورهم، فلابد لأي تجمع بشري يريد الحفاظ على بقائه ونمائه من حاكم يسوس شؤونه، ويدبر أحواله، قال الشاعر:

لا يصلح الناسُ فوضى لا سَراةَ لهم ... ولا سَراة إذا جهّالهم سادوا

إذا تولّى سَراةُ الناسِ أمرَهمُ ... نما على ذاك أمرُ القومِ وازدادوا

تُهدى الأمورُ بأهل الرأي ما صلحتْ ... فإن تولّت فبالأشرار تنقاد

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع؛ لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس..."(١).

وتقتضي طبيعة الحياة السيرَ على نظام يُبنى على سلطة حاكمة ومجموعة بشرية محكومة، تدين بالطاعة لتلك السلطة، وتتولى هذه السلطة رعاية تلك المجموعة بما يضمن لها العيش بأمان واستقرار.

فقد استقرت حياة بني إسرائيل في عهد النبيين الكريمين داود وابنه سليمان حينما أعطاهما الله النبوة والملك فحكما بينهم بشرع الله تعالى.

ومن الدروس السياسية: أن قوة الدولة يورث استقرارَ البلاد، أما إذا وهنت وصارت ضعيفة فإنه سيعيث الفسادُ فيها، وتنتشر الاضطرابات المتنوعة في ربوعها، وتؤول إلى الزوال والاضمحلال. وحكم داود عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما كان مبنيًا على القوة العادلة

---

(١) انظر: السياسة الشرعية، لابن تيمية (١٢٩).

استقرت دولته وشعب بني إسرائيل الذي حكمه. قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص:٢٠].

ومن الدروس السياسية: أن العدل وصلاح الحكام من أسباب بقاء الدول وراحة الشعوب التي ترعاها، وقد مضت سنة الحياة على هذا، فكم بقيت دول قرونًا متعددة بسبب إقامة العدل وصلاح حكامها، وكم فنيت دول كانت أشد قوة وبأسًا بسبب الظلم وفساد ولاتها. وداود عليه السلام عندما كان حاكماً عدلاً ونبيًا صالحاً استقرت مملكته ونعُم شعبه في ظل حكمه. فقد أمره الله تعالى فقال له: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص:٢٦].

ومن الدروس السياسية: أن كثرة علم الحاكم بالدين، وكثرة علمه بأمور الدنيا خاصة المتعلقة بالحكم من أسباب النجاح في الحكم، وهكذا كان داود عليه السلام.

ومن الدروس السياسية كذلك: أهمية وجود المستشارين الصالحين، والبطانة الصالحة للحاكم المسلم، فإنها سمعُه وبصره بين رعيته، يسددونه، ويعينونه، ويصلحون ما أخطأ، ويشيرون عليه بالصواب من القول والفعل. قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بعث الله من نبي ولا كان بعده من خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، فمن وقيَ شرها فقد وقي»(١).

وهكذا كان سليمان بطانةَ خير لأبيه عليهما السلام.

ومن الدروس السياسية: أن اتباع الحاكم للهوى في حكمه من أسباب تقويض

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.

الحكم وخرابه؛ لأن اتباع الهوى سيضله عن الصواب، ويبعده عن الحق في الفصل بين الناس، وتسيير أمور الدولة؛ ولذلك نهى الله تعالى داود عليه السلام عنه، وبين له عاقبته وآثاره السيئة، فقال: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص:٢١-٢٦].

ومن الدروس السياسية: أن يكون الحاكم من أهل العبادة والقرب من الله تعالى؛ حتى يسدده الله في حكمه، ويعمل لدينه كما يعمل لدنيا الناس ودينهم، وقد عمل داود عليه السلام بذلك فكان كثير العبادة والتوبة والأعمال الصالحة كما مرّ معنا في الخطبة الماضية.

أيها الأحباب الكرام، وفي سيرة هذا النبي الكريم عِبرٌ ودروس قضائية، منها: أهمية القضاء والفصل في الخصومات في حياة الناس، وفي استقرار الدول؛ فإن الحياة الجماعية التي يعيشها الناس يشوبها الاختلاف والتنازع، والظلم والاعتداء على الحقوق، ولابد لهذا الافتراق من قضاء يفصل التنازع، ويعيد الحقوق إلى أهلها؛ حتى تستمر سفينة الوئام في مخر عباب الحياة بعيدةً عن هيجان أمواج الاعتداءات. والقضاة يحكمون في قضايا الناس بناء على أمرين: معرفة الأدلة والقرائن في القضية المرفوعة إليهم، وإصدار الحكم الشرعي في تلك القضية حسب ما تبين لهم من تلك البراهين، وهم مختلفون في إصابة الحق، فمنهم من يصيب السداد، ومنهم من يقاربه، ومنهم من يبعد عنه، ونبي الله داود عليه السلام أعطاه الله تعالى قوة الفصل والمعرفة في الحكم في القضايا، وكذلك أعطى ابنه سليمان عليهما السلام، فقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾[الإنسان:٢٨].ومن الدروس القضائية: جواز نقض الحكم بالحكم إذا تبين خطأُ الحكم الأول، أو كان الثاني أرفقَ بالخصوم، فالقضاة حكمهم لا يبنى على معرفة الغيب حتى لا يعدلوا عن الصواب،

ولكنه مبني على ما ترجح لديهم من القرائن، فقد يصيبون وقد يخطئون؛ ولذلك قد يحكم القاضي لأحد الخصمين بالحق من خصمه وهو ليس له، فيستحق ذلك الخصم الحق المحكوم به قضاءً، ولكنه لا يجوز له أن يأخذه ديانة؛ ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض، وأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذ؛ فإنما أقطع له قطعة من النار»(١).

وفي قصة داود عليه السلام نقض حكمه في قضية الزرع، وقضية المرأتين، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾[الأنبياء:٧٩-٨٠].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت هذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنتِ، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى: لا، يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى». والقضاة لا يستوون في معرفة الصواب، فداود عليه السلام كان حكمه في القضيتين صحيحًا بناء على الأدلة، لكن تبين لسليمان عليه السلام حكمٌ هو أرفق بالخصمين من حكم أبيه فحكم به وأقره أبوه عليه، وفي الثانية لاحظ سليمان مخايل الاستحقاق للولد في المرأة الصغرى فاحتال حيلة قضائية صحيحة حتى وصل إلى الحق فحكم به للصغرى، وأمضى أبوه حكمه في هذه كذلك.

ومن الدروس القضائية: أهمية تحلي القاضي بالفطنة والذكاء، والإحاطة بالطرق

---

(١) متفق عليه.

المشروعة في استبيان الحق، مثل الحيل الصحيحة، وقد ضرب القاضي إياس بن معاوية أروع الأمثلة في الفراسة واستخراج الحقوق من الخصوم، وقد ذكر المؤرخون عن فطنة إياس وذكائه في القضاء أخباراً عجيبة كثيرة، فمن ذلك:

أن رجلاً استودع رجلاً مالاً، ثم طلبه فجحده، فخاصمه إلى إياس بن معاوية، فقال الطالب: إني دفعت المال إليه، قال: ومن حضرك؟ قال: دفعته إليه في مكان كذا وكذا ولم يحضرنا أحد، قال: فأي شيء كان في ذلك الموضع؟ قال: شجرة، قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر إلى الشجرة؛ فلعل الله تعالى يوضح لك هناك ما يبين لك حقك، لعلك دفنت مالك عند الشجرة ونسيت فتذكر إذا رأيت الشجرة، فمضى الرجل وقال إياس للمطلوب: اجلس، حتى يرجع خصمك، فجلس، وإياس يقضي وينظر إليه ساعة ثم قال له: يا هذا، أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التي ذكر؟ قال: لا، قال: يا عدو الله، إنك لخائن، قال: أقلني أقالك الله، فأمر من يحتفظ به حتى جاء الطالب فقال له إياس: قد أقر لك بحقك فخذه به. ورد رجل جارية اشتراها من رجل غلبه فخاصمه إلى إياس بن معاوية فقال له: لِمَ تردها؟ قال: أردها بالحمق، قال إياس لها: أيُّ رجليك أطول؟ قالت: هذه، قال: تذكرين أيَّ ليلة ولدت؟ قالت: نعم، فقال له إياس: رُدّ رُدّ.

وهنا سليمان عليه السلام استعمل حيلة السكين حتى عرف أم الغلام الحقيقية.

ومن الدروس القضائية: أن رجوع القاضي إلى الحق والحكم الأرفق من حكمه يعدّ فضيلة ومنقبة له، وقد روي رجوع بعض الصحابة؛ كعمر وعثمان وأبي موسى رضي الله عنهم في بعض الأحكام القضائية. وهنا ظهر رجوع داود إلى حكم ابنه سليمان عليهما السلام.

ومن الدروس القضائية: أن خطأ القاضي أو مخالفته للأفضل في الحكم –بعد الاجتهاد في تحري الصواب– لا ينقص من قدره؛ ولهذا فإن الله تعالى لم يلُمْ داود على قضائه، بل أثنى عليه فقال: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء:٧٩].وقال:﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[ص:٢٠].

ومن الدروس القضائية: عدم مشروعية إغلاق الأبواب أمام المتقاضين، ووجوبُ تسهيل سبل وصول الخصومات إلى القضاء بالطرق المنظمة، من غير إشقاق على المتقاضين. فعن ابن مريم عمرو بن مرة الجهني رضي الله عنه أنه قال لمعاوية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «من ولاّه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة»، فجعل معاوية رجلاً على حوائج المسلمين(١). فداود عليه السلام لو كان بينه وبين الناس حواجز وفواصل لما وصل إليه الخصمان وحصل ما حصل.

ومن الدروس القضائية: جواز قول المستقضي للقاضي: احكم بيننا بالحق، أو اقضِ بيننا بكتاب الله، أو لا تجُرْ في حكمك، ولا يُعدّ ذلك تهمة للقاضي؛ فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالا: (إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر: وهو أفقه منه: نعم، فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي).

وفي قصة داود عليه السلام قال تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[ص:٢٢].

ومن الدروس القضائية: أن على القاضي الانتباه إلى أن فصاحة اللسان، والغلبة في

(١) رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

الكلام، وإيراد الحجج لا تجعل صاحبها صاحب الحق لديه، فكم من حق عيي اللسانُ عن إظهاره، وكم من باطل أظهره حسنُ الكلام وفصاحته.

ومن الدروس القضائية: إرجاع الرعية ما اختلفوا فيه من الحقوق إلى القضاء؛ حتى تفصْل القضايا ولا تتطور إلى سوء أكبر، ولكي يعود الحق إلى صاحبه، ويعم الأمن والاتفاق بين الناس.

أيها المسلمون، وفي سيرة نبي الله داود عليه السلام جانب آخر في حياته المختلفة فيه عظات ودروس، هذا الجانب هو الجانب العسكري، فمن الدروس العسكرية في هذه السيرة النضرة: المشاركة في الخروج في الجهاد في سبيل الله تعالى ضد الكفار الذين يفسدون في الأرض، كما خرج داود عليه السلام مع طالوت لقتال جالوت وجنوده.

ومن الدروس العسكرية: أهمية قتلِ قائد العدو في حسم المعركة، وأن الرجل العسكري الخافت قد يُبرِز شأنَه موقفٌ عسكري واحد له أهميته فتعرف بذلك منزلته ومكانته، كما حصل لداود عليه السلام في قتله لجالوت، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾[البقرة:٢٥١].

ومن الدروس العسكرية: أن مدافعة أهل الباطل ورد باطلهم من أسباب صلاح الأرض وأهلها؛ إذ لو تُركوا لفسدت الأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة:**٢٥١**].عباد الله، هناك مجال حياتي مهم كان لداود عليه السلام اعتناءٌ به، وصار في بعض جوانبه قدوة يقتدى به فيه، هذا المجال هو المجال الاقتصادي، ففي حياة داود عليه السلام دروس اقتصادية متعددة، فمنها:

الحرص على الاهتمام بالصناعات التي تصلح حياة المسلمين وتدفع عنهم السوء،

ومن ذلك الصناعات العسكرية، والاهتمام بالإتقان والدقة في الصناعة، وشكرُ الله تعالى على تعليمه العبدَ صناعة من الصناعات، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[الأنبياء:٨٠]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[سبأ:١٠-١١].

ومن الدروس الاقتصادية: أن الحرص على العمل والكسب الحلال، والأكل من عمل اليد، دون الانتظار لكسب الآخرين. والسعي لطلب الرزق وكفّ النفس عن الناس؛ يُصلِح النفس، ويقوّي عودَ الدِّين، ويبني المجتمع وينبذ عنه الكسل والكسالى، قال رسول الله ﷺ:«ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(١).

ومن الدروس الاقتصادية: وجوب تسخير نعمة معرفة الصناعات النافعة في نفع الناس وإصلاح عيشهم، ودفع الضرر عنهم قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾[الأنبياء:٨٠]،

ومن الدروس الاقتصادية: تفاوت الناس في الأرزاق، وهذا راجع إلى علم الله تعالى وحكمته، فليس الخير دائماً في الغنى، وليس الشر في الفقر، بل الخير في الرضا بقسم الله تعالى واختياره، قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾[الإسراء:٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»(٢). وفي هذه القصة

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد والترمذي والبيهقي، وهو حسن.

ظهر هذا التفاوت بين الخصمين اللذين تخاصما إلى داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[ص:٢٣].

ومن الدروس الاقتصادية: أن الغنى الطاغي صاحبُه قد يسوقه إلى الطمع وعدم القناعة، وإلى ظلم الآخرين! والواجب على المسلم إذا أعطاه الله تعالى الغنى أن يشكر الله تعالى ويقنع بما أُعطي، ويتقي ظلم الناس والتعدي على أموالهم وحقوقهم، فأحد الخصمين اللذين احتكما إلى داود ملك تسعًا وتسعين نعجة ومع ذلك لم يقنع، بل أراد أخذ نعجة أخيه التي لا يملك غيرها!! ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[ص:٢٣].

ومن الدروس الاقتصادية: أن الشركة في الأموال مظنة الظلم، إلا إذا كان الشركاء يراقبون الله تعالى، وبُنيت الشراكة بينهم على أسس شرعية ومالية وإدارية صحيحة، وهنا قال داود عليه السلام للخصمين: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[ص:٢٤].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، ومازالت هذه السيرة العطرة لهذا النبي الكريم تفيض بالعبر والعظات والدروس، ومن دروسها العامة: أن الفضل ليس بتقدم السن، ولا بالأبّوة؛ إذ لا يلزم أن يكون الكبير أفضل من الصغير، ولا الأب أفضل من الابن، فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، ففي هذا القصة ظهر فضل فهم سليمان على أبيه بتفهيم الله إياه، ولكن ذلك لا ينقص من قدر داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء:٧٩].

وفي القصة: بيان فضل القوة النافعة أيًا كانت: قوة دينية أم قوة دنيوية.

وفي القصة: فضل غَيرة الرجل على نسائه، والعمل على إبعاد كل سبيل تَشِيْنَهن، وأن ذلك من كمال الرجولة، فعند الإمام أحمد في مسنده -بسند جيد- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان داود النبي فيه غَيرة شديدة، وكان إذا خرج أُغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد، حتى يرجع».

وفي القصة: بيان فضل حسن الصوت وأنه نعمة من نعم الله تعالى إذا استعمل في الخير، فقد كان داود عليه السلام نديَّ الصوت حسنَهُ، فاستغل ذلك في طاعة الله تعالى.

فيا عباد الله، هذه قصة نبي الله داود عليه السلام التي تبيّن من خلالها حرص أعداء الأنبياء من اليهود وغيرهم على تشويه صورة الرسل والنبيين عبر الأجيال، وقد رأينا

ما فيها من العظات والدروس، وهكذا لو تأمل المسلم في قصص الرسل والأنبياء بعين بصيرة سيجد خيراً كثيراً بتدبره لتلك القصص الصادقة، نسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا.

هذا وصلوا وسلموا على الهادي البشير...

أحكام شَعرِ الإنسان(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى نبيه محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، وعدله وسواه، وركَّب أجزاء جسمه تركيبًا عجيبًا، وخلق له ما يفيده ويعينه، ويجمّله ويزينه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد كان من تلك الأجزاء التي يتكون منها الجسم: الشَعر الذي يُنبته الله تعالى

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١١/٢/١٤٣٨هـ، ١١/١١/٢٠١٦م.

بأعداد تقدر بالملايين في مواضع من جسد الإنسان، ولم يكن خلق ذلك عبثًا من غير حكمة وفائدة، بل له حِكم وفوائد طبية وتحسينية كثيرة، وغير ذلك.

ولما كان جسد الإنسان هو الجِرْم الذي يُناط به التكليف؛ فإنه قد ارتبطت بأعضائه على العموم أو على الخصوص عبادات وأحكام شرعية.

فالشعر النابت في الجسم الإنساني من تلك الأجزاء التي تعلّقت بها أحكام شرعية جاء بها ديننا الحنيف. وهذا مما يدل دلالة واضحة على سعة هذا الدين وشموله، وعنايته بمصالح الإنسان العاجلة والآجلة.

عباد الله، إن الشَعر الموجود في جسم الإنسان منه ما ينمو بنمو الإنسان ويستمر في نمائه إلى موت صاحبه؛ كشعر الرأس، ومنه ما ينمو إلى مرحلة معينة يقف عندها؛ كشعر الحاجبين.

وهذه الشعور تتوزع على رأس الإنسان، ووجهه، وساعديه، وصدره، وبطنه، وعانته، وفخذيه، وساقيه، ولا تأخذ حكمًا شرعيًا واحداً من ناحية الإبقاء والإزالة؛ بل منها: ما أمر الشرع بإبقائه، ونهى عن أخذه أو الأخذ منه، ومنها: ما أمر الشارع بإزالته، والإزالة إما أن تكون بالحلق وإما بالقص، وإما بالنتف، سواء كان ذلك بالموسى، أم المقص، أم المزيلات الصناعية. ومن الشعر: ما سكت عنه الشارع الحكيم، فلم يأمر بإبقائه، ولم يأمر بإزالته. وحكمه حينئذ راجع إلى اختيار الإنسان: إن شاء أبقاه، وإن شاء أزاله.

أيها المسلمون، إن حديثنا اليوم عن الشعر حديثٌ ذو أهمية؛ لكون الشعر جزء من أجزاء الإنسان التي وردت في حقها أحكام شرعية خاصة، ولأنه استجدَّت أفعال عصرية تتعلق بشعر الذكور والإناث صغاراً وكباراً، فيحتاج المسلم والمسلمة إلى

معرفة حكم الشرع في تلك الأفعال التي تُجرى على الشعر؛ حتى يسلم من الإثم فيما حكمه الحرمة، ويسلم من الضيق والحرج فيما حكمه الإباحة والتوسعة.

والأحكام الشرعية المتعلقة بالشعر منها ما هو مشترك بين الذكور والإناث، ومنها ما هو خاص بالذكور، ومنها ما هو خاص بالإناث.

وسنبدأ-بعون الله تعالى- بالأحكام المشتركة.

أيها الأحبة الفضلاء، يستحب في حق المولود-ذكراً أو أنثى- أن يحلق شعر رأسه يوم سابعه، فعن سمرة بن جندب ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم السابع، ويحلق رأسه، ويسمى»(١)، وعن عائشة ﵂ قالت: (عقَّ رسول الله ﷺ عن حسن وحسين يوم السابع، وسماهما، وأمر أن يماط عن رأسه الأذى)(٢).

والحكمة من حلق رأس المولود كما يقول ابن القيم ﵀: " وكان حلق رأسه إماطةَ الأذى عنه، وإزالة الشعر الضعيف؛ ليخلفه شعر أقوى وأمكن منه، وأنفع للرأس، ومع ما فيه من التخفيف عن الصبي، وفتح مسام الرأس؛ ليخرج البخار منها بيسر وسهولة، وفي ذلك تقوية بصره وشمه وسمعه"(٣).

ومما يستحب في الشعر-في حق الذكور والإناث-: إكرامُه، بصيانته عن الأوساخ، وتعاهده بالتنظيف، والتطييب، والدهن، والتسريح، قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه أحمد والترمذي والحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه ابن حبان والحاكم، وهو صحيح.

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود (ص: ٧١).

«من كان له شعر فليكرمه»[١].

وعن جابر بن عبد الله قال: أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلاً شعثًا قد تفرق شعره فقال: «أما كان يجد هذا ما يسكن به شعره؟! ورأى رجلاً آخر وعليه ثياب وسخة فقال: أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه»؟![٢].

وأما حديث: (نهى ﷺ عن الترجل إلا غِبّاً)[٣] يعني: يمشط يومًا ويترك يومًا، : "فالمراد به: ترك المبالغة في الترفّه، والتنعم"[٤].

ومما يستحب في تسريح شعر الرأس: أن يُسرَّح باليد اليمنى، ويُبدَأ بترجيله من الجهة اليمنى للرأس؛ لأنه تجميل وتحسين؛ فلذلك ناسب معه استعمال اليمين، ولحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجُّلِه، وطُهوره، وفي شأنه كله)[٥].

أيها الأحباب الكرام، ومن الأحكام المشتركة بين الرجال والنساء المتعلقة بالشعر: ما يُطلب فعله به في الوضوء والغسل، والحج والعمرة، ودخول العشر الأُول من ذي الحجة على من يريد الأضحية.

فمن فروض الوضوء: مسح الرأس، وأكمله: مسح شعر الرأس باليد إقبالاً وإدباراً، ومن مستحبات الوضوء: تخليل اللحية غير الكثة، وأما الكثة فيكفي فيها مسحها مع غسل الوجه.

---

(١) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٢) رواه أبو داود، وهو صحيح.

(٣) رواه أحمد والثلاثة، وهو صحيح.

(٤) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢/ ٤٩٤)، فتح الباري، لابن حجر(١٠/ ٣٦٨).

(٥) متفق عليه.

ومن واجبات الاغتسال الواجب: التعميم بالماء حتى يصل الماء إلى أصول الشعر.

وعلى من أحرم بحج أو عمرة أن يمسك عن الأخذ من شعر جسده كله حتى يتحلل، فإذا تحلل وجب عليه أن يحلق شعر رأسه أو يقصر. إذا كان رجلاً، وأما المرأة المحرمة فإنها تقصر من شعر رأسها بقدر أنملة.

هذا في حق الحاج والمعتمر، ويشارك المقيمُ في وطنه الحاجَ في الإمساك عن الأخذ من شعر جسده كله إذا دخلت عليه العشر الأُول من ذي الحجة وأراد أن يضحي، حتى يذبح أضحيته.

أيها الإخوة الكرماء، ومن المستحبات مع الشعر: إزالة شعر الإبط، والعانة؛ لما في ذلك من النظافة، وانشراح النفس، والأفضل في شعر الإبط: النتف لمن قوي عليه؛ لأن النتف يُضعف إفراز الغدد العرقية والدهنية وأصول الشعر، كما قيل، والأفضل في شعر العانة: الحلق، فإن أزال شعر الإبط والعانة بأي مزيل من حلق أو تقصير أو نتف أو غير ذلك فجائز. قال رسول الله ﷺ: «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد- يعني: حلق العانة-، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب»(١).

والمستحب: أن لا يؤخر شعر الإبط والعانة أكثر من أربعين يومًا؛ لحديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (وقِّتَ لنا في قص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة: أن لا نترك أكثر من أربعين ليلة)(٢).

عباد الله، إن الإنسان يمرُّ بمراحل عمرية من الصغر إلى الكبر ضعيفًا ثم قويًا ثم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

يؤول إلى الضعف، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾[الروم:٥٤].

فمن علامات الكِبَر والضعف-غالبًا-: تحوّل الشعر أو بعضه إلى اللون الأبيض، فينتشر الشيب في الرأس، أو في اللحية والشارب، وعند ذلك يكره بعض الرجال أو النساء ظهور ذلك على شعورهم، فيقوم بعضهم بنتف الشعرات البيضاء، وبعضهم يصبغ شعره الأبيض باللون الأسود؛ هروبًا من إعلان الشيب على شعرهم بدء مرحلة الضعف، ورفع الراية البيضاء في ميدان الشباب.

ونتف الشيب، أو خضبه بالسواد فِعلانِ غير جائزين شرعًا؛ لكون ذلك فيه خداع وتدليس؛ فقد نهى عنهما رسول الله ﷺ. قال رسول الله ﷺ: «لا تنتفوا الشيب؛ فإنه ما من مسلم يشيب شيبة في الإسلام إلا كانت له نوراً يوم القيامة) وفي رواية: «كتب الله له بها حسنة، وحط عنه بها خطيئة»[١]. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أُتي بأبي قحافة يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة[٢] بياضًا، فقال رسول الله ﷺ: «غيِّروا هذا بشيء، واجتنبوا السواد»[٣].

ولكن يجوز أن يصبغ شعره بأي صبغ ما عدا الصبغ الأسود، فمما يصبغ به: الحناء والكتم، قال رسول الله ﷺ: «إن أحسن ما غُيِّر به هذا الشيب الحناء، والكتم»[٤].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وهو صحيح.

(٢) هو: "نبْت أبيضُ الزَّهْر والثمر يشَبَّه به الشَّيْب، وقيل: هي شجرة تَبْيَضُّ كأنها الثَّلْجُ"، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٦١٥).

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه الخمسة، وهو صحيح.

أيها المسلمون، إن مما يحرم على الرجال والنساء فعلُه في الشَّعر: وصل الشعر، وهو أن يصل الإنسان بشعره شعراً آخر لآدمي، سواء كان ذلك الشعر الآخر من شعره أم من شعر غيره، ومنه ما يسمى بالباروكة، وهذا الفعل قد تفعله بعض النساء أو الرجال من أجل التزين والتحسين، وإخفاء الشيب، وهذا الصنع فيه تغيير لخلق الله تعالى، وفيه كذب وخداع وتدليس؛ فلهذا كان هذا الفعل من الرجال والنساء كبيرة من كبائر الذنوب.

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمة والمستوشمة»(١)، وعن عائشة ﷺ: أن جارية من الأنصار تزوجت وأنها مرضت، فتمعّط شعرها -أي: تناثر- فأرادوا أن يصلوها فسألوا النبي ﷺ فقال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة»(٢)، والواصلة: من تقوم بالوصل لها أو لغيرها، والمستوصلة: من تطلب ذلك.

ولكن استثنى بعض العلماء من تحريم وصل الشعر: من خُلِق بلا شعر، ويكون ذلك معيبًا بين الناس، خاصة إذا كانت امرأة، وإن كان الأفضل تغطيته من غير لجوء إلى الوصل.

وأما ما يُعرف بعمليات زرع الشعر وهو: نقل بصيلات الشعر من منطقة إلى أخرى في رأس الشخص نفسه؛ فإن ذلك جائز؛ لأنه ليس من تغيير خلق الله تعالى، بل هو رد لما نقص، وإزالة للعيب، كما يقول بعض العلماء، والله أعلم.

ومما يحرم كذلك على الرجال والنساء في الشعر: أخذ شعر الحاجبين، إما بنتفه، أو

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

قصه، أو حلقه، أو تقصيره؛ لكي يصبح دقيقًا، وهذا الفعل يسمى: النمص، وهو تغيير لخلق الله تعالى الذي يأمر به الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾[النساء:١١٩]. وهذا الفعل كبيرة من الكبائر أيضًا، سواء فعلته الزوجة من أجل الزوج، أم لغير ذلك، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله) ما لي لا ألعن من لعنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله)(١).

ومن هنا ننبه النساء اللاتي يعملن في الكوافير فنقول: إنه لا يجوز للمرأة التي تعمل في هذه المهنة أن تقوم بما حرم الله تعالى فعله في الشعر وغيره؛ مثل وصل الشعر، ونمص الحاجبين، ونحو ذلك، مهما أعطيت من المال، فما عند الله خير وأبقى.

أيها الأحباب الفضلاء، ومن الأحكام المشتركة بين الرجال والنساء في أمر الشعر: أن شعر الساعدين، والصدر والبطن، والساقين، والفخذين مما سكت عنه الشارع فلم يأمر بأخذه، ولم ينهَ عن إزالته، فمن أبقى ذلك فله ذلك، ومن أزال تلك الشعور فلا حرج عليه ولا إثم.

ومن الأحكام أيضًا: أن الصواب في شعر الميت؛ كإبطه وشاربه وعانته، وكذلك أظافره: تركها بدون أخذ بحلق أو تقصير؛ لأن هذا لم يرد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنه جزء من الميت، وأجزاء الميت لا يجوز انتهاكها. وأما إذا كان الميت امرأة فإنه يستحب مشط شعر رأسها وضفره ثلاث ضفائر، وتُلقى خلف ظهرها، كما قالت أم عطية رضي الله عنها- حينما غسلت إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم عند وفاتها-: (وجعلنا رأسها ثلاثة

(١) متفق عليه.

قرون)، وفي رواية: (مشطناها)[١].

أيها الناس، أما الأحكام الشرعية الخاصة بشعر الرجل، فإن من تلك الأحكام: وجوب إعفاء لحيته، وقص شاربه؛ لما في إعفاء اللحية من الكمال، والفوائد الطبية، والاقتداء بالأنبياء والرسل ومنهم نبينا محمد ﷺ، فقد جاء من أوصاف رسول الله ﷺ: أنه (كان عظيم اللحية)؛ كما روى علي رضي الله عنه[٢]. وكذلك لما في قص الشارب من النظافة وحسن المنظر، والبعد عن التشبه بالكفار؛ كما قال رسول الله ﷺ: «جزوا الشوارب، وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس»[٣].

وقال ﷺ: «أحفوا الشوارب، وأعفوا اللحى»[٤] وفي رواية لمسلم كذلك: «وأوفوا اللحى»، وعند البخاري: «خالفوا المشركين: وفّروا اللحى، وأحفوا الشوارب».

عباد الله، يباح للرجل أن يحلق رأسه كله، أو يقصره، أو يطيله حتى يبلغ شحمة أذنيه، أو منكبيه، بشرط أن يكرمه، وأن لا يكون ذلك تقليداً لغير المسلمين، بل للنبي ﷺ؛ فقد كان شعر رسول الله ﷺ دون الجُمَّة وفوق الوفرة[٥].

وعن البراء رضي الله عنه قال: (ما رأيت من ذي لِمَّة أحسن في حلة حمراء من رسول الله ﷺ، شعره يضرب منكبيه بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير)[٦].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والبيهقي، وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٦) متفق عليه.

والجمة: ما بلغ من الشعر المَنْكِبين، والوفرة: إذا وَصَل إلى شَحْمَة الأذُن، واللِّمة: دون الجمة(١).

إن من الأشياء التي نهى عنها الشارع الحكيم -معشر المسلمين-: حلق بعض الرأس، وترك بعضه بدون حلق؛ كما يظهر على رؤوس بعض الأطفال والشبان، وهذا يسمى بالقَزَع، وهو فعل نهى عنه رسول الله ﷺ؛ لما فيه من تشويه الخلق، والتشبه بغير المسلمين. فقد روى عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى صبيًا قد حلق بعض شعره، وترك بعضه فنهاهم عن ذلك، كما روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ نهى عن القزع، وعند النسائي وأبي داود -بسند صحيح- أن رسول الله ﷺ قال: «احلقوه كله، أو اتركوه كله».

وهذا المظهر البادي على بعض الرؤوس وصل إلى بعض المسلمين نتيجة للهزيمة النفسية الآتية من اعتقاد أن غير المسلمين محل للاقتداء، حتى ظهرت في أيامنا في المجتمع المسلم قصات غريبة درج عليها بعض الشباب تقليداً لبعض الكافرين والفاسقين من اللاعبين والممثلين وغيرهم، منها ما هو على أشكال رؤوس حيوانات وطيور، ومنها ما هو حلق لجميع الرأس وإبقاء على موضع في الرأس؛ كالمقدمة أو الوسط أو المؤخرة بلا حلق!

ورسولنا ﷺ يقول: «ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تشبهوا باليهود، ولا بالنصارى»(٢).

فينبغي للمسلم أن يشعر بالعزة والاستقلال، وأن لا يكون مقلداً لأعداء الدين

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٨١٤) (٥/ ٤٦٤)، (٤/ ٥٥٦).

(٢) رواه الترمذي، وهو حسن.

والفضيلة.

وعلى أصحاب صالونات الحلاقة أن يجتنبوا فعل هذه القصات الغريبة الآتية من وراء البحار، إذا أرادوا السلامة من الإثم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدّر فهدى، والصلاة والسلام على النبي المجتبى وعلى آله وصحبه الأخيار الأوفياء.

أما بعد:

أيها المسلمون، أما الأحكام الشرعية الخاصة بشعر المرأة فهي من الأمور المهمة التي ينبغي معرفتها لسببين: الأول: جهل كثير من النساء بحكمها، والثاني: كثرة ما انتشر في عصرنا من مظاهر التجميل الشكلي للمرأة ومنه الشعر، وهذه أحداث تحتاج إلى معرفة الحكم الشرعي فيها.

فنقول: إن شعر رأس المرأة هو من زينتها الباطنة التي يجب سترها عن الرجال الأجانب، غير الزوج والمحارم، وهو موضع من مواضع جمال المرأة وحسنها؛ ولذلك فهي تُعنى به عناية كبيرة، وتبذل لأجله من المال والوقت شيئًا غير قليل. ولا غرو؛ فزينة الرجال اللحى، وزينة النساء الذوائب، كما قيل.

فيشرع للمرأة أن تكرم شعرها بالمباح من غير إسراف، وأن تضفره ضفائر، فإذا اغتسلت من الحدث الأكبر فعليها أن توصل الماء إلى أصول الشعر وهي منابتها على جلدة الرأس، ولا يشترط أن تفك ضفائر شعرها للغسل من الجنابة أو الحيض، على القول الراجح من أقوال أهل العلم، وإن كان الأولى فك ذلك في الغسل من الحيض؛ لطول الزمن.

ففي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إني امرأة أشد ضَفْرَ رأسي، فأنقضه لغسل الجنابة؟ قال: «لا، إنما يكفيك أن تحثي على رأسك ثلاث

حثيات، ثم تفيضين عليك الماء فتطهرين»، وفي رواية: فأنقضه للحيضة والجنابة؟ فقال: «لا».

ويشرع للمرأة أن تصفف شعرها وتمشطه وتجمعه في موضع من رأسها، لكن ورد النهي عن جمعه ليكون على شكل سنام بعير في الارتفاع والميلان، ويراه الناس؛ إذ كان ذلك من شعار البغايا، أما جمع شعرها ورفعه إلى أعلى بدون القيود السابقة فلا بأس به، والله أعلم. قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا»(١).

أيها الأحباب الفضلاء، إن من المظاهر غير المحمودة: سرعة سريان تشبه بعض المسلمات ببعض الكافرات أو الفاسقات في التعامل مع شعورهن، تسريحًا أو تقصيراً، أو تصفيفًا، أو شكلاً، حتى صار يعرف بين النساء أن هذه القصة قصة فلانة الفنانة أو الممثلة أو الإعلامية، والمرأة المسلمة لا يجوز لها أن تتشبه بأهل السوء؛ لأن رسول الله ﷺ يقول: «من تشبه بقوم فهو منهم»(٢).

ومما يباح للمرأة في شعرها: استعمال الوسائل المباحة غير الضارة في تطويل الشعر وتنعيمه أو تجعيده، أو تسريحه، أو تلوينه، فلها أن تفرده، وتميشه، وتصبغه بأي نوع من الأصباغ، إلا الصبغ الأسود؛ فإنه لا يجوز، كما تقدم. لكن ذلك العمل لشعرها مشروط بما لا يمنع وصول الماء إلى البشرة في حال طهارتها.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد والطبراني، وهو صحيح.

كما يباح للمرأة: أن تقصر من شعر رأسها إذا احتاجت لذلك؛ لمرض أو للبعد عن مشقة تسريحه وتنظيفه خاصة عند البرد، أو من أجل التزين لزوجها؛ فقد (كان أزواج النبي ﷺ -بعد موته ﷺ- يأخذن من رؤوسهن حتى تكون كالوفرة)[1].

لكن ذلك مشروط بما لا يكون المقصود به التشبه بالرجال أو بالنساء السيئات؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال»[2].

أما حلق شعر رأسها فإنه لا يجوز -على القول الراجح-؛ لما في ذلك من إذهاب بعض جمال المرأة، ومن التشبه بالرجال. إلا إذا دعت ضرورة للحلق كمرض ونحوه فلا بأس.

أيها المسلمون، وأما شعر وجه المرأة وهو شعر الحاجبين، ورموش العينين، والشعرات التي قد تظهر فيه كلحية أو شارب، فنقول: أما شعر الحاجبين فقد تقدم أنه لا يجوز لها نتفه، ولا حلقه ولا قصه، ومن فعلت ذلك فقد فعلت كبيرة من الكبائر.

وأما ما يسمى بالتشقير وهو صبغ الحاجبين بشيء ملون فيرى بعض العلماء المعاصرين جوازه ما لم يكن فيه تشبه ولا خداع للخاطب، ويرى آخرون المنع منه، ويلحقونه بالنمص، ولعل هذا أقرب للورع، والله أعلم.

وأما شعر جفونها (رموش عينيها) فلا يجوز نتفه ولا تقصيره ولا حلقه؛ لأن ذلك من النمص المنهي عنه، ويجوز صبغه بغير اللون الأسود، ما لم يمنع ذلك وصول الماء

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

إلى البشرة.

كما يحرم على المرأة تركيب الرموش الصناعية؛ لأن ذلك من وصل الشعر، وقد لعن رسول الله ﷺ الواصلات والمستوصلات؛ ولأن فيه كذبًا وخداعًا وكذبًا.

وأما لو ظهر على وجهها لحية أو شارب فعليها إزالته؛ لأنه خارج عن خِلقة المرأة، وهو من خصائص الرجال.

وما سوى هذه الشعور يجوز للمرأة إزالتها وهي شعر الساعدين، والفخذين والساقين، وكذا شعور الوجه غير الرموش والحاجبين، والله تعالى أعلى وأعلم.

هذا وصلوا وسلموا على القدوة المهداة...

القوة بين النقمة والنعمة(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأفضل الهدي هدي محمد رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

أيها الناس، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ ﴾[فصلت:١٥-١٦].

يذكر الله تعالى في هاتين الآيتين شيئًا من قصة عاد الذين طغوا في البلاد وأكثروا

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، ١٩/٨/١٤٣٦هـ، ٦/٥/٢٠١٥م.

فيها الفساد ما كان من مقالهم وما صار إليه مآلهم. هؤلاء القوم المجرمون الذين تكبروا على الخلق بما آتاهم الله من قوة الأجسام، وكثرةِ العدد، والقدرة على الغلبة على غيرهم من الناس.

هذه القدرة الجبارة التي أُتوها لم يشكروا الله تعالى عليها فيستعملوها في طاعته والاستجابة للحق الذي أمر به. فقد جاءهم نبي الله هود عليه السلام يدعوهم ليعبدوا الله وحده لا شريك له فقال: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[هود:٥٠-٥٤].

هكذا كانت دعوته الحسنة لهم، وهكذا كانت إجابتهم الخشنة له. لقد استمر هود في دعوته لهم صابراً على أذيتهم، باذلاً لهم نصحه ومُبديًا خوفه عليهم، فما ازدادوا إلا طغيانًا وكفراً وعناداً وبغيًا.

فجاءت سنةُ الله تعالى في عقوبة الظالمين الذين صارت هذه النعمة نقمة عليهم حينما لم يشكروها، فحقت عليهم الحاقة بعد إقامة الحجة عليهم وإمهالهم، فأرسل الله تعالى عليهم بعضَ جنوده ليذهب تلك القوةَ المتغطرسة المتجبرة وكأنها لم تكن.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾[فصلت:١٦].وقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا

فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾[الحاقة:٦-٨].

وهكذا تطوى صفحةُ الظالمين المتكبرين بقوتهم وقدرتهم عندما صرفوها في الجور والطغيان: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:٤٥]. فماذا أغنت عنهم قوتهم لما جاءهم بأسُ الله تعالى؟، وهل دفعت عنهم العقوبةَ والعذاب؟، وماذا أفادهم غرورهم بما يمتلكون من القوى؟! ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾[النازعات:٢٦].

أيها المسلمون، فهل من معتبر من الأقوياء المتجبرين؛ لكي يرجع عن غيه وتكبره بقوته الظالمة؟!

لقد ذكر الله عز وجل هذه القصةَ في السور المكية ليتلوها رسول الله ﷺ على كفار قريش الصادّين عن الإسلام المتباهين بمكانتهم وقوتهم؛ لعلها أن تستجيب لرسول الله ﷺ ولا تغترّ بما عندها من أسباب القوة.

عباد الله، إن أعداء الإسلام اليوم-في ظلّ ضعف المسلمين- طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد، واستكبروا بقوتهم في الأرض بغير الحق وقالوا بلسان مقالهم ولسان أفعالهم: من أشد منا قوة؟!

ومن منطلق هذا التعجرف والصلف تجبروا وطغوا وسعوا في تخريب بلاد المسلمين وإشعال الفتن بينهم، وتسويق مشروعات الصراعات والاضطرابات فيهم. إنهم ليسوا جاهلين بتاريخ سنن الله في الظالمين، فقد قرأوا ووصلت إليهم الأنباء فلم يرعووا عن غيهم، وبلَغتهم نصيحةُ الناصحين في عصرنا فلم يستجيبوا لها.

ألا فلينتظروا عقوبةَ الله تعالى عما قريب تحل بهم كما حلّت بمن قبلهم، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام:١٤٧].

فإن لم يستفيقوا من سكرة ما أُعطوا من القوى الحديثة التي سخروها في إهلاك الحرث والنسل فليعلموا أن قوة الله فوق قوتهم، وكيد الله فوق كيدهم، ومكر الله فوق مكرهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[الأنفال:٣٠]، وقال: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[الطارق:١٥-١٧]، وقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾[البقرة:١٦٥].

أيها المسلمون، إننا على يقين أن مصير المحاربين للإسلام والمسلمين-إذا لم يتوبوا- مصيرُ من قبلهم من الجبابرة كعاد وثمود، وفرعون والفرس والروم، والتتار، وغيرهم.

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٠].

ألا فليتفائل المظلوم، ويستبشر.المقهور بقوة من الله تذهب كل قوة ظالمة جائرة، هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولكن كثيراً من المظلومين يستعجلون.

عباد الله، إن الله تعالى إذا أنعم على عبده بنعمة القوة أحبّ أن يرى أثر نعمته في

استعمال العبد لها في الحق، فإذا بغى بها صارت وبالاً عليه في الدنيا والآخرة، فيتمنى حينما تنزل به العقوبة أنه استعملها فيما يرضي واهبها سبحانه وتعالى.

معشر المسلمين، القوة التي يهب الله عبادَه منها أنواع متعددة، فهناك القوة البدنية، وهناك القوة العلمية، وهناك القوة المالية، وهناك القوة العقلية، وهناك القوة الروحية، والقوة السلطوية، والقوة العددية، وغير ذلك.

وفي الدول: هناك القوة العسكرية، والقوة الاقتصادية، والقوة الصناعية، وغير ذلك.

وهذا القوى كلها ابتلاء من الله تعالى لعباده هل يشكرونها حتى يصرفوها في مرضاة الله تعالى، أو يجحدونها وينسبونها إلى أنفسهم، ويستعملونها في سخط الخالق سبحانه وتعالى؟

لقد وهِب فرعونُ قوةَ الجاه والسلطان، فمازال غرور القوة يطغيه حتى قال لقومه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[القصص:٣٨]، وقال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[النازعات:٢٤]، وقال: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[الزخرف:٥١]. فكانت النهاية: ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى ﴾[النازعات:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[الذاريات:٤٠].

وقارون الذي وهب قوةَ المال فتكبّر بها على الخلق وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾[القصص:٧٨].

فكانت النهاية: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[القصص:٨١-٨٣].

وهكذا كل ظالم بقوته، باغٍ بقدرته، غير شاكر لنعمته، ولا مقبل على ربه بتوبته، ستأتيه سُنَّة الأولين ويصير عبرة للآخرين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود:١٠٢].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله القوي الكريم، والصلاة والسلام على الرؤوف الرحيم، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد،

أيها الإخوة الفضلاء، ما أجملَ أن تكون القوة مسخَّرة في الحق، ومعينًا للضعفاء والمظلومين والمحتاجين، وما أحسنَ أن يكون صاحبها متواضعًا بها، شاكراً اللهَ عليها، معترفًا بأنها من عند الله تعالى وحده، لا من كسبه وقدرته واستحقاقه.

تلك قوةٌ أنعِمْ بها من قوة، ونعمةٌ أعظِم بها من نعمة، ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم.

عباد الله، لقد منَّ الله عز وجل على كليمه موسى عليه السلام بنعمة القوة البدنية، فاستغلّها في نصرة الحق وأهله، ودفعِ الباطل وذويه، فحينما وكزَ موسى القبطيَّ المعتدي على الإسرائيلي؛ إرادةَ دفع ظلمه وتأديبه، فأدّت الوكزة إلى قتلِ القبطي من غير عمد، عاهد كليمُ الله ربَه تعالى على أن لا يكون نصيراً للظالمين بقوته وبغيرها قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾[القصص: ١٥-١٧].

أيها المسلمون، وكما أنعم الله تعالى على موسى عليه السلام أنعم على رسوله سليمان عليه السلام، ولكن بنعمة الملك والسلطان والعلم والمال، وتسخير الجن في خدمته،

ومعرفته منطقَ الطير، فما دعته هذه القوى المتعددةُ العظيمة إلى الكبر والخيلاء، واستخدامها في الظلم والعصيان، وإنما سخرها في صلاح الدين وسياسة الدنيا به، فنفع وانتفع، وأُعطي الخير فأعطى، وأُنعم عليه فأنعم على عباد الله، ونطق لسانُه بالحمد والشكر، وجوارحه بالتواضع والاستخدام الصحيح لتلك النعم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾[النمل:١٥-١٦].

وتأملوا هنا تواضعَه وهو يرى السلطان العظيم الذي رُزقه، ونسبته تلك القوى والنعم إلى الله وحده لا إلى نفسه، معتبراً ذلك ابتلاء بالشكر أو الجحود، قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[النمل:١٨-١٩]. وقال-وهو يرى عرشَ ملكة سبأ بين يديه- كما قال تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل:٤٠].

أيها الأحبة الكرام، وعلى المنوال نفسه من التواضع والشكر والاستعمالِ الصحيح للنعمة كان الملك الصالح ذو القرنين، فقد أعطاه الله تعالى قوةَ الملك والسلطان فسخر ذلك في نصرة المظلومين ودفع الظالمين، قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾[الكهف:٨٣-٩٨].

عباد الله، وهكذا كان أمرُ رسول الله محمد ﷺ ، فقد دخل مكة منتصراً مؤيداً، فدخلها متواضعًا، ولم يدخلها متكبراً، فصار أمرُ قريش بيده فعفا وصفح وكان قادراً على استئصال شأفة المشركين وعقابهم على سالف أيامهم ضد الإسلام وأهله، ولكنه العفو عند المقدرة من القوي الكريم ﷺ، بل لقد علّم أصحابه كيف يصرفون القوة، وينزهونها عن الظلم والجبروت.

فقد جاء في صحيح مسلم عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه أنه قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط فسمعت صوتا من خلفي: «اعلم أبا مسعود»، فلم أفهم الصوت من الغضب قال: فلما دنا مني إذ هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود»، قال: فألقيت السوط من يدي فقال: «اعلم أبا مسعود، أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام» قال: فقلت لا أضرب مملوكًا بعده أبداً، وفي رواية:

فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله فقال: «أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار». هذا وصلوا وسلموا على النبي الكريم...

الطريق إلى مدين(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، ما أحسنَ إجالةَ النظر في بساتين العِبر، وألذَّ سماعَ الخبر من كتاب رب البشر، وأنفعَ دروس الحياة إذا استُقيت من كلام الله، فكم في القرآن الكريم من معانٍ عميقة تستكِّنُ في بطون ألفاظه، وتتهدل من نواصي جمله وأساليبه. والقصة القرآنية منبع غني يتدفق بتلك المعاني والفوائد لمن قرأ فتأمل. وفي هذا اليوم المبارك سنقف-بعون الله- وقفات تدبرية في ظلال قصة قرآنية، هذه القصة هي قصة موسى

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ٢٥/٣/١٤٣٦هـ، ١٦/١/٢٠١٥م.

عليه السلام في رحلة مدين.

فلقد بعث الله تعالى نبيه وكليمه موسى عليه السلام رسولاً إلى بني اسرائيل في زمان طغيان فرعون الذي تعدى على حق الخالق فقال لخاصة قومه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[القصص:٣٨].وقال لعامة شعبه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[النازعات:٢٤].وتعدى على حق الخلق من بني إسرائيل فجعلهم ﴿شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص:٤].

وكان فرعون قد أُخبر أن ذهاب ملكه سيكون على يدي فتى من بني إسرائيل؛ فكان لا يولد في بني إسرائيل مولود ذكر إلا ذبحه. ولقد أراد الله تعالى أن يتربى هذا الذي يذهب الملك على يديه في بيت فرعون يأكل من طعامه، ويمشي في بساطه، ويتربى في عزه وسلطانه! ولله الحكمة البالغة، ومع ذلك فقد حفظ الله موسى عليه السلام في بيت هذا الطاغية من كل سوء حسي ومعنوي.

فلما ولدت أم موسى موسى خافت عليه الذبح، غير أن الله تعالى قذف في قلبها الاطمئنان لتلقيه في اليمِّ ليصل إلى فرعون فتقول زوجته: ﴿قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[القصص:٩].

فبحث له فرعون عن المرضعات، فكانت مرضعته أمَّه، فأعاده الله إليها لترضعه بالأجرة، وتنال عز السلطان. ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾[القصص:١٢-١٣].

عباد الله، وبعد ذلك شبّ موسى في بيت فرعون، وفي يوم من الأيام رأى رجلاً من قومه بني إسرائيل يقاتل رجلاً من القبط قوم فرعون، فانتصر موسى للإسرائيلي

فدفع القبطي ومن قوة الدفع مات القبطي، من غير قصد لقتله.

فانتشر الخبر في المدينة فبدأت المؤامرة تحاك لقتل موسى، فنصحه رجل بالخروج من أرض مصر؛ حرصًا على سلامته من بطش فرعون وملئه، فخرج إلى مدين، فكانت له هذه القصة الشيقة التي سنعيش معها في هذه الكلمة بعون الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[القصص: ٢٠-٢٨].

أيها الأحبة الأفاضل، خرج موسى عليه السلام من مصر متجهًا إلى مدين جهة الشام، فوصل إلى مورد أهل مدين فوجد جمعًا كبيراً من الناس يسقون ماشيتهم، ونظر ناحية فرأى امرأتين معهما غنم لهما تنتظران انصراف الرجال لتسقيا غنمهما من غير مزاحمة للرجال. فدعت الرحمةُ موسى عليه السلام لسؤالهما عن سبب ابتعادهما عن السقي فأخبرتاه

بأنهما تنتظران فراغ المورد من الرجال، وليس لهما رجل يسقي لهما إلا أب لا يقوى على ذلك لشيخوخته، فسقى لهما موسى الغنم، ثم لجأ إلى الظل بعد إعياء السفر وجوعه فدعا الله تعالى أن يسخر له ما يذهب جوعه. وحينما عادت البنتان إلى أبيهما مبكرتين على خلاف العادة سألهما أبوهما عن ذلك فأخبرتاه بما جرى، فأراد ذلك الشيخ الصالح أن يكافئ موسى على جميله الذي أسداه لابنتيه، فأرسل إحدى بنتيه إلى موسى تستقدمه للإكرام فجاءته تمشي على حياء جم، وذهبت به إلى أبيها فلما وصل موسى إليه وجد الإكرام والأمان، فطلبت إحدى البنتين من أبيها أن يستأجره لرعي الأغنام لأمانته وقوته، فاختار والدها ما هو أكمل فعرض عليه أن يزوجه إحدى ابنتيه، على أن يكون المهر أن يرعى الغنم مدة ثماني سنين، وإن أراد الزيادة على ذلك سنتين فضلاً منه فعل، فوافق موسى على هذا العرض الكريم، وأقام مدة عشر سنين ثم رجع إلى مصر.

أيها المسلمون، إن من يتأمل في شخصيات هذه القصة القرآنية العظيمة وأعمال أهلها سيجد فيها عبراً وعظات نافعة يجدر بنا أن نقف عندها لنستقي من معينها ونتزود من فوائدها.

فمن العظات والعبر في أعمال موسى عليه السلام وأخلاقه: مشروعية الهجرة في سبيل الله من الأرض التي يخاف فيها المسلم على دينه ونفسه وعرضه، وهي في ذلك قد تكون واجبة، وقد تكون مستحبة، حسب الحال. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[النساء:١٠٠].وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس

من مغربها»(١). وفي هجرة رسول الله وأصحابه قدوة حسنة.

ومن العبر كذلك: أن على المسلم أن يبادر إلى صنع المعروف للناس، فيعين المحتاجين، ويفرج كربات المكروبين، ويفعل الخير ابتغاء وجه الله رب العالمين.

قال رسول الله ﷺ: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة: فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»(٢).

فكم لهذا الفعل الحسن من أثر نفسي وواقعي بين الناس، وزرعُ مثل هذا الخير في النفوس الكريمة خاصة ينبت سريعًا بإذن ربه فيكافَأ ذوو المعروف بالمعروف والجزاء من جنس العمل.

فموسى عليه السلام سقى للبنتين ابتغاء وجه الله تعالى فأثمر ذلك العمل الحسن في أنفس أهل هذا البيت الصالح الشكر عليه، فكان الشكر والمكافأة: الضيافة الكريمة، والأمن الوارف، والزوجة الصالحة، والعيش الحسن.

عباد الله، ومن عبر هذه القصة في شخصية موسى عليه السلام: بيان مروءة موسى، وعزة نفسه، وكمال رجولته حينما رأى لؤم أولئك الرعاة على المورد في عدم تقديم المرأتين في السقي، فقام هو بسقي غنمهما دون الرعاة.

واليوم قد يجد الإنسان بعض النساء في بعض الأمكنة لديهن معاملات أو حاجات لكنهن يعانين زحام الرجال، فمن المروءة والعمل الصالح: مساعدتهن

---

(١) رواه أحمد وأبو داود، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

وتقديمهن في مثل هذه الأحوال.

ومن العبر والدروس في شخصية موسى عليه السلام: ظهور عفته ونزاهته؛ فإنه سألهما عن سبب ترك السقي، ولم يتوسع بعد ذلك في كثرة الكلام معهما؛ لعدم الحاجة لذلك. ولا مانع في الشرع من كلام الرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل إذا كان ذلك لحاجة مشروعة من غير خضوع في القول وتحسين للخطاب؛ طلبًا للإعجاب وميل القلوب. ثم إن موسى عليه السلام عندما جاءته إحدى البنتين تطلب قدومه على أبيها قال لها: "كوني من ورائي، فإذا اختلفتْ علي الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها الطريق لأهتدي إليه". ففي هذا عبرة لكل مسلم أن يكون محافظًا على عورات المسلمين وحرماتهم، ساتراً لها، بعيداً عن تتبعها وإفسادها، وإن غاب عنه الرقيب، وسُتِر عن العيون.

أيها الأحبة الكرام، ومن الدروس المفيدة من شخصية موسى في هذه القصة: ظهور قوته ونفع الناس بها، والقوة النافعة من الصفات المحمودة في الرجال، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. والإسلام يأمر المسلمين أن يكونوا أقوياء في كل مجال تُحمد فيه القوة: أن يكونوا أقوياء إيمانيًا وبدنيًا، وعلميًا وماديًا وغير ذلك. وقد تحدثت إحدى البنتين عن قوة موسى حينما سألها أبوها -لما أشارت إلى استئجاره لرعي الأغنام- فقال لها أبوها: "وما علمك بقوته وأمانته؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت عليه، فقال: كوني من ورائي...".

ومن العبر كذلك: البعد عن سؤال الناس، واللجوءُ إلى الله والافتقار بين يديه وحده. فموسى في ذلك الوقت كان يعاني مشقة السفر، وألم الجوع، ومع ذلك لم يمد يده ولا لسانه إلى الناس للاستعطاء والاستطعام، بل إنه ساعد البنتين ولم يطلب منهما

طعامًا جزاء سقيه لهما. وإنما لجأ إلى الله تعالى وعرض عليه حاله فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: محتاج إلى طعام؛ لشدة الجوع، ومن استغنى بالله أغناه الله، ومن عرض حوائجه على الله وحده ووثق به وأيقن بفرجه كفاه الله اللجوء إلى الخلق.

معشر المسلمين، ومن العبر أيضًا: الحرص على العمل الذي يكسب منه المسلم ما يعينه على الزواج وتكوين الأسرة الصالحة، فموسى عمِلَ عشرَ سنوات متصلة من أجل عفة فرجه، وهذه المدة وإن كانت طويلة لكنها حينما كانت من أجل العفة وتحصين الفرج فهي شيء يسير، والحاجة إلى النكاح قد تكون كالحاجة إلى الطعام والشراب. وكذلك من عموم هذا الدرس البليغ: الحرص على السعي في طلب الرزق في الأعمال الدنيوية المباحة؛ فموسى وغيره من الأنبياء قد عملوا وسعوا في مناكب الأرض.

قال النبي ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(١).

ثم إن لله تعالى حكمة في تقدير هذه المدة، لعل منها: أن ينقطع البحث الفرعوني، وأن يتطرق إلى خبر موسى التناسي، وتخبو عنه نار الحقد القبطي.

ومن العبر كذلك: الحرص على إتقان العمل، والوفاء بالعهود والشروط وعقود الأعمال؛ فإن موسى عليه السلام قد اتفق مع صاحب مدين على أن يكون راعيًا لأغنامه؛ مهراً لابنته، فأدى موسى هذا العمل على تمامه، بل زاد سنتين على الثمان تفضلاً

---

(١) رواه البخاري.

واختياراً لأكمل الأمرين. ففي هذا عبرة لكل عامل وموظف في أن يكون متقنًا لعمله، قائماً بحق عمله من غير خيانة ولا خداع.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(١).

أيها المسلمون، ومن شخصيات هذه القصة: شخصية بنتي شيخ مدين. إن هاتين البنتين الكريمتين قد ظهر عليهما أريج الأخلاق الحسنة، وعبير الأعمال الكريمة، لتكشف ما كان عليهما من سبوغ جلباب الفضائل، وسمات النساء الكوامل، فمن العبر من شخصيتهما: ما كان عليهما من الحياء السابغ الذي عبّر عنه: بُعدُهما عن مزاحمة الرجال في المورد، وتأخرهما حتى ينصرفوا، فيخلو المكان لهما من غير احتكاك بالرعاة. وهذه سمة كريمة ما أحوجَ بعض نساء اليوم إليها، إذ يشاهد المشاهد في عصرنا جرأة بعض النساء في أماكن الزحام وهن يُصدِّعن صفوف الرجال كتصديع الشجعان الصفوف في القتال! حتى صار بعض الرجال يخاف على نفسه منهن أكثر من خوفهن على أنفسهن!

ومن مظاهر الحياء لدى البنتين: أن إحداهما لما جاءت تدعو موسى للمكافأة جاءته والحياء يحيط بها من كل جانب ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾[القصص:٢٥]، قال عمر رضي الله عنه -عن هذه البنت-: "إنها ليست بسلفع من النساء-جريئة- خرّاجة ولاّجة، ولكن جاءت مستترة، وضعت كُم درعها على وجهها استحياء". وهذا الخلق المضيء يباين ما عليه بعض النساء اللاتي قد يمشين في الشوارع مِشية متكسِّرة جريئة يُرِدن بذلك سرقة الأنظار إليهن وحبسها عليهن.

إن الحياء-عباد الله-من أعظم الأخلاق التي تصلح المجتمع، فإذا حُمد من

(١) رواه البيهقي، وهو حسن.

الرجال فهو من النساء أحمد؛ لأنه يصونهن ويحفظهن عن الريب والعدوان، وهو عنوان جمالهن وكمالهن، قال الشاعر:

فجمالُ الرجالِ عقلٌ رجيحٌ والغواني جمالُهن الحياءُ

وبقدر هذا الخلق الكريم أيضًا تُعرف بقية أخلاق المرأة، وبه كذلك تعرف استقامة المجتمع رجاله ونسائه.

ومن العبر في شخصية هاتين البنتين: برهما بأبيهما، والسعي في مساعدته، وتخفيف العناء عنه، وهذا من الأعمال الطيبة التي ينبغي أن تتوافر في البنات، فيكن من أهل البر بالوالدين، ويفعلن ما يرضيهما بالمعروف.

ومن العبر أيضًا: دقة فراسة تلك البنت التي أشارت على أبيها باستئجار موسى عليه السلام حينما تأملت أمانته التي سيأمنون على أنفسهم لوجودها في راعي غنمهم، وفي قوته التي ستعينهم في صلاح أمرهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "أفرس الناس ثلاثة: العزيز في يوسف حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾[يوسف:٢١]، وبنت صاحب مدين حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ وأبو بكر حين استخلف عمر".

بارك الله لي ولكم بالقرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قلت ما سمعتم وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

أيها المسلمون، والشخصية الأخيرة في هذه القصة هي شخصية أبي البنتين، ذلك الرجل الكريم الذي ظهرت عليه صفات الصلاح والخير والكرم. هذا الشيخ المديني يذكر بعض المفسرين والمؤرخين عنه أنه نبي الله شعيب عليه السلام، ولكن ليس هناك دليل صريح يدل على أنه هو، ويستدل بعض من يقول: إنه ليس إياه، بل هو شيخ صالح: بأن زمن موسى غير زمن شعيب، وبأنه لو كان شعيبًا لصرح الله باسمه دون وصفه، والله أعلم.

أما العبر والدروس من أخلاق هذه الشخصية الكريمة وعملها، فمنها: بيان كرم هذا الرجل الصالح وحسن شمائله حيث أكرم موسى عليه السلام وكافأه على فعل الخير لبنتيه، والإنسان الكريم إذا أحسن إليه كافأ المحسن على إحسانه، وقد أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فقال: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»(١).

ومن العبر في خبر هذه الشخصية: أن الله تعالى يهيئ لعباده الصالحين من يقضي حوائجهم، ويعينهم في إصلاح أحوالهم، فقد هيأ الله لصاحب مدين موسى ليسقي له الغنم، وهيأ لموسى صاحب مدين ليجد عنده الملاذ الآمن والعيش الصالح.

عباد الله، ومن الدروس كذلك: بيان حرص الأب على بناته؛ فقد سأل هذا الشيخ بنتيه عن شأنهما حينما تقدما في المجيء ومن عادتهما التأخر؛ سألهما خشية أن

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان، وهو صحيح.

يكونا قد زاحما الرعاة أو حصل شيء آخر. وهذا فيه درس نافع للآباء والأمهات في تتبع أخبار الأبناء والبنات ومتابعة أحوالهم، وأن لا يتركوا دون سؤال لكن من غير إفراط يفضي إلى نتائج عكسية.

ومن العبر كذلك: أن موسى عليه السلام عندما جاء هذا الرجل خائفًا طمأنه وأمّنه وشهد على أعدائه: فرعون وملئه بالظلم. فمن هذا يستحب للمسلم إذا جاءه مظلوم خائف أن يؤمنه ويسعى لإزالة خوفه ما استطاع؛ فإن ذلك من جلائل الأعمال، خاصة في هذا العصر الذي نرى فيه كثرة النازحين من ظلم الظالمين.

ومن الدروس كذلك: مشروعية عرض الرجل ابنته على من يتوسم فيه الصلاح في دينه ودنياه، وأن ذلك لا يعد عيبًا ولا منقصة، بل هو مدح وكمال وخير يقدمه الأب لبناته؛ فقد فعله خيار عباد الله، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد شهد بدراً توفي بالمدينة، قال عمر: فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبث ليالي فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا. قال عمر: فلقيت أبا بكر فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إلي شيئًا فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع إليك؟ قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو تركها لقبلتها)[1].

(١) رواه البخاري.

ومن الدروس كذلك -أيها الأفاضل-: أن الله تعالى أوجب على الرجل المهر للمرأة بالزواج وهو حقها صِرفًا، إلا إذا تبرعت به بإرادتها لأبيها أو لغيره. فصاحب مدين رغب في أن يصاهر موسى على أن يكون مهر ابنته هو رعي الغنم مدة ثماني سنين، غير أن هذا المهر في هذه الجهة -كما يقول بعض العلماء- كان في شرع من قبلنا بأنه لا يشترط أن يكون للمرأة. وأجاب بعض العلماء بجواز أن يكون المهر منفعة تقدّمُ للزوجة ولا يشترط أن يكون شيئًا حسيًا، والله أعلم.

ومن الدروس أيضًا في شخصية هذا الشيخ الكريم: حسن التعامل مع العمّال والمستأجَرين، فتكليف العامل أو الموظف ما لا يشق عليه خلق حسن، وقربة صالحة؛ ولهذا فإن صاحب مدين قال لموسى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ فما أحوجَ أصحاب الشركات والأعمال إلى تمثّل هذا الخلق الرائع مع الموظفين والعمال.

فيا أيها المسلمون، هذه بعض الوقفات المهمة وقفناها في رياض هذه القصة القرآنية العظيمة، فلعلنا أن نستفيد منها في حياتنا، ولتكون كذلك نبراسًا لنا في تدبر القرآن وأخذ الدروس والعبر من قصصه وأخباره وأحكامه.

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير، والسراج المنير....

نعمة المطر[1]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسول الله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن نعم الله تعالى تتواتر على عباده في كل حين، ولكن القليل منهم من يشكرها، والكثير من يجحدها أو يغفل أو يتغافل عن شكرها، وقد لا يذكرونها إلا حينما تُولِّي عنهم، فالموجود منسي، والمفقود مذكور، كما قيل.

فبعد أن كان الشتاء جاثمًا على الصدور بجفافه وقسوته وعبوسه أطلّ علينا الصيف بروائه وجماله وإشراقه، فقد انتظر الصيفَ منتظرون في هذه المناطق الجبلية؛

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، في ٢٦/٧/١٤٣٧هـ، ٢٢/٤/٢٠١٦م.

لطيب الأحوال فيه؛ بحسن هوائه، وجمال منظر الحياة بحلوله، حينما يكسو السماء صفاء وبهاء، والأرض اخضراراً ورُواء، فتبتهج النفوس، وتنفسح الصدور، وتخصب العقول، وتستنير العيون. فلله الحمد والشكر على هذه النعمة.

أيها المسلمون، إن من نعم الله الجليلة في هذا الفصل: فصل الصيف: هطولَ الأمطار، وانصباب الغيث المدرار، الذي يرحم الله به العباد والبلاد والشجر والدواب.

فتبتسم الأرض ببكاء السماء، وتسعد بهذه النعمة بعد شقاء الشتاء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[الحج:٦٣].

إن المطر نعمة عظيمة من نعم الله الكثيرة، تنتج عن هذه النعمة نعمٌ أخرى تصلح بها الحياة الدنيا، مما يوجب ذلك توحيد الله تعالى وعبادته؛ شكراً لله تعالى.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢١-٢٢].

وهذه النعمة ليس للإنسان يدٌ في حصولها، بل هي محض تفضل من الرب الكريم، ولو شاء الله تعالى لجعل الماء مالحًا غير صالح للحياة، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾[الواقعة:٦٨-٧٠].

والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم مع كثرة ذنوبهم التي هي

سبب لحجب هذه الرحمة عنهم، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾[الفرقان:٤٨]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[الشورى:٢٨]، وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[الأعراف:٩٦].

عباد الله، إن الله تعالى قد وصف هذه النعمة في كتابه: بالبركة والطهارة والحياة؛ لحصول ذلك في واقع الخلق، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾[ق:٩]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الفرقان:٤٨-٥٠]، وقال: ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾[النحل:٦٥]، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنبياء:٣٠].

أيها الأحبة الكرام، إن الله تعالى بلطفه ورحمته قد أنزل هذه النعمة على عباده ما استقاموا على طاعته بقدر حاجتهم، فلم يجعلها تعالى دائمة الهطول فتفسد عليهم حياتهم، بل إنه تعالى جعل لها مخزنًا تخزن فيه إلى وقت الحاجة وهو باطن الأرض لتستخرج وقت العوز إليها، وذلك حينما تزيد على حاجة الإنسان. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[المؤمنون:١٨-١٩]، وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي

الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾[الزمر:٢١].

أيها الفضلاء، إن هذه النعمة تستحق منا التأمل والنظر المتدبر في أسبابها وآثارها ونزولها وما يحتف بها من آيات الله تعالى؛ حتى يعظم شكرنا لله تعالى عليها، ويزداد إيماننا به عز وجل حتى لا يحرمنا هذه النعمة؛ ولهذا أمر الله تعالى بهذه العبادة وهي عبادة النظر والتأمل إلى هذه النعمة وآثارها فقال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾[عبس:٢٤-٣٢].

لو فكّر الإنسان-أيها الأحبة- في انقطاع هذه النعمة عنه هل سيعيش بدونها، وهل سيدوم بقاؤه بفقدها؟ قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾[الملك:٣٠].فلا حياة في الدنيا إلا بهذه النعمة.

عباد الله، إن المطر آية من آيات الله تعالى التي تدل على قدرته العظيمة التي لا حدّ لها، فمن الذي يستطيع أن يغيث الناس بالمطر فيذهب ظمأهم، ويلطّف الجو الشديد الحرارة الذي يَصليهم؟ لا أحد سوى الله جلّ جلاله، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾[الواقعة:٦٨-٧٠].

وحينما ينزل الغيث على الأرض القاحلة الممحلة فيحييها بالنبات والمنظر المشرق، فتصير حية بعد موتها يكون ذلك آية على قدرة الله على إحياء الموتى، فهو آية صغرى تدل على آية كبرى، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا

الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فصلت:٣٩].

وهو دليل على عجز الإنسان وحاجته التي لا يجبرها إلا الله تعالى، فلا ساقيَ للناس ولا مغيث لهم من شبح الجدب إلا الله، قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾[الحجر:٢٢].يعني: ليست خزائنه عندكم، بل الله هو الخازن له ينزله متى يشاء(١).

والمطر ذكرى تذكِّر من سُقُوا بالشكر، وتذكر من مُنِعوها بالتوبة ليستحقوها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾[الإسراء:٨٩].

فيا أيها الناس، شكراً لله شكراً على هذه النعمة، فاللهم لك الحمد على هذه النعمة الجزيلة، ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم:٧].

وتذكروا -معشر المسلمين- بهذه الرحمة رحمةَ الله تعالى بنا إذ أغاثنا مع كثرة معاصينا، ولو سُقينا بقدر أعمالنا لما سُقينا، ولكننا قد نُرحم بغيرنا، قال رسول الله ﷺ: «ولولا البهائم لم يمطروا»(٢).

وتفكروا في حصول هذه الآية: كم فيها من عظات وعبر، وبراهين وحجج على فضل الله وكرمه وغناه ورزقه، وقدرته ورحمته، وجود وحياته؛ حتى نعبده ونطيعه، ونصرف حياتنا في مرضاته، ونبتعد عن كل ما يغضبه ويوجب سخطه علينا، إن في

---

(١) أضواء البيان (٢/ ٢٧٣).

(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي والحاكم، وهو صحيح.

ذلك لآية لأولي الألباب.

أيها المسلمون، هناك آداب شرعت للمسلم في نعمة المطر، فمنها: قول: "مطرنا بفضل الله ورحمته"، فعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»(١).

ومن الآداب: التعرض للمطر عند نزوله ليصيب بدن الإنسان منه شيء، فعن أنس رضي الله عنه قال: أصابنا ونحن مع رسول الله ﷺ مطر، فحسر رسول الله ﷺ ثوبه حتى أصابه من المطر، فقلنا: يا رسول الله، لم صنعت هذا؟ قال: «لأنه حديث عهد بربه تعالى»(٢).

ومن الآداب: قول: "اللّهم صيّبًا نافعًا"، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا رأى المطر قال: «اللّهم صيّبًا نافعًا»(٣).

ومن الآداب: قول: "رحمة"، فعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم عرف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرَّ به، وذهب عنه ذلك، قالت عائشة: فسألته، فقال: «إني خشيت أن يكون عذابًا سلط على

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

أمتي، ويقول إذا رأى المطر: رحمة»(١).

ومن الآداب: أنه إذا سُمع صوتُ الرعد والصواعق أن يقال: (اللّٰهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك)(٢).

ومن الآداب: استحباب الدعاء عند نزول المطر؛ فإن ذلك من مواطن الإجابة، قال رسول الله ﷺ: «ثنتان ما تردان: الدعاء عند النداء، وتحت المطر»(٣). قال الشافعي: "وقد حفظت عن غير واحد طلبَ الإجابة عند نزول الغيث، وإقامة الصلاة".

ومن الآداب: أنه إذا كثر المطر وخيف ضرره أن يقال: (اللّٰهم حوالينا ولا علينا، اللّٰهم على الآكام والظراب، وبطون الأودية، ومنابت الشجر)(٤).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي والنسائي، وهو حسن.

(٣) رواه الحاكم، وهو حسن.

(٤) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه أهل الخير والوفاء، أما بعد:

أيها المسلمون، إن هذا الدين العظيم يرافق المسلمَ في كل أحواله، ففي كل حال في الدنيا له حديث يبين ما يجوز وما لا يجوز؛ حتى يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة.

ففي المطر أحوال تحتاج لمعرفة حكم الشريعة فيها، فمن ذلك: أن المطر الغزير قد يسبب إعاقة ذهاب المصلين إلى المساجد ورجوعهم إلى بيوتهم ورحالهم؛ فلهذا شُرع لرواد المساجد الجمع بين صلاتي المغرب والعشاء، وبين صلاتي الظهر والعصر. ما دام أن هناك دحضًا وزلقًا أو انصبابًا ومشقة.

أما إذا لم تكن هناك مشقة كأن يكون المطر خفيفًا والأرض صالحة للمشي. بلا أذى فالأصل: أن كل صلاة تُصلى في وقتها؛ لقوله تعالى:﴿ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾[النساء:١٠٣].

ولهذا فإن الجمع خاص بالمساجد، أما الأماكن التي لا يحصل فيها مشقة بنزول المطر فإنه لا يجوز الجمع فيها، مثل: البيوت، والمساجد الموجودة داخل الشركات والمصانع ونحوها؛ لأن المشقة غير موجودة.

ومن الأحكام المهمة: أنه لا يجوز الجمع بين صلاتي الجمعة والعصر. أثناء المطر، وكذا أثناء السفر إذا صلى المسافر الجمعة.

لأن رسول الله ﷺ كان ينزل عليه المطر يوم الجمعة وهو يخطب -كما في حديث

أنس رضي الله عنه في الصحيحين- فلم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم أنه جمع بين الجمعة والعصر.

ثم إن بين الجمعة والعصر فروقًا متباينة كثيرة تمنع من الجمع بينهما.

ومن الأحكام الفقهية: أن مياه الشوارع المصحوبة بطين والتي قد تصيب الثياب أثناء المطر أو بعده ليست نجسة؛ لأن الأصل: الطهارة، إلا إذا تيقن المسلم أن ماء المطر كاثره ماءٌ متنجس كمياه المجاري فظهرت علامات ذلك بلون أو ريح فالحكم عند ذلك بالنجاسة لهذا السبب.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

أحكامُ عِدِدِ النّساء(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق القول كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها المسلمون، ما أحسن أن يكون المسلم ذا معرفة بدينه، ودراية بشريعة ربه، فيعلم الحلال والحرام والمباحات والمحظورات في أبواب العبادات، وفي أبواب المعاملات؛ حتى يعبد الله تعالى على علم وبصيرة، ويسلك طريق الحق على نور وهداية، قال النبي ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه»(٢).

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٢٣/جمادى الآخرة/١٤٣٦ه، ١/٤/٢٠١٦م.

(٢) متفق عليه.

ألا وإن من أعظم مجالات الحياة التي تحتاج إلى تعلم أحكامها، ومعرفة شرع الله فيها: مجالَ الحياة الزوجية؛ لما لها من آثار كبيرة على الحياتين: الدينية والدنيوية، على الزوجين، وعلى الأولاد، وعلى الأسرة وعلى المجتمع؛ ولذلك ضبطتها الشريعة الإسلامية بأحكام وآداب منذ عقدها إلى حلها بالفرقة أو الموت.

إن هذه الرابطة الوثيقة قد تتعرض إلى انفصام عراها بطلاق الزوج أو موته، أو غيابه مدة طويلة لا يدرى فيها أهو حي أم ميت، أو باختلاع المرأة أو فسخها لرابطة الزوجية، وحينما يحصل هذا الانفصام تنتج عنه أحكام وآداب في الإسلام، من أهمها: عدة المرأة عقب الفراق الاختياري أو غير الاختياري، فكان لابد من تبيين هذا الحكم الشرعي العظيم؛ لما يترتب عليه من أحكام شرعية أخرى، ولعموم الحاجة إلى معرفته في الحياة الزوجية، ولجهل بعض الناس بعضَ مسائله المهمة.

عباد الله، إن العدة معناها: مدة واجبة حددها الشارع الحكيم عقب الفراق الزوجي، تبقى فيها المرأة بدون زواج حتى تنقضي. تلك المدة، وقد شرع الإسلام هذا الحكم الشرعي للمرأة لحكم كثيرة، منها: معرفة براءة رحمها؛ حفظًا للأنساب، ومنعًا من اختلاط المياه، ومراعاة لمشاعرها بفراق زوجها، وإظهار عظم التفجع بحل هذه الرابطة المقدسة، وغير ذلك من الحِكم.

ويجب على المرأة أن تمكث هذه المدة التي وجبت عليها بقدرها المحدد شرعًا؛ طاعة لله تعالى، فإن لم تفعل فقد خالفت ما أمرها الله تعالى به، وترتب على المخالفة بطلان بعض الأحكام كالزواج أثناء العدة.

أيها المسلمون، إن عدة المرأة التي أوجبها الشرع عليها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: عدة بالأقراء، وهي جمع قُرْء، والمراد بالقرء: الحيض، على القول الرَّاجِح من قولي

العلماء، قال ابن القيم في كتابه " زاد المعاد": " لفظ القُرْء لم يستعمل في كلام الشَّارع إلا للحيض، ولم يَجِئ عنه في موضع واحد استعمالُه للطُّهْر "، والقسم الثاني: عدة بالأشهر، والقسم الثالث: عدة بوضع الحمل لمن كانت حاملاً.

وتحت القسمين الأولينِ أنواع من العِدد.

فممن تعتد بالأقراء: المطلقة-إن لم تكن حاملاً-، فإذا طلقت المرأة طلاقًا رجعيًا، أو طلاقًا بائنًا فإن عدتها ثلاث حيض كاملة تتمهن حتى تخرج بذلك من العدة، قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾[البقرة:٢٢٨].

ومن حكم إيجاب العدة على المطلقة البائن: معرفة خلو الرحم من الحمل، ومن حكم العدة على المطلقة رجعيًا: إعطاء فرصة زمنية للزوجين للمراجعة بعد أن تذهب عنهما ثورة الغضب، ويحصل التفكير العميق بعواقب الفراق، ومصالح عودة الزوجية.

فإذا طلقت المرأة وهي حائض-على القول بوقوع الطلاق أثناء الحيض- فإن بقية تلك الحيضة لا تحسب من العدة، بل تستأنف المطلقة ثلاث حيض بعدها، وإن طلقها في حال طهرها فتنقضي عدتها بثلاث حيض آتية.

ومن المسائل المهمة في معرفة العدة: أن من طلق زوجته ولم تعلم بالطلاق إلا بعد مدة فإن عدتها تبدأ من تاريخ إيقاع الطلاق، وليس من تاريخ وصول الخبر إليها بذلك.

أيها الأحبة الكرام، إذا حصل الطلاق وبدأت المرأة بالعدة فإن هناك آدابًا وأحكامًا أثناء العدة فمنها:

أولاً: تحريم الزواج، فلا يجوز نكاح المعتدة حتى تنقضي عدتها؛ لقوله تعالى:﴿وَلا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾[البقرة:٢٣٥].

ثانيًا: يحرم التصريح بالخطبة لجميع المعتدات: من وفاة أو طلاق، أما التعريض بالخطبة -وهو الكلام الذي تفهم منه الرغبة في نكاح المعتدة من غير تصريح كأن يقول: عندي رغبة في الزواج ولعل الله أن يهيئ لي امرأة صالحة – فالتعريض بالخطبة يحرم إن كان الطلاق رجعيًا؛ إذ قد تكذب المرأة في ادعاء انقضاء عدتها رغبة في الخاطب، كما أن فيه تفويتًا لمراجعة الزوج المطلّق وهو أحق من غيره بردها، قال تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾[البقرة:٢٢٨].

فإن عقد عليها الخاطب الجديد في العدة فالنكاح باطل، ويلزم أن يفرق بينهما بدون طلاق؛ لأن النكاح باطل، فإذا اعتدت فهو خاطب من الخطاب. وإن كان الطلاق بائنًا فيجوز التعريض بالخطبة أثناء العدة على قول الجمهور، كما أنه يجوز التعريض بالخطبة للمتوفى عنها زوجها بالاتفاق؛ لانتهاء عقد الزوجية بالوفاة، قال تعالى: ﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾[البقرة:٢٣٥].

قال ابن كثير رحمه الله في التعريض: " يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات. فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: «فإذا حللت فآذنيني، فلما حلت خطب عليها

أسامة بن زيد مولاه، فزوجها إياه»، فأما المطلقة الرجعية: فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم"(١).

ثالثًا: يجب على المعتدة أن تكون صادقة في انتهاء عدتها، وبيان ما في رحمها من حيض أو جنين، وهذا من الإيمان بالله واليوم الآخر، فلا تقل: إن عدتها قد انتهت ولم تنته بعد؛ حرصًا منها على الزواج، ولا يجوز لها أن تخفي حملها ولا أن تجهضه إن كان حمل، قال تعالى:﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[البقرة:٢٢٨].

رابعًا: على المعتدة من طلاق رجعي لزوم بيت زوجها حتى تنتهي عدتها؛ ليكون ذلك أدعى للمراجعة وإصلاح ذات بينهما، ولها أن تكلمه وتتزين له، وتظهر أمامه؛ لأنه مازال زوجها؛ لقوله تعالى: ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾[الطلاق:١].

على خلاف ما يحصل اليوم من ذهاب النساء إلى بيوت أهلهن في الطلاق الرجعي.

خامسًا: على المطلقة -رجعيًا أو بائنًا- لزوم بيت العدة، ولكن يجوز لها الخروج من المنزل نهاراً لقضاء حوائجها، فعن جابر ﷺ قال: طُلِقتْ خالتي، فأرادت أن تجدَّ نخلها فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي ﷺ، فقال: «بلى، جدَّي نخلك؛ فإنك

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٣٩).

عسى أن تصدَّقي، أو تفعلي معروفاً»(١).

سادسًا: ليس على المطلقة -رجعيًا أو بائنًا- إحداد كالمتوفى عنها زوجها، بل يجوز لها أن تتجمل، وتلبس ما شاءت من اللباس المباح.

وهذه الأحكام والآداب تتعلق بالمرأة إذا طلقت بعد الدخول بها، أما إذا عقد عليها رجل ثم طلقها قبل أن يدخل بها فلا عدة عليها؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[الأحزاب:٤٩].

عباد الله، وممن تعتد بالأقراء: المرأة التي خالعت زوجها. فقد تضيق الحياة الزوجية على زوجة ما في عصمة رجل لا تحبه، أو لا يؤدي إليها حقوقها المشروعة، فيسيء عشرتها، ويأبى طلاقها، فجعل الله لها مخرجًا تخرج به من جحيم هذه الحياة، ألا وهو الخلع الذي معناه: مفارقة الزوجة لزوجها على عوض تدفعه له، سواء كان هذا العوض مثل مهرها، أم أكثر أم أقل، قال تعالى: ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾[البقرة:٢٢٩].فإذا حصل الخلع بأي لفظ يدل على الفراق اعتدت المرأة بحيضة واحدة على الراجح؛ بدليل حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت منه، فجعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدتها حيضة)(٢). فإذا حاضت بعد الخُلع ثم طهرت فقد انقضت عدّتها، وحلّ لها الزواج، كما يحل لزوجها كذلك أن يتزوجها بعقد جديد ولو في أثناء العدة برضاها، وترجع إليه بما تبقى من الطلاق إن

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أبو داود والنسائي، وهو صحيح.

كان هناك طلاق، ولا يحسب الخلع من الطلاق، بل هو فسخ على القول الراجح، وعلى من يكتب ورقة الخلع أن لا يقول: طلق زوجته على عوض قدره كذا وكذا، بل يقول: خالع زوجته، كما قال ذلك بعض العلماء.

معشر المسلمين، وممن تعتد بالأقراء: المرأة الموطوءة بشبهة، كأن تزفَّ إليه امرأة غير زوجته فواقعها ولم يدرِ أنها غير زوجته، فيجب عليها حينئذ أن تعتد ثلاثة قروء؛ كيلا تختلط الأنساب. أما المرأة المزني بها برضاها أو باغتصابها فقد ورد عن أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم أنهم قالوا: لا عدة عليها ولا استبراء، إلا إذا كانت حاملاً فبوضع الحمل، ولا يصح العقد عليها حتى تضع حملها.

وممن تعتد بالأقراء كذلك: المرأة غير المسلمة من أهل ذمة إذا طلقها زوجها المسلم فإنها تعتد كما تعتد المسلمة بثلاثة قروء؛ لعموم الأدلة الآمرة بالعدة؛ لأن العدة تجب حقاً لله تعالى، ولحقِّ الزوج.

أيها المسلمون، وأما القسم الثاني من أقسام المعتدات فهن اللاتي تكون عدتهن بالأشهر، فممن تعتد بالأشهر عند الطلاق: المرأة الآيسة، وهي التي انقطع عنها الحيض لكبر سنها، والمرأة الصغيرة، وهي التي لم تر الحيض وهي مطيقة للوطء؛ فالآيسة والصغيرة متى طلقتا فإن كل واحدة منهما تعتد ثلاثة أشهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾[الطلاق:٤].

وممن تعتد بالأشهر كذلك: المرأة المتوفى عنها زوجها وليست من ذوات الحمل، وقد كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها أقامت في مكان سيء، ولبست شر ثيابها، ولا تقرب ماء ولا زينة، وتمنع من الزواج كل ذلك سنة كاملة، فلما جاء الإسلام رفع

عنها هذه المشقة، وجعل عدتها سنة في أول الأمر، من غير تلك الأعمال الجاهلية السابقة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[البقرة:٢٤٠].ثم خفف الله عنها عدتها-واستقر الأمر على ذلك- من سنة إلى أربعة أشهر قمرية-يعني هجرية- وعشرِ ليال، مع وجوب الإحداد ولزوم البيت، فنُسخت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[البقرة:٢٣٤].وتجب هذه العدة على المتوفى عنها زوجها، سواء أكانت مدخولاً بها أم غير مدخول بها، وسواء أكانت ممن تحيض أم ممن لا تحيض.

وتبدأ عدة المتوفى عنها زوجها من تاريخ الوفاة لا من بلوغ الخبر، فإن مات زوجها وهو غائب عنها فإن عدتها تبدأ من حين الموت، فإن لم تعلم بالموت إلا بعد مضي أربعة أشهر وعشر ليال فقد انقضت عدتها، فإن علمت قبل انقضاء عدتها كشهر أو شهرين أتمت ما تبقى من العدة من حين الموت، فإن بلغها خبر وفاته ولم تدرِ تاريخ الوفاة ابتدأت العدة من بلوغ الخبر.

عباد الله، وعلى المعتدة من وفاة أن تلزم بيت الزوجية فتعتد فيه، ولا تنتقل عنه إلى غيره لتعتد فيه، إلا إذا خافت على نفسها، أو ليس عندها إيجاره-إذا كان البيت بالإيجار-، أو وجد في بيت الزوجية مالم يتسر معه البقاء، ولا تخرج عن بيت العدة ليلاً إلا لضرورة، ولا نهاراً إلا لحاجة، كأن تكون مريضة أو طالبة أو موظفة، أو تشتري لها طعامًا أو شرابًا أو دواء وليس لها من يقوم بذلك.

وعليها أن تحد على زوجها في بيت العدة بتجنب الزينة والطيب في بدنها وثيابها، وأن تترك الحلي بجميع أنواعه، والأصباغ المزينة للوجه والبدن، ولها أن تلبس ما شاءت من الثياب غير ثياب الزينة من أي لون كانت، ولا تتقيد بلون معين كالأسود.

وممن تعتد بالأشهر أيضًا: المرأة إذا انقطع حيضها وهي من ذوات الحيض، ولم تصل إلى سن اليأس، فإذا طلقها زوجها فإنها تعتد سنة كاملة اثني عشر. شهراً، تسعة أشهر احتياطًا من وجود حمل، وثلاثة أشهر عدة الآيسة، وهذا قضاء عمر ﷺ بين المهاجرين والأنصار من غير إنكار منهم على ذلك، وهذا في حال عدم علمها بسبب انقطاع حيضها، أما إذا علمت سبب انقطاع حيضها وكان يمكن زوال ذلك المانع كمرض أو رضاع أو استعمال دواء فإنها تنظر: فإن عاد الدم اعتدت بالأقراء، وإن لم يعد الدم اعتدت سنة كاملة، وهناك من العلماء من ألحقها بالآيسة والصغيرة فتعتد ثلاثة أشهر فقط، خاصة مع وجود الأجهزة الحديثة التي تبين وجود الحمل من عدمه.

وممن تعتد بالأشهر: المستحاضة، وهي المرأة التي يسيل دمها في غير أوقاته المعتادة بسبب مرض أو غيره، فإذا طلقت المستحاضة وكانت تستطيع أن تميز بين دم الحيض ودم الاستحاضة فإنها تعتد بالأقراء؛ لعموم الأدلة كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾[البقرة:٢٢٨].

أما إذا لم تستطع التمييز بين الدمين، أو نسيت قدر عادتها فإنها تعتد ثلاثة أشهر؛ بناء على أن الغالب نزول الحيض مرة في كل شهر، أو لاشتمال كل شهر على طهر وحيض غالبًا، ولعظم مشقة الانتظار إلى سن اليأس، ولأنها في هذه الحالة مرتابة، فدخلت في قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ﴾[الطلاق:٤]. أيها المسلمون، وممن تعتد بالأشهر: المرأة المفقود زوجها، والمفقود:

هو الغائب الذي لم يُدْر: أحي هو فيتوقع قدومه، أم ميت أودع القبر، وقد بُحث عنه بالطرق الممكنة فلم يُعرف له خبر، فزوجة من هذه حاله إذا أرادت الزواج فإنها تنتظر أربع سنين منذ فقده، ثم تعتد عدة الوفاة: أربعة أشهر وعشرة أيام؛ لما روي عن عمر رضي الله عنه: "أن رجلاً غاب عن امرأته، وفُقد، فجاءت امرأته إلى عمر، فذكرت ذلك له، فقال: تربصي أربع سنين ففعلت، ثم أتته، فقال: تربصي أربعة أشهر وعشراً، ففعلت، ثم أتته فقال: أين وليُّ هذا الرجل؟ فجاؤوا به فقال: طلقها، ففعل، فقال عمر: تزوجي من شئت"(١)، فإن جاء زوجها بعد ذلك فهو بالخيار: إن شاء أخذ زوجته بالعقد الأول، وإن شاء أخذ مهرها، وبقيت على نكاح الثاني، فإن اختار المرأة وجب عليها أن تعتد من الثاني قبل أن يطأها الأول، وإن اختار تركها فإن على الزوج الثاني أن يدفع للزوج الأول ما دفعه من المهر.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

(١) قال ابن مفلح في المبدع في شرح المقنع (٨/ ١٢٨): "رواه الأثرم والجوزجاني والدارقطني".

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

أيها المسلمون، بقي من أقسام المعتدات القسم الأخير وهو الاعتداد بوضع الحمل، فمن فارقها زوجها بموت أو طلاق أو غياب أو فسخ أو خلع وهي حامل سواء كان الحمل في أوله أم في آخره؛ فإن عدتها بوضع حملها، قال تعالى: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[الطلاق:٤].وهذا حكم عام في كل حامل، فمتى ولدت فقد خرجت من عدتها، ولو بعد الفراق بيوم، فإذا طهرت من دمها حل لها الزواج، ففي الصحيحين عن سبيعة الأسلمية رضي الله عنها أنها حينما تُوفي زوجها وأُنكر عليها تجمُّلها سألت رسول الله عن ذلك قالت: (فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي).

أيها الإخوة الفضلاء، هذه أحكام العدة بالأقراء والأشهر ووضع الحمل، لكن قد يحصل تحول للعدة في -بعض الأحوال- من الأقراء إلى الأشهر أو وضع الحمل، ومن الأشهر إلى الأقراء، فإذا كانت المطلقة قد بدأت العدة بالأقراء فظهر حملها من زوجها المطلق فإنها تنتقل إلى العدة بوضع الحمل، وإذا طلقت المرأة التي كانت تحيض، فحاضت مرة أو مرتين، ثم أيست، انتقلت عدتها من الحيض إلى الأشهر، وإذا طلق الرجل زوجته وهي من ذوات الحيض، ثم مات وهي في العدة فينظر: إن كان الطلاق رجعيًا فعليها أن تعتد عدة وفاة أربعة أشهر وعشرة أيام، وتبطِل ما مضى من عدتها بالأقراء؛ لأن الرجعية ما زالت زوجة؛ ولذلك يثبت التوارث بينهما إذا مات أحدهما

أثناء العدة، وإن كان الطلاق بائنًا فإنها لا تتحول عدتها؛ لأن البائن لم تعد زوجة.

وإذا كانت المطلقة قد شرعت في العدة بالأشهر؛ لكونها صغيرة، أو آيسة ثم حاضت أثناء العدة فإنه يلزمها الانتقال من العدة بالأشهر إلى العدة بالأقراء.

هذا وصلوا وسلموا على الهادي البشير...

التواضع في ضوء القصة القرآنية(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الأخلاق الحسنة حِليةُ الإنسان وزينتُه، وجماله الحقيقي وسيرته، فبها ينشرح صدره، وترتاح نفسه، وبِنيِّتهِ الصالحة فيها يثقل عند الله ميزانه، ويكثر أجره وثوابه، وبها يحبه الناس ويألفونه، ويجلّون قدره ويرفعونه.

ألا وإن من رؤوس الأخلاق الحميدة وأعلاها: خُلقَ التواضع ولين الجانب للخلق، وترك التعاظم والكبر عليهم.

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٧/١٠/١٤٣٧هـ، ٢٢/٧/٢٠١٦م.

هـذا الخُلق العظيم يصدر عـن النفوس العلِّيـة التي بلغت درجات سامية مـن الشرف والرفعة، وحازت قصب السبق في ميدان الفضائل، ونالت من أسباب المدح على نصيب وافر.

هذه النفوس التي اكتست بالتواضع تنظر إلى غيرها نظرَ تكريم واحترام، لا نظرَ احتقار وازدراء، ولم يحملها ما عندها من أسباب العلو على التكبر على الخلق والسخرية بهم، فدل تواضعها -مع ما عندها من الفضائل- على أنها تستحق تلك العطايا، وتصلح أن تكون أهلاً لتلك النِّعم.

أيها المسلمون، إن التواضع لا ينقص قدرَ صاحبه، ولا ينزله عن مكانته، بل يرفعه، ويعلي شأنه، ويحببه إلى الخلق، قال رسول الله ﷺ: «وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»(١).

قال أبو بكر رضي الله عنه: " وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع ".

ولأهمية هذا الخلق الكريم -عباد الله- فقد كان الأمر به مما أُوحي إلى نبي الله ﷺ، قال ﷺ: «وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»(٢).

بل قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر:٨٨].وقال له أيضًا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩].

وقد تمثّل رسول الله ﷺ هذا الخلق الكريم في حياته كلها، فسيرته النضرة مليئة بالأمثلة المشرقة الدالة على تواضعه الجم.

فقد كان ﷺ ينقاد للحق ويقبله ممن جاء به، وكان ينهى عن إطرائه والمبالغة في مدحه، وكان يعود المرضى، ويشيّع الجنائز، ويشارك أصحابه في الأعمال؛ كما في بناء المسجد، وحفر الخندق.

وكان يجيب دعوة الطعام ولو إلى شيء يسير، ويقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، ويستجيب لدعوة الأرقّاء ويجلس معهم ويشفع لهم لدى مواليهم، وكان يجلس مع الضعفاء والمساكين ويأكل معهم، وكان لا يتخير وجوه المجالس، بل يجلس حيث ينتهي به المجلس، ولا يحب أن يتثمل له الناس قيامًا، فكان إذا دخل لم يقم له أحد؛ لعلمهم بكراهيته لذلك، وكان يقاسم أصحابه الابتسامة، ويمزح معهم، ويستمع إلى أحاديثهم وأخبارهم.

وكان يلبس من الثياب ما وجد، ولا يبحث عن ثياب الغرور والخيلاء، بل يردها، ويسكن في حجرات صغيرة مع أزواجه، وينام ويجلس على ما خشن من الفراش؛ إذ لم يجد غيره.

وكان يعين أهله في حوائج البيت، ويقوم بخدمة نفسه بنفسه: فيفلي ثوبه ويخيطه، ويحلب شاته، ويخصف نعله.

وكل هذا تدل عليه أحاديث عن سيد المتواضعين ﷺ.

أيها الأحبة الفضلاء، إن الشمائل الحسنة حينما تترجم إلى أعمال في الواقع فيراها الحاضر، أو تبلغ البعيدَ سماعًا أو قراءة تكون أكثر تأثيراً، وتصبح نموذجًا صالحًا للاقتداء، فالأفعال أبلغ في التأثير من الأقوال غالبًا.

وفي قِصص القرآن الكريم نجد نماذج حسنة من العمل بخلق التواضع من الأنبياء أو الصالحين من أتباع الأنبياء عليهم السلام، فيكون في ذلك دعوة للتأسي بهم في هذا الخلق الحميد.

ففي قصة آدم عليه السلام نجد تواضعه في الاعتراف بالخطيئة، وظلمِ النفس بالأكل من الشجرة التي نُهي عن الأكل منها، وفي طلبه مغفرةَ الله تعالى ورحمته بعد ذلك، فقبل اللهُ تعالى توبته ورحمه فضلاً منه.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:٣٧]. وقال: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف:-٢٣]. وأما إبليس فإنه لما تكبر ولم يتواضع بالسجود لآدم طاعة لله تعالى، ولم يتب من ذنبه، فقد لعنه الله تعالى، وغضب عليه وطرده من رحمته ومن سمائه. قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾[ص:٧١-٧٨].

ولهذا كان آدم والملائكة عليهم السلام قدوةَ المتواضعين، وإبليس لعنه الله أسوة المتكبرين.

فإبليس رأى أنه أشرف من آدم؛ فلذلك لم يتواضع بالسجود له، مدعيًا أن عنصره الناري أشرف من عنصر آدم الطيني، وهو قياس فاسد من وجوه كثيرة ذكرها العلماء. وهذا القياس الإبليسي مازال موجوداً إلى الآن لدى بعض المسلمين، فبعضهم يتكبر على غيره بسبب جنسه أو جنسيته ووطنه، أو لونه أو لغته. فيرى لنفسه فضلاً على الأعجمي لكونه عربيًا، وعلى الأدنى قبيلةً لكونه من قبيلة أشرف من تلك القبيلة، أو يرى لنفسه شرفًا على أخيه المسلم الأسود أو القبيح لكونه أبيض أو جميلَ الصورة. أو يرى لنفسه عزاً يتكبر به لكونه من بلاد كذا أو مدينة كذا أو منطقة كذا!.

قال تعالى: ﴿ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات:١٣].

وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} ألا هل بلغت؟ قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: فيبلغ الشاهد الغائب»(١).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: ساببت رجلاً -وهو بلال رضي الله عنه- فعيّرته بأمه -فقال له: يا ابن السوداء، - فقال لي النبي ﷺ: «يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟! إنك امرؤ فيك جاهلية»(٢).

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: "إن الأرض لا تقدِّس أحداً؛ إنما يقدس المرءَ عملُه".

أيها المسلمون، إن الإنسان الكريم إذا نال وظيفة عالية لم تزده تلك الوظيفة إلا تواضعًا ونفعًا للخلق، ولا تغرس فيه التعاظم والغرور، والبعدَ عن الناس احتقاراً لهم، ففي

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري.

قصة يوسف عليه السلام وإخوته دروس من التواضع؛ فإنه عليه السلام أحسن إلى إخوته بالقول والفعل فعفا عنهم وأكرمهم- والعفو من خلق المتواضعين- وهم قد أساءوا إليه قولاً وفعلاً، وكان قادراً على معاقبتهم، لكنه لم يفعل.

وكذلك فإنه لما دخل عليه أخوه بنيامين قال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾[يوسف:٦٩].فجرد نفسه عن الألقاب الوظيفية، وأزال عنها العظمة السلطانية، وخاطبه بالصفة التي يشترك فيها معه، وهي صفة الأخوّة، فلم يقل: أنا العزيز يوسف، وأنا وأنا..

ومثل ذلك قاله لبقية إخوته: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذَا أَخِي﴾[يوسف:٩٠].فأسقط عن نفسه وصف العزيز، ونحوه من نعوت العظمة.

أما غير الكرماء من الناس فإنهم إذا نالوا الوظائف الراقية، أو الألقاب السامية أعرضوا عن التواضع، وتعاملوا مع الناس من أفق عالٍ بأشر وبطر واحتقار، فيرون أنفسهم قطعة من القمر وغيرهم قطعة من المدر!.

ولذلك لا يحبون أن يسمعوا أو يقرؤوا أسماءهم مجردة عن الألقاب الوظيفية أو العلمية.

فإذا خوطبوا بأسمائهم عارية عن تلك الإضافات من وزير أو أمير أو دكتور أو شيخ أو رتبته العسكرية أو غير ذلك غضبوا، وربما منعوا ذلك المخاطِب بعض الحقوق؛ بسبب بُعده عن تقديم تلك الألقاب قبل الأسماء!.

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلٌ فكلمه فجعل ترعد فرائصه، فقال

له: «هوّنْ عليك؛ فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القَدِيد»(١).

أيها الأحبة الفضلاء، إن التواضع يدعو صاحبه إلى قبول الحق ممن جاء به، ويحثه على الاستفادة العلمية أو العملية ممن هو أدنى منه سنًا أو علمًا أو قدراً، ففي قصة موسى مع الخضر عليهما السلام تأديب لنا على هذا الخلق.

فموسى عليه السلام ذو منزلة عظيمة عند الله تعالى، وعند الناس؛ فهو كليم الرحمن، ومن أولي العزم من الرسل، ومؤيَّد بالمعجزات الباهرات، وأنزل الله إليه التوراة، وكان عند الله وجيهًا.

ومع ذلك رحل إلى الخضر عليه السلام ليتعلم منه، فتأملوا -معي أيها الأحبة- في ظهور أدب التواضع من موسى عليه السلام مع معلمه الخضر الذي هو أقل منه منزلة ودرجة.

فقد خاطبه هذا الخطاب المتواضع قائلاً: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[الكهف:٦٦]. الكهف:٦٦]. فطلب منه التعليم بهذا السؤال: ﴿هل أتبعك﴾؟، وفيه من حسن الخطاب والاستئذان ما فيه، ثم إنه جعل نفسه تابعًا للخضر. فقال: ﴿أتبعك﴾، وهذا من عِظم التواضع، ثم إنه جعل نفسه جاهلاً محتاجًا إلى تعليم الخضر فقال: ﴿على أن تعلمني﴾، وفيه وصف للخضر بأنه أهل لتعليمه.

ثم إنه وعد من نفسه الالتزامَ بالطاعة وعدم العصيان، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾[الكهف:٦٩].وهذا من التواضع العظيم.

أما من أصيب بداء الكبر فإنه يرى نفسه كاملاً لا ينقصه تعلُّم عند غيره، ولا استفادة بيانٍ من سواه، خصوصًا ممن هو أدنى منه؛ لأنه يرى نفسه على سنام الحق،

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم، وهو صحيح.

وعزة العلم والمعرفة.

فلذلك إذا جاءه ناصح أو مصحح يهدي له الحق ردّه عليه ولم يقبله منه، قال رسول الله ﷺ: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»(١).

أيها المسلمون، إن الإنسان الصالح إذا منّ الله تعالى عليه بقوة من القوى تواضع بها لله ولعباد الله، فشكر اللهَ تعالى عليها، ورأى أنها ابتلاء من الله فاستعملها فيما يرضيه.

فنفع بها نفسه، ونفع بها غيره ولم يتكبر بها على الناس، ولم ير لنفسه منزلة عالية يطلّ منها عليهم بكبر واحتقار.

فذو القرنين رحمه الله أعطاه الله تعالى قوة الملك التي استطاع بها فتح المدائن، وبسط العدل بين الناس، وقهر الظالمين لهم، فلم يتكبر بهذه القوة ويظلم الناس بها، بل تواضع فيها فنسبها إلى الله تعالى، ونفع بها عباده؛ ولذلك قال: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

ولما بنى السد الذي يحجز عن إفساد يأجوج ومأجوج قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ فلم ينسبه إلى نفسه وحرصه، فحصول هذا السد رحمة من الله بعباده، أو الإقدار على إقامته رحمة من الله ونعمة.

لكن الإنسان إذا لم يكن من أهل الهدى والصلاح فآتاه الله قوة من القوى فإنه ينسبها إلى نفسه، وإلى قدرته واستحقاقه، وقد يظلم بها العباد، وينشر الفساد، ويطغى

(١) رواه مسلم.

في البلاد، ويتكبر على الخلق، وينسلخ عن التواضع.

ومن أمثلة ذلك في قصص القرآن الكريم: قصة عاد الذين تكبروا بقوتهم على الخلق، واستكبروا عن الإيمان بالخالق، وطاعة رسله؛ فلذلك حلّ بهم النكال والزوال. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾[فصلت:١٥-١٦].

واليوم تتباهى قوى الكفر بما تملك من أسباب القوى المادية التي استكبرت بها على الله تعالى، فأعرضت بها عن الإيمان به، والدخول في دينه، وتسخير تلك القوى في مرضاته.

وتكبرت بها على المسلمين فتسلطت عليهم، وشنت عليهم الحروب المتنوعة التي جرّت على أهل الإسلام القتل والجراح، والشقاء وتضييق الحياة، والسيطرة على القرار بينهم.

ونحن إذا رجعنا إلى الله تعالى صادقين، وعملنا بأسباب النصر فإننا ننتظر عما قريب بهؤلاء الأعداء المتكبرين أن يحل بهم ما حل بأسلافهم المستكبرين، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[هود:١٠٢].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعده:

أيها المسلمون، لقد أعطى الله تعالى نبيه سليمانَ عليه السلام النبوة والعلم والمُلك وما فيه من القوى؛ ككثرة الجنود، وكثرة المال، واتساع الأرض التي تدين له بالانقياد والطاعة.

ومع ذلك تواضع لله تعالى ولعباد الله؛ فاعترف لله بالنعمة، وسخرها في طاعته، واستعملها في إفادة الخلق، وإزالة الضرر عنهم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[النمل:١٥].

وحينما خرج مع جنده مارّين بوادٍ للنمل، وسمعَ خطاب النملة لقومها-وكان قد علمه الله منطق الحشرات والطير- تواضع لله بهذه المعرفة ولم يتكبر بها، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾[النمل:١٨-١٩].

وعندما أرسل رسالة إلى ملكة سبأ قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾[النمل:٣٠].فلم يقل: إنه من صاحب الجلالة والفخامة والزعامة، أو إنه من ملك الجن والإنس والطير والرياح، وإنما ذكره اسمه مجرداً: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾[النمل:٣٠]

ولما وصل إليه عرش بلقيس من مأرب وهو في الشام بتلك السرعة والقدرة لم يتكبر ولم يتجبر بما أُعطي من القوى والقدرات، بل قال: ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ

هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾[النمل:٤٠]. فقارنوا -عباد الله- ما حصل من سليمان عليه السلام من ألوان التواضع مع ما عنده من القدرات والقوى التي أعطاه الله إياها، مع ما حصل من فرعون وقارون وصاحب الجنتين من الغرور والزهو والأشر والبطر بما أُعطوا من نعم وقوى.

ففرعون ساقه جنون الغرور بالملك وما فيه إلى ادعاء الربوبية والألوهية، وإلى ردّ دعوة الحق التي جاء بها موسى وهارون عليهما السلام، وإلى ظلم الخلق بأنواع من العسف.

قال تعالى عنه أنه قال لقومه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾[القصص:٣٨]، وقال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾[النازعات:٢٤]، وقال: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[الزخرف:٥١].

فماذا كانت نهاية هذا المتجبر المتغطرس الذي لم يعرف للتواضع طريقًا؟ قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾[الذاريات:٤٠].

وأما قارون فحمله الكبر بماله الوفير على نسبته لنفسه، والتِّيه به على خلق الله، وردِّ دعوة الحق التي وصلت إليه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾[القصص:٧٨].

فكانت نهاية الترفع المقيت: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾[القصص:٨١].

وأما صاحب الجنتين -كما ذكره الله تعالى في سورة الكهف- فلم يشكر الله تعالى

على نعمه عليه، بل تكبر بها على الله تعالى فكذب بالساعة والبعث، وتكبر على صاحبه المؤمن الفقير فاحتقر ما لديه.

قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾[الكهف:٣٢-٣٦].

فكانت العاقبة والعقوبة: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴾[الكهف:٤٢-٤٣].

هذا وصلوا وسلموا على البشير النذير....

فضل الإطعام في يوم ذي مسغبة(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق القيل قيلُ الله، وخير الهدي هدي رسول الله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، حينما تتبدل الأحوال، وتتغير الأطوار، ينطق الزمان بصمته قائلاً للناس: إن المسرة لا تدوم، وحلاوة العيش لا تستمر، وسعة الدنيا تضيق، وغضارة الأيام تذهب ولو بعد حين.

فبينا الإنسان يعيش في بحبوحة من الحياة، تفيض دنياه نعمة واتساعًا، بعيداً عن شوائب الأكدار، وآلام الحاجة؛ إذا غِيَرُ الحياة-بقدر الله تعالى- تهجم على سروره

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٨/٢/٤هـ، ٢٠١٦/١١/٤م.

فتنازعه ما وجد، وتغيّض عنه ما فاض عليه، فينقلب السرور شروراً، والوسع ضيقًا، والصباح مساء، والابتسام عبوساً.

كأن لم يكن يومًا سليلَ تنعُّمٍ ولا ذاق طِيْبَ العيش حينًا من الدهر

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[يونس:٢٤].

هكذا تمضي الدنيا بأهلها، لا يذوقون منها كأس الحلاوة حتى يبادر إليهم كأسُ المرارة.

عباد الله، إن الشدائد التي تمر بها بلادنا وبعض بلاد المسلمين اليوم كسوريا والعراق وليبيا قد تفاقمت، وشدّ بعضها أزرَ بعض حتى ضاقت بالناس المسالك، فظن كلٌّ منهم أنه هالك.

ولكن الأزمة الغذائية قد تصدرت صفحة الأزمات، فقد امتد عناؤها، وتطاير شررها حتى وصل إلى بيوت كثيرة.

بل ظهرت مجاعات في بعض المناطق أدّت ببعض أهلها إلى الهزال المخيف، أو الموت بعد المعاناة، كما ظهرت حالات فردية ذاقت شدةَ البؤس؛ لكونها لا تجد لقمة العيش اليومي التي يعيش بها ذو كبد.

وما زالت الأيام تنذر بقادم مجهول لا يُدرى ماذا يخبئ في جعبته من المفاجآت، ولكن نسأل الله أن يفرج عن المسلمين في كل مكان ما ألمّ بهم من الشدائد والمحن،

وأن يجمع كلمتهم على الحق المبين.

أيها المسلمون، إن الأزمات الغذائية عدو يهدد المجتمعات، مهما كان عندها من أسباب الكفاية والغنى؛ لأنه قد يأتيها فجأة، أو زائداً على الاستعداد الذي يواجهها، أو تجتمع لحصوله أسباب غير مقدور على دفعها.

فواقعنا المَعيش في هذا العصر فيه نماذج من كوارث المجاعات التي اجتاحت أماكن معينة من العالم، حتى سقطت بسببها أعداد غير قليلة من موتى الجوع والظمأ والمرض.

وأما في العصور السابقة لعصرنا فهناك أمثلة كثيرة من طوفان المجاعة والمسغبة الذي جرف في طريقه إلى الموت والفناء آلافَ البشر، بل وصلت الأحوال البائسة في تلك العصور الخالية جرَّاءَ المجاعة الشديدة إلى مشاهد يصعب تصورها، كما يذكر ذلك بعض المؤرخين.

فمن أمثلة المجاعات في التاريخ الإسلامي: ما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في كتابه "البداية والنهاية"، فقد قال في حوادث السنة الثامنة عشرة للهجرة في عام الرمادة: " كان في عام الرمادة جدب عم أرض الحجاز، وجاع الناس جوعًا شديداً..... وقد أجدبت الناس في هذه السنة بأرض الحجاز، وجفلت الأحياء إلى المدينة، ولم يبق عند أحد منهم زاد، فلجأوا إلى أمير المؤمنين(أي: عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) فأنفق فيهم من حواصل بيت المال مما فيه من الأطعمة والأموال حتى أنفذه، وألزم نفسه أن لا يأكل سمنًا ولا سمينًا حتى يكشف ما بالناس "(١).

وفي حوادث سنة (٣٣٤هـ) قال ابن كثير: " وفي هذه السنة وقع غلاء شديد ببغداد

(١) البداية والنهاية (٧/ ٩٠).

حتى أكلوا الميتة والسنانير والكلاب"[١].

وفي حوادث سنة (٤٦٢هـ) قال: "وفيها كان غلاء شديد بمصر. فأكلوا الجيف والميتات والكلاب، فكان يباع الكلب بخمسة دنانير، وماتت الفيلة فأُكلِت مِيتاتها، وأُفنيت الدواب"[٢].

وفي حوادث سنة (٤٩٢هـ) قال: " وفيها غلت الأسعار جداً ببغداد، حتى مات كثير من الناس جوعًا، وأصابهم وباء شديد حتى عجزوا عن دفن الموتى من كثرتهم"[٣].

وذكر أشياء أخرى فظيعة جداً من آثار تلك المجاعات.

أيها الأحبة الفضلاء، إن أيام الشدائد تكشف عن معادن الرجال، وحقائق النفوس، وتظهر ما فيها من خبايا الأخلاق والأعمال.

ففي الأزمة الغذائية يظهر من المسلمين المصابين بها الذين لا يجدون ما يذهبها أو يخففها عنهم أعمال وأخلاق متباينة:

فمنهم من يتجلَّدون لها، ويصبرون فيها على شظف العيش، وقلة القوت، وتبدو عليهم القناعة والعفة، ويتسلّون بالأجر المترتب على الصبر على البلاء، وبوجود أقوام آخرين يعانون ما يعانون أو أشد منهم معاناة.

فهم حينما يقرأون حياة رسول الله ﷺ وحياة أصحابه رضي الله عنهم وما لقوا من ضيق

---

(١) المصدر السابق (١١/ ٢١٣).

(٢) المصدر السابق (١٢/ ٩٩).

(٣) المصدر السابق(١٢/ ١٥٧).

العيش وشدة الحال في بعض الأوقات حتى ربطوا الحجارة على بطونهم أحيانًا من شدة الجوع، وربما عاش الواحد منهم يومه كاملاً على تمرة واحدة، كما في سرية الخَبَط، وكان رسول الله ﷺ ربما بات ليالي طاويًا لا يجد ما يتعشى به ﷺ؛ فإنهم عند معرفة ذلك يجدون مَسلاةً وضياء ينيرون به طريقهم في دياجي أزمة الجوع.

ومن الناس المصابين بأزمة الجوع من يظهرون الجزع الشديد، والهلع الكثير، وقد يركبون مطايا الحرام المتعلق بحقوق الناس؛ ليصلوا إلى الغذاء.

وأما الذين سلِموا من الأزمة الغذائية لكونهم في غنى أو كفاية في أرض الأزمة، أو لبعدهم عن مكان الكارثة؛ فهم بين متغافل عما يحدث لإخوانه، ممسك لماله، ليس له هم إلا نفسه ومصالحه، غير ناظر بعين الرحمة إلى أهل المجاعة، ولا يعتبر بأن دوران الدوائر قد يصل إليه.

ومن أهل الغنى أو الكفاية من يشعر بآلام الجوعى، ويحس بمعاناة البؤساء، فتتحرك فيه ينابيع الرحمة والعطف ليجود عليهم ويسخو بشيء من ماله وعونه، ويتابع كرمه حتى تذهب عنهم الضراء.

يذكر أن رجلاً يقال له: العرجي كان غازيًا فأصابت الناسَ مجاعةٌ، فقال للتجار: أعطوا الناس، وعليَّ ما تعطون، فلم يزل يعطيهم ويطعم الناس حتى أخصبوا، فبلغ ذلك عشرين ألف دينار، فألزمها العرجي نفسه، وبلغ الخبرُ عمرَ بن عبد العزيز فقال: بيت المال أحق بهذا، فقضى التجارَ ذلك المالَ من بيت المال(١).

أيها الأحبة الكرام، إن إطعام الجوعى، والصدقة على المحتاجين بالغذاء أيام البلاء

---

(١) ينظر: الأغاني، للأصفهاني (١/ ٣٨١).

من أعظم الأعمال الصالحة التي يُتقرب بها إلى الله تعالى؛ لأن الغذاء هو قوام البدن، ووقود استمرار الحياة الدنيوية.

وهذا العمل له فضل عظيم عند الله تعالى، وله آثار حسنة تعود على صاحبه في الدنيا والآخرة؛ فهو من أعظم أسباب تفريج الكرب عن الإنسان، وعونه على مصالح دينه ودنياه، قال رسول الله ﷺ: «من نفَّسْ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»(١).

وهو من أسباب النجاة من المكاره؛ فقد ذكر الإمام الشوكاني في كتابه " البدر الطالع " أنه كان هناك رجل ذو دين وصدقة، فاتفق أنه بنى مسجداً يصلي فيه، وجعل يأتي ذلك المسجد كل ليلة بالسراج وبعشائه، فإن وجد في المسجد من يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء، وإلا أكله وصلى صلاته، واستمر على ذلك الحال، ثم إنها اتفقت شدة ونضب ماء الآبار، وكانت له بئر، فلما قل ماؤها أخذ يحتفرها هو وأولاده، فخربت تلك البئر والرجل في أسفلها خرابًا عظيمًا، حتى إنه سقط ما حولها من الأرض إليها فأيس منه أولاده، ولم يحفروا له، وقالوا: قد صار هذا قبره، وكان ذلك الرجل عند خراب البئر في كهف فيها فوقعت إلى بابه خشبة منعت الحجارة من أن تصيبه، فأقام في ظلمة عظيمة، ثم إنه بعد ذلك جاءه السراج الذى كان يحمله إلى المسجد، وذلك الطعام الذى كان يحمله كل ليلة، وكان به يفرق ما بين الليل والنهار، واستمر له ذلك مدة ست سنين والرجل مقيم في ذلك المكان على تلك الحال، ثم إنه بدا لأولاده أن

---

(١) رواه مسلم.

يحفروا البئر لإعادة عمارتها، فحفروها حتى انتهوا إلى أسفلها، فوجدوا أباهم حيًا، فسألوه عن حاله، فقال لهم: ذلك السراج والطعام الذى كنت أحمل إلى المسجد يأتيني على ما كنت أحمله تلك المدة، فعجبوا من ذلك فصارت قضية موعظة يتوعظ بها الناس في أسواق تلك البلاد[١].

كذلك أن إطعام الجوعى من أسباب دخول الجنة، وقد ورد في ذلك أحاديث عدة، منها:

قول رسول الله ﷺ: «إن في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»[٢]. وقوله ﷺ: «من ختم له بإطعام مسكين محتسبًا على الله عز وجل دخل الجنة»[٣].

أيها المسلمون، إذا كان إطعام الطعام له هذا الفضل والثواب العاجل والآجل؛ فإن أجره عند الله، وأثره الحسن بين الناس يعظم ويتضاعف في أيام المجاعات، والأزمات الغذائية، وسيطرة السغب.

قال تعالى: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾[البلد:١١-١٨].

ومعنى الآيات: فهلا تجاوز الإنسان مشقة الآخرة بإنفاق ماله في عتق رقاب

---

(١) البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع (١/ ٤٧٠).

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن حبان، وهو حسن.

(٣) رواه ابن شاهين، وأبو نعيم في أخبار أصبهان، وهو في السلسلة الصحيحة للألباني.

الأرقاء، أو في إطعام يتيم من ذوي القربى، أو في إطعام الفقير المُعدم في يوم ذي مجاعة، فمن فعل ذلك من المؤمنين مخلصًا لله تعالى، وكان من الذين يوصون غيرهم بالصبر والرحمة؛ فإنه مما سيؤتون كتبهم بإيمانهم، ويدخلون الجنة.

قال الرازي رحمه الله: "واعلم أن إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس، وأوجب للأجر"(١). وذلك أن النفس تبخل في وقت الشدة خوفًا من نفاد ما عندها، ولكن الأجر يعظم؛ لِما في ذلك من إغاثة الملهوف، وإحياء النفوس.

إن المؤمن الرحيم يغتمُّ غمًا شديداً عندما يرى الجوع يفتك بإخوانه المسلمين، ويرسم على وجوههم البؤس والحزن، وعلى أجسامهم العري والذبول، فما يصبر على ذلك حتى يجود من خيره بما يستطيع.

فعن جرير رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صدر النهار فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى، ثم خطب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، والآية التي في الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[الحشر:١٨].

تصدّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: ولو بشق تمرة». قال: فجاء رجل من الأنصار بِصُرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب (٣١/ ١٦٩).

عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذهَبَة[(١)]، فقال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[(٢)].

ذكر الماوردي في كتابه" أدب الدنيا والدين" أن أعرابيًا أتى عمر رضي الله عنه فقال:

يا عمرَ الخيرِ جُزيتَ الجَنَّهْ ... اُكسُ بُنَيَّاتي وأُمَهنَّهْ

وكن لنا من الزمانِ جُنَّهْ ... أُقسمُ باللهِ لَتفعلنَّهْ

فقال عمر رضي الله عنه: فإن لم أفعل يكون ماذا؟ فقال:

إذاً أبا حفصٍ لأذهبنَّهْ

فقال: فإذا ذهبتَ يكون ماذا؟ فقال:

يكونُ عن حالي لتُسألَنَّهْ ... يومَ تكونُ الأعطياتُ هَنَّهْ

وموقفُ المسئولِ بينهنّهْ ... إما إلى نارٍ وإما جَنَّهْ

فبكى عمر رضي الله عنه حتى اخضلت لحيته، ثم قال: يا غلام، أعطه قميصي. هذا لذلك اليوم لا لشعره، أما والله لا أملك غيره"[(٣)].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) أي: فضة مموهة بذهب، كناية عن الصفاء والاستنارة.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٤٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

أما بعد:

أيها المسلمون، إن المطلوب في ظل الأزمة الغذائية أن يصبر المبتلى بها صبراً جميلاً لا ضجر فيه ولا شكوى، والصابرون يوفون أجرهم بغير حساب. وليعلم المبتلى بضيق العيش أنه ليس على الطريق وحده؛ فقد سبقه عليه أقوام إثر أقوام بُلوا أشد مما بُلي، وجاعوا أكثر مما جاع، و "في كلِّ وادٍ بنو سعد"، كما قيل.

وفي واقعهِ لو فتَّش سيجد من هو أشد منه ضرراً ومسغبة، ولكن بعض الناس لا يظهرون حاجتهم تعزُّزاً وتعففًّا وتكرمًا. ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة:٢٧٣].

ومما تواجه به الأزمة الخانقة -معشر الفضلاء-؛ حتى يخف وقعها، ويقرب ارتفاعها-: حسنُ التدبير للمعيشة على المستوى العام، وعلى المستوى الخاص، على الحكومات، وعلى أفراد الشعوب.

فعلى المستوى العام: أن يكون هناك استعداد غذائي ومالي تُسد به الحاجات إذا طرأت، وتعالج به هذه المشكلات إذا نزلت.

كما فعل نبي الله يوسف عليه السلام لما تولى خزائن مصر للعزيز، فإنه لما عبر للملك رؤيا السبع البقرات السمان، والسبع السنبلات الخضر بسبع سنين مخصبات، والسبع

البقر الأخريات، والسبع السنبلات اليابسات بسبع سنين مجدبات، وعرف الملك فضل عقله، وجودة رأيه، وعرف يوسفُ أهمية حسن التدبير الغذائي فيما سيأتي من السنوات؛ فإنه طلب من الملك أن يوليه أمر خزائن الدولة؛ ليحسن مدافعة هجوم السنوات المجدبات بحسن التدبير في السنوات المخصبات، قال تعالى: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[يوسف:٥٥].

وقد كان تدبيره المالي: أنه زرع أرض مصر في السنوات السبع المخصبات زروعًا كثيرة، وجبى من الأطعمة شيئًا كثيراً، وأودع تلك الأغذية في مخازن أُعدِت لذلك، فلما جاءت السنوات السبع المجدبات صرفَ ذلك المخزون على الناس، وأذهب بحسن تدبيره الجوعَ عن الناس.

وأما التدبير الخاص فيكون على مستوى الأسرة بالتخفيف من الكماليات، والنظر إلى الضروريات، وعلى مستوى الأقارب والجيران وذلك بالاشتراك الغذائي واقتسام لقمة العيش بين الجميع؛ فقد قال النبي ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو-أي: افتقروا-، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني، وأنا منهم»(١).

أيها المسلمون، ومما تواجه به الأزمة الغذائية: إحياء التعاون الاجتماعي بين المسلمين، فالأغنياء فُتح لهم اليوم بابٌ عظيم من أبواب البِّر، الذي تضاعف به الحسنات، وترفع به الدرجات، وتكفر به السيئات؛ فإن الصدقة في أيام المجاعات ليست كالصدقة في غيرها، بل لعلها-والله أعلم- أفضل منها في رمضان أيام الكفاية؛ لأن فيها إحياء لنفوس كاد الجوع أن يسوقها إلى المقابر. وهذا العمل من صفات أهل

---

(١) متفق عليه.

الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم، وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضواً تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[١].

وإنه ليس من الإيمان أن يشبع المسلم وأخوه المسلم من قريب أو جار أو بعيد يتلمَّض جوعًا لا يجد ما يسد به رمقه.

قال الشاعر:

فلو كنتَ جاراً يا ابنَ قيسٍ لعاصمٍ ... لما بِتَ شبعانًا وجارُك ساغبا[٢]

فيا أيها الأغنياء، هذه فرصتكم، وهذا خير عظيم سيق إليكم، فلا تضيعوا هذه الغنيمة الباردة، فإن ضاقت بكم القدرة اليوم عن الصدقة فأخرجوا من الزكاة، وإن لم يحن وقتها؛ لأنه يجوز إخراج الزكاة قبل وجوبها على القول الصحيح؛ كما فعل رسول الله ﷺ في زكاة العباس رضي الله عنه[٣].

ونقول لكم اليوم:

ألا أيها القومُ الكرامُ لقد أتتْ ... على الناسِ أيامٌ شديدٌ سعيرُها

وساءتْ بها الأحوالُ حتى تتابعتْ ... مصائبُ قد شقَّ الزمانَ زئيرُها

فكشَّرَ فيها الجوعُ عن نابِ شِدَّةٍ ... تُمزِّقُ أحشاءَ الورى وتُضيرُها

فأظلمتِ الأرجاءُ في وجهِ مُقترٍ ... وضاقتْ به الدنيا وقَلَّ سرورُها

على صدرِه أطوادُ غمٍّ تربَّعتْ ... وفي عينه دنيا تَغيبُ بدورُها

---

(١) متفق عليه.

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/ ٦٩).

(٣) جاء في الحديث: (إنا قد أخذنا زكاة العباس عام الأول للعام)، رواه الترمذي، وهو حسن.

تحيطُ به الحاجاتُ من كلِّ جانبٍ وتَنبحُه الضَّرَّاْ ويعلو هريرُها
على وجهِه بؤسٌ يقولُ لمن يَرى هنا تُكتَبُ الشكوى وتُقراْ سطورُها
ولا يُعلِنُ الأحرارُ حاجاتِ دهرِهم ولكنْ بصمتِ البِشْرِ يبدو ضميرُها
فجودوا -فما في الجودِ خُسْرٌ- بِمِنَّةٍ فربُّكُمُ المولى الكريمُ شكورُها
ومدُّوا يدَ الإحسانِ يا باذلِيْ النَّدى فأنتمْ سحابُ الجودِ جَادَ مَطيرُها
فما أجملَ المعروفَ والدهرُ مُمحِلٌ وبَطنُ ذوي اللَّأواْ يَصِرُّ صَريرُها
فهذا زمانُ السغْبِ يا قومُ فاطردوا جحافَله اللّاتي تمادتْ شرورُها
لتهطلَ هذا اليومَ كفٌّ كريمةٌ فيضحكَ في أرضِ الكرامِ فقيرُها

هذا وصلوا وسلموا على الرسول الرؤوف الرحيم...

الحياة بالتفاؤل(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، متفائلون، متفائلون، نعم، متفائلون:

رَغمَ الجِراحِ ورغم أنّاتِ الألمْ ... متفائلون.. وإن تجبَّرَ مَن ظَلَمْ
رغم الدُّجى يكسو جوانبَ أُفْقنا ... متفائلون.. بما يُزيحُ دجى الظُلَم
رغم المصائبِ والكروبِ فإننا ... متفائلون.. بفجرِ يُسرٍ في القِمم

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، صنعاء، في ١٨/١٢/١٤٣٦هـ، ٢/١٠/٢٠١٥م.

لا نستكينُ ولا نلينُ لجُرحنا أبداً ففينا رُوحُ دهرٍ مِن هِمَم
متفائلون بتوبةٍ مقبولةٍ تُنجي مَطيَّتنا لروضٍ من نِعَم
متفائلون بربِّنا متفائلو ن بصبرِنا متفائلون بلا سأم
والله ما هلَكَ الأنامُ إذا اتَّقَوا قَسمًا بربِّ العرشِ يتبعُه قَسم

أيها المسلمون، إن التفاؤل دواء بلا أعراض، وشفاء لكثير من الأمراض، لا تصلح الحياة إلا به، ولا يستريح الإنسان إلا بسلوك طريقه، ولا طريق أقرب للفرج من طريقه.

التفاؤل يجعل من الحياة الضيقة حياة رحبةً فيْحاء، وروضةً غنّاء، ويزرع في القلوب البهجة، وعلى الشِّفاه البسمة، وعلى الوجوه النضرةَ والإشراق.

والمتفائلون أصح الناس أجسامًا، وأصفاهم أحلامًا، وأسماهم أرواحًا، وأكثرهم جهداً، وأتقنهم أعمالاً.

يرون من اشتداد الألم قربَ العافية، كما يرون من اشتداد الليل قرب الصباح، فهم نجوم الحياة التي لا تنطفئ، وبُناة صرحها الشامخ الذي يسمو ويتلألأ مع الشمس الحارقة.

لا تستمر الحياة ولا تطيب إلا بالتفاؤل والمتفائلين، كما أنه لا استقرار لها إلا بالصلاح والمصلحين.

أيها الإخوة الفضلاء، لئن قال القائل في هذه الأيام-لصدقَ وصُدِّق-: قد مسنا الضر، وأحاط بنا البلاء، وتعدّدت مصائبنا، وضاقت معايشنا، نعم، هذا غيض من فيض، وجزء من كُلٍّ مما أصاب الناس، ولكن مع كل ما يبدو من الآلام والمآسي

والشحوب على جبين الواقع المرير، يبقى الإيمان الصادق، والرجاء المستمسك بزمام التفاؤل ينقذان أهلهما من الخرور إلى منحدرات اليأس، والانهيار إلى قاع الجزع.

فالحياة الدنيا غير مستقرة على حال، وزمانها ليس مكانًا لدوام السعادة وطِيبِ العيش، فتقلّب أحوالها، وتبدّل أطوارها هو صفتها الدائمة، ولا راحة من أكدارها وأحزانها إلا بخروج المؤمن منها، قال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[فاطر:٣٣-٣٤].

غير أن السير فيها على مركب التفاؤل ينجي أهله من الغرق في أوحال كروبها وشقائها.

أيها المسلمون، إننا بحاجة شديدة للتربية على التفاؤل والعيش به، نربي أنفسنا وأهلنا وأولادنا على التفاؤل ونعيش به، ولنا في هذا السبيل قدوةٌ حسنة، شهد الله له بذلك فقال: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[الأحزاب:٢١].

لقد كان رسولنا محمد ﷺ قدوةً في قوله وفعله، ومن جوانب القدوة فيه: أخذُه بالتفاؤل وتربية الناس عليه، فقد كان التفاؤل خصلة من خصاله وخلقًا من أخلاقه، وربَّى أصحابه على ذلك، حتى صاروا بعد دعاة التفاؤل، وعُداةَ القنوط والتشاؤم.

لم تكن المرحلة التي عاشها رسول الله ﷺ وأصحابه مرحلةَ رغد عيش، ودعة وسكون، بل كانت حِقبة مملوءة بالابتلاء والتمحيص، والتضحية والبذل، والمعاناة والجهاد. ولقي فيها هو وأصحابه من الشدة ما لقوا، وتجمع عليهم الأعداء على

اختلاف مللهم ونحلهم من كل حدب وصوب، وفي خضم هذه الظلمات الكثيفة، كان لسان رسول الله وألسنة أصحابه، وفعاله وفعالهم تشرق بالتفاؤل وحسن المستقبل، وكانت نفوسهم عاملة في سوق الصبر والمصابرة، والجد والمثابرة، فما كلّت ولا ملّت، ولا يئست ولا قنطت، ولا شكّت ولا ارتابت.

وحينما يبلغ الضر بأحدهم مَداه يأتي إلى رسول الله ﷺ فينفخ فيه روحَ التفاؤل، فيصبح العذاب عُذوبة، والشدة مغتسلاً باراً وشرابًا، يطهّر به نفسَه من درن الجزع والألم، فيتسامى على الجرح ويضحك ساخراً بالجارح الذي قد كساه الظلمُ الإرهاقَ والكلل من كثرة الظلم.

روى البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة قلنا له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون».

ففي هذا الحدث يخفف رسول الله ﷺ وطأة البلاء الذي نزل بأصحابه بإشراقات التفاؤل والأمل، حتى لا يزورهم اليأس والضعف والاستسلام لترغيب الأعداء وترهيبهم. فيذكر لهم الاعتبار بالماضي فيقول: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه) ويبشرهم بأمل المستقبل فيقول: (والله ليتمنَّ هذا الأمر حتى يسير

الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه».

وكان يمرّ على بعض أصحابه-كأُسرةِ ياسر رضي الله عنها- وهم يُعذَّبون فيقول: (صبراً آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة)(١).

وفي السياق نفسه كانت الآيات القرآنية تتنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيها من البشائر والآمال لهذا الدين وأهله بالنصر والغلبة والتمكين والفرج، وزوال الكربة والشدة، فيتلوها عليهم فتنشرح لها صدورهم، وتطمئن بها نفوسهم، وتهتك أحجبة الألم والقنوط أمام أعينهم. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[غافر:٥١].

ومن ضمن آيات التطمين والانشراح: أخبار الأنبياء عليهم السلام وكيف نجاهم الله تعالى ونصرهم، وغلبَ أعداءهم وقهرهم، ولم يوصل أولئك الأعداء إلى آمالهم في عباده الصالحين. قال تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء:٦١-٦٧].

أيها المسلمون، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكتفِ بنقل الصحابة رضي الله عنهم على أفق التفاؤل إلى البشرى القريبة، بل نقلهم إلى البشرى البعيدة التي لا يدركونها؛ لكي يوقنوا بانتصار

(١) رواه الحاكم والبيهقي.

هذا الدين على كل ما خالفه ووقف في طريق نوره، ولكي يزدادوا تفاؤلاً ويقينًا بانقشاع سحابة الابتلاء التي تظلّهم، فيقول ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيتَ مدرٍ ولا وبرٍ الا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً: أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل تفتح أولاً»(٢). وبينما يشتد في مكة الإيذاءُ ويتضاعف على الصحابة الكرام البلاء يُشرِقُ فرجُ الله تعالى بالهجرة إلى المدينة، وكان رسول الله ﷺ يبشر صحابته بذلك فيقول: «قد أُرِيتُ دار هجرتكم سبخة ذات نخل بين لابتين»(٣).

أيها الأحبة الأفاضل، وتبدأ مواكب الهجرة السامية إلى المدينة، فتطوي صفحةَ البلاء والعناء في مكة، وتفتح صفحة من الفرج والهناء في المدينة. فتغادر الجماعة المؤمنة مكةَ زرافات ووحدانًا، حتى جاء الإذن لسيد المرسلين بالخروج بنفسه ساقةً للمهاجرين، وخاتمةً لطلائع المؤمنين.

لكن ذلك الهناء في المدينة لم يكتمل؛ فهناك أعداء كُثر يتربصون برسول الله والمسلمين، وعلى ظهور الثلة المؤمنة حِملٌ ثقيل يتمثّل في تبليغ هذه الدعوة إلى أرجاء المعمورة، ولن يصلوا إلى هذه الأمنية العظيمة إلا على جسور من التعب والعناء؛ فلذلك واصلَ رسولُ الله ﷺ معهم دروسَ التفاؤل، وحسنِ الظن قولاً منه وعملاً.

---

(١) رواه أحمد والبيهقي والحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه أحمد والدارمي والحاكم، وهو صحيح.

(٣) رواه البخاري.

ففي يوم الأحزاب ومعركة الخندق يتقاطر أعداءُ الله ورسوله والمؤمنين من أماكن متعددة حتى يصلوا قريبًا من المدينة فيفرضون عليها حصارًا مطبقًا بعشرة آلاف مقاتل من الخارج سوى غَدَرةِ اليهود من الداخل، فيشتد البلاء بالمؤمنين ويخنقهم الكرب، ويحاصرهم العناء، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب:٩-١١].

وفي ظلام هذه الشدة الداجية يشرق ضياء الأمل من فم رسول الله ﷺ، فيقتبس منه درسًا في التفاؤل يصل إلى آذان أصحاب رسول الله ﷺ، فقد ورد عند أحمد والنسائي بإسناد حسن من حديث البراء بن عازب قال: (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلثها. وقال: الله أكبر؛ أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحُمر الساعة، ثم ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر فقال: الله أكبر؛ أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض. ثم ضرب الثالثة وقال: بسم الله؛ فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر؛ أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة). فاستبشر الصحابة خيراً وفرحوا بهذه البشائر الصادقة، فكانت هذه الكلمات المتفائلة شحنةً إيمانية قوية وصلت قلوبَ المؤمنين، ولم تكن كذلك في قلوب المرجفين المنافقين أصحابِ الشك والريب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾[الأحزاب:١٢].

وهكذا ظل رسول الله ﷺ يربي صحابته الكرام على الاستمساك بحبل التفاؤل، وهو تربيةٌ للأمة كلها، فعاش المصدقون المتفائلون في اطمئنان وعمل، وعاش المشككون اليائسون في قلق وكسل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحابته أجمعين، أما بعد، أيها المسلمون، إن تلك الكلمات المنيرة، والمواقف المشرقة بنور التفاؤل التي انبثقت من أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله تربي الأمة على التفاؤل دائمًا، مبيِّنة لها أن الليل إذا كثف ظلامه آذن بميلاد الفجر، والحبل إذا اشتد انقطع، وأن العسر يتبعه اليسر حتى يدركه، قال تعالى:﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[الشرح:٥-٦].

اشتدي أزمةُ تنفرجي قدْ آذن ليلُكِ بالبلج

فأيقنوا معشر المسلمين، أنه لا بقاء للشدائد، ولا إقامة للمصائب، فالفرج والعافية أقرب للعبد من ذلك، قال علي رضي الله عنه: "عند تناهي الشدة تكون الفرجة، وعند تضايق حِلَق البلاء يكون الرخاء". وقال الشاعر:

إذا اشتملتْ على اليأسِ القلوبُ وضاقَ بما به الصدرُ الرحيبُ
وأوطئتِ المكارهُ واطمأنَّتْ وأرستْ في مكامنها الخطوب
ولم يَر لانكشافِ الضرِّ وجهاً ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاكَ على قنوطٍ منكَ غوثٌ يمنُّ به اللطيفُ المستجيب
وكلُّ الحادثاتِ إذا تناهتْ فمقرونٌ بها فرجٌ قريب

فلا يأسَ ولا قنوط، ولا شك ولا تكذيب:

لا تيأسَنَّ من انفراج شديدةٍ قد تنجلي الغمراتُ وهي شدائدُ

هذا وصلوا على النبي المختار...

نعمة العافية(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

لك الحمدُ كلَّ الحمد يا بارئَ الورى ... ويا رازقَ المخلوقِ يا واسعَ الكَرمْ

لك الحمدُ بالإسلامِ دِينًا شرعتَهُ ... فأحياْ من الأخلاقِ ما رَمَّ وانهدم

لك الحمدُ بالقرآن دستورَ أُمةٍ ... به اصطُفِيتْ عمّا سواها من الأمم

لك الحمدُ بالمختارِ أحمدَ مُرسلاً ... أتاناْ بنورِ الحق يمحو دُجى الظُلَم

لك الحمدُ أنْ عافيتنا وكفيتَنا ... وأوليتنا-يا ربُّ- مِن سائرِ النِّعم

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٤٣٧/٥/٢٤هـ، ٢٠١٦/٣/٤م.

أيها المسلمون، إن نِعم المنعم الكريم على عباده غير معدودة، وأبوابَ آلائه ما زالت لهم مفتوحة غير مسدودة، وأصنافها متنوعة غير محدودة، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم:٣٤]، ألا وإن من أعظم النِّعم: نعمةَ العافية التي تعني: السلامة من كل مكروه في الدين والدنيا والآخرة، فعافية الدين: سلامة المؤمن من فتن الشبهات المضلة، وفتن الشهوات المحرمة، وعافية الدنيا: السلامة من كل ما يكدِّر العيش الدنيوي من الآلام والأسقام والأوجاع والأحزان، وعافية الآخرة: السلامة من غضب الله وناره، ونيلُ رضوانه وجنته.

عباد الله، إن العافية بمعناها العام مطلب ديني، ومطلب دنيوي، ومطلب أخروي؛ ولذلك كان لها بين المطالب الإنسانية أهمية عظيمة، ومكانة سامية.

فالعافية حسنة من حسنات الدنيا التي من وُهِبها نال خيراً كثيراً، وقد مثّل بعض المفسرين كقتادة وغيره للحسنة في الدنيا بالعافية والصحة، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[البقرة:٢٠١].

وقال النووي رحمه الله في شرحه على مسلم: "وأظهر الأقوال في تفسير الحسنة في الدنيا: أنها العبادة والعافية، وفي الآخرة الجنة والمغفرة، وقيل: الحسنة تعم الدنيا والآخرة"، وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد خفتَ فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: اللّهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه -! أفلا قلت: اللّهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي

الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار »؟ قال: فدعا الله له فشفاه(١).

والعافية -معشر المسلمين- من المطالب الكثيرة التي كان يدعو بها رسول الله ﷺ، ويأمر الناس ويوصيهم بسؤالها، فقد كان ﷺ يدعو بالعافية في الصلاة وغير الصلاة، ففي الصلاة كان من أدعية الاستفتاح: قوله ﷺ: -بعد أن يكبر عشراً ويحمد عشراً، ويسبح عشراً ويهلل عشراً، ويستغفر عشراً-: «اللّٰهم اغفر لي واهدني، وارزقني وعافني، أعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة»(٢)، وكان يدعو في الجلسة بين السجدتين فيقول: «اللّٰهم اغفر لي وارحمني، وعافني واهدني وارزقني»(٣)، وفي قنوت الوتر كان يقول: «اللّٰهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت...»(٤).

وكان ﷺ إذا أمسى أو أصبح لا يدَع هؤلاء الكلمات: «اللّٰهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة، اللّٰهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي، وأهلي ومالي، اللّٰهم استر عوراتي، وآمن روعاتي»(٥)، وعند النوم كان ﷺ يقول: «اللّٰهم أنت خلقت نفسي وأنت توفاها، لك مماتها ومحياها إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها، اللّٰهم إني أسألك العافية»(٦)، وعندما كان يزور القبور كان يقول لأهلها: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»(٧)، وكان من دعائه ﷺ: «اللّٰهم أمتعني بسمعي وبصري، حتى تجعلهما

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٤) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم، وهو صحيح.

(٥) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وهو صحيح.

(٦) رواه مسلم.

(٧) رواه مسلم.

الوارث مني، وعافني في ديني وفي جسدي»(١)، وكان ﷺ يعلّم أصحابه الدعاء بالعافية؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: «سلِ اللهَ العفو والعافية في الدنيا والآخرة»، ثم أتاه الغد، فقال: يا نبي الله، أي الدعاء أفضل؟ قال: «سلِ اللهَ العفو والعافية في الدنيا والآخرة، فإذا أُعطيت العافية في الدنيا والآخرة، فقد أفلحت»(٢)، وعن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللّهم اغفر لي وارحمني، واهدني وعافني وارزقني»(٣).

أيها الأحبة الفضلاء، إن العافية من أعظم عطايا الله للعبد، وأفضل قِسَمه له، فهي أفضل من الغنى والجاه والسلطان، ولا تطيب هذه الأشياء لأصحابها إلا بالعافية، قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه؛ فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»(٤). وعن عبد الله بن خُبيب الجهني، عن أبيه عن عمّه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنه لا بأس بالغنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خيرٌ من الغنى، وطيب النفس من النعم»(٥).

قال الشاعر:

إذا ما كساك اللهُ سِربالَ صحةٍ ... ولم تخلُ من قوتٍ يحِلُّ ويَقربُ
فلا تغبطنْ أهلَ الكثيرِ فإنما ... على قدْرِ ما يعطيهمُ الله يَسلب

(١) رواه الحاكم، وهو صحيح.
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، وهو صحيح.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي وابن ماجه، وهو حسن.
(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأحمد وابن ماجه، وهو صحيح.

فيا من فاته الملك أو الغنى وهو توّاق إلى ذلك، لا تحزن ما دمت معافى؛ فعندك كنز ثمين، قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله العفو والعافية؛ فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية»(١).

وقيل في الحِكَم: إن "العافية هي الملك الخفي"، فكم من أصحاب الرئاسة والجاه أناس يبحثون عن العافية، حتى إنهم يغبطون أهلها عند الموت، فعن قبيصة بن ذؤيب قال: "كنا نسمع نداء عبد الملك من وراء الحجرة في مرضه: يا أهل النعم، لا تستقلوا شيئاً من النعم مع العافية".

قال الشاعر:

لا تأسَ من دنيا على فائتٍ ... وعندكَ الإسلامُ والعافيه
إن فاتَ شيءٌ كنتَ تسعى له ... ففيهما من خلَفٍ كافيه

ويا أيها الفقير المعافى، احمدِ الله على نعمته العظيمة عليك، ولا تحسد الأغنياء على غناهم؛ فكم من غني بالمال فقير من العافية!، فماذا نفعه غناه وقد ذهبت عنه الصحة فحُرِم طعم الملذات، حتى صار لا يأكل إلا أطعمة معدودة، ولا يشرب إلا أشربة محصورة؛ ولهذا قيل: "صحة الجسم أوفر القِسم"، وقال حكيم: "إن كان شيء فوق الحياة فالصحة"، وقيل: "من أوتي العافية فظن أن أحداً أوتي أكثر منه فقد قلّل كثيراً، وكثّر قليلاً"، وقيل: "الدنيا بحذافيرها الأمن والعافية"، قال الشاعر:

إني وإنْ كان جمعُ المالِ يُعجبني ... فليس يعدلُ عندي صحةَ الجسدِ
في المالِ زينٌ وفي الأولادِ مكرمةٌ ... والسُقمُ يُنسيك ذِكْرَ المالِ والولد

---

(١) رواه الترمذي وأحمد، وهو صحيح.

عباد الله، بالعافية يجد المعافى طعمًا للطيبات والملذات، وبفقدانها لا يجد لها شيئًا من ذلك، بل إن المعافى يستطيب الطعام القليل، ويستحسن الزاد الرديء، وغير المعافى لا يجد لذة لألذ الملذات، ولا طعمًا لأطيب الطيبات، حجّ الحجاج فنزل مكانًا فدعا بغدائه، فقال لحاجبه: "انظر من يَتَغدى معي وأسألُه عن بعض الأمر؛ فنظر الحاجبُ فإذا هو بأعرابيٍّ بين شَمْلتين من شَعَرٍ نائم، فضربه برجليه وقال: ائت الأميرَ، فأتاه؛ فقال له الحجاج: اغسِلْ يدك وتَغَدَ معي، قال: إنه دعاني مَنْ هو خيرٌ منك فأجبته؛ فقال له الحجاج: من الذي دعاك؟. قال: اللهّ تعالى دعاني إلى الصوم فصُمت، قال: في هذا اليوم الحارّ! قال: نعم، صُمتُ ليوم أحرَّ منه، قال: فأفطِر وتصوم غداً؛ قال: إن ضمنتَ لي البقاءَ إلى غد، قال: ليس ذاك إلي، قال: فكيف تسألني عاجلاً بآجل لا تقدر عليه! قال: إنه طعامٌ طيب؛ قال: إنك لم تُطَيبه، ولا الخبّاز، ولكن طيّبته العافية".

أيها الأحبة، إن العافية لما كانت في هذه المنزلة السامية، ولها هذا الفضل العظيم؛ كانت من النعيم الذي يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة: ماذا عمل به؟، قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نُصِحْ لك جسمك، ونروِّكْ من الماء البارد؟!»(١)؛ ولهذا قال علي وابن عباس رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[التكاثر:٨]: "عن الصحة".

أيها المسلمون، إن نعمة العافية من أكثر النعم التي لا يقدرها كثير من الناس قدرها، ولا يشكرون الله تعالى عليها، ويظهر هذا التغافل والكفران في أقوالهم وأحوالهم، فكم من إنسان يرفل في ثوب العافية، ولكنه ينسى من كساه إياه!، ويتنعم بالنعمة فينسى المنعم بها عليه، فإذا ذهبت عافيته تذكر أنه كان في نعمة؛ ولذلك قيل:

---

(١) رواه الترمذي والحاكم، وهو صحيح.

والحادثاتُ وإن أصابكَ بؤسُها فهو الذي أنباكَ كيف نعيمُها

قال النبي ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»(١).

روي عن جعفر بن محمد أنه قال: "العافية موجودة مجهولة، والعافية معدومة معروفة"-وأراد بقوله: العافية موجودة مجهولة: أن الناس عرفوا العافية ولم يعرفوا قدرها حتى يُبتلوا، والعافية معدومة معروفة يعني: أن المبتلى ببلية يعدم معها العافية فحينئذ يعرف قدرها.

فالعافية لذة عظيمة قد لا يعرف ملتذُّها حلاوتَها إلا حين ذهابها، خلافًا لحاله في اللذات الأخرى التي يلتذ بها عند حضورها، وينساها عند غيابها.

وكم من إنسان يجاوز حدودَ النسيان إلى ركوب العصيان بعافيته، فيستثمر نعمة العافية في جسده وأحواله بترك الواجبات، وفعل المحظورات، فالصلاة إذا ذُكرت لم يكن من أهلها، وإذا دُعي إلى الواجبات الأخرى لم يُجب داعيَها!، ولكنه حينما تُذكر المعاصي التي تعتمد على العافية فإنه من رُوّادها والمسرعين إليها!.

وكم من الناس من يتربى في حضن العافية فلا تخطر بباله الآلام والبلايا؛ فلذلك يعيش ساخراً من أهل البلاء، غليظًا عليهم، غير راحم لهم، وكأن قطار البلاء لن يمر به فيركب عليه كما ركب غيره.

فما أحوجَ هؤلاء الغافلين تحت ظلال العافية إلى اليقظة؛ ليحرسوا هذه النعمة من هجوم البلاء الوشيك؛ بسبب غفلتهم عما يجب عليهم فعله وهم مطمئنون في حصن العافية، كان عبد الأعلى التيمي يقول: "أكثروا سؤال العافية؛ فإن المبتلى وإن اشتد

(١) رواه البخاري.

بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذي لا يأمن البلاء، وما المبتلَون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم، فما يأمن من أطال المقام على معصية الله أن يكون قد بقي له في بقية عمره من البلاء ما يحذره في الدنيا، ويفضحه في الآخرة".

عباد الله، إن نعمة العافية تبقى للإنسان ما دام من أهل التقوى الذين يتقون الله بفعل ما أمر، وترك ما نهى، وقد قيل: " من اتقى الله لبس العافية، وحمد العاقبة"، وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول: " من سرّه أن تدوم له العافية فليتقِ الله"، وكم لطاعة الله تعالى من آثار صحية على الروح والبدن في الدنيا والآخرة، فكم تحدّث الأطباء والعلماء عن الفوائد الصحية للعبادات ومنها: الصلاة والصيام، قال ابن القيم رحمه الله: " ولا ريب أن الصلاة نفسها فيها من حفظ صحة البدن، وإذابة أخلاطه وفضلاته، ما هو من أنفع شيء له، سوى ما فيها من حفظ صحة الإيمان، وسعادة الدنيا والآخرة، وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب، كما في "الصحيحين" عن النبي ﷺ أنه قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلّت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطًا طيّب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»".

ومن أسباب بقاء العافية: معرفة عِظم قدرها، وشكر معطيها سبحانه وتعالى، فمن عرف قدر النعمة حفظها، وأدى حق من منحه إياها، وجعله يسعى في استغلالها فيما ينفع، قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل

هَرَمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(١)، وفي البخاري: أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول: " وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك".

ومن أسباب بقاء العافية: النظر بعين الرحمة والإحسان لمن ذهبت عنهم هذه النعمة، فزيارة أهل البلاء، وقراءة أخبارهم، والإشفاق عليهم؛ تدفع من فعل ذلك إلى حراسة عافيته من أسباب الزوال، ورفدها بوسائل البقاء. روي عن عيسى عليه السلام -كما في كتاب الزهد لأحمد بن حنبل- أنه أوصى الحواريين بوصية منها قوله: "... والناس رجلان معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء في بليتهم، واحمدوا الله على العافية".

ومن أسباب بقاء العافية: الإكثار من الدعاء بالعافية، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً أسأل الله به، فقال: «يا عباس، سل الله العافية، ثم مكثت ثلاثاً، ثم جئت فقلت: علمني شيئاً أسأل الله به يا رسول الله، فقال: يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة»(٢)، وأتى رجلٌ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله، كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال: «قل: اللّهم اغفر لي وارحمني، وعافني وارزقني- ويجمع أصابعه إلا الإبهام- فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك»(٣)، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بقوم مبتلَين فقال: «أما كان هؤلاء يسألون العافية؟!»(٤)، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من رأى مبتلى فقال: الحمد لله الذي عافاني

(١) رواه الحاكم، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي وأحمد، وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البزار، وهو صحيح.

مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً؛ لم يصبه ذلك البلاء»[(١)]، لكن لا ينبغي إسماع المبتلى ذلك؛ مراعاة لمشاعره، قال إبراهيم النَّخعي: "كانوا يكرهون أن يسألوا الله العافية بحضرة المبتلى".

قال الشاعر:

رأيتُ البلاءَ كقَطرِ السَّما ءِ وما تنبت الأرضُ من ناميه
فلا تسألنَّ إذا ما سألـ ـتَ إلَهك شيئاً سوى العافيه

دعا رجل عقب صلاته فقال: "اللّهم عافني في نفسي؛ فإنها أعز الأنفس إلي، وفي أولادي؛ فإنهم لحمي ودمي، وفي عشيرتي؛ فإنهم ناصري وعزي، وفي جماعة المسلمين؛ فإن صلاحي لا يتم إلا بصلاحهم، اللّهم استودعك ما أحاطت به شفقتي وعجزت عنه قوتي".

ذكر الإمام أحمد في الزهد عن أبي العالية قال: "أكثر ما كنت أسمع عمر بن الخطاب ﷺ يقول: اللّهم عافنا، واعف عنا".

ومن أسباب بقاء العافية: استعمال الأسباب المادية الواقية، واستعمال الكفاية من الطعام والشراب والكساء والدواء، قال ابن القيم ﵀: " ولما كانت الصحة والعافية من أجلِّ نعم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجلّ النعم على الإطلاق، فحقيقٌ لمن رزق حظًا من التوفيق مراعاتها وحفظها، وحمايتها عما يضادها"، وسمع بعض أهل العلم رجلاً يدعو بالعافية فقال له: "يا هذا، استعمل الأدوية، وادع بالعافية؛ فإن الله تعالى إذا كان قد جعل إلى العافية طريقًا وهو التداوي

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

ودعوتَه بالعافية؛ ربما كان جوابه: قد عافيتك بما جعلته ووضعته سببًا للعافية".

عباد الله، إن المسلم إذا رُزِق العافية في دينه ودنياه وآخرته؛ فقد رزق خيراً وفيراً، ففي الدنيا والدين يظهر أثر ذلك الرزقِ الحسنِ في راحته واطمئنانه، وصلاح عيشه واستقامة أحواله، وحسن عبادة ربه، وأداء حقوق خلقه، وفي الآخرة يظهر أثر ذلك في نجاته من سخط الله وعقابه، والفوز بدار كرامته.

فمن أوتي ذلك فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولو الألباب. اللّٰهم إنا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة. أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، الواحد الأحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، إن عافية الدنيا قد لا تستمر ولا تدوم؛ لأن تمام تلك النعمة بلا منغصات لا يكون في هذه الدار، بل في جنة الله في دار القرار.

روي عن علي بن أبي طالب رضي الله أنه قال: "لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين: العافية والغنى، بينا تراه معافى إذ سقم، وبينا تراه غنياً إذ افتقر". ولعل في غروب بعض العافية خيراً للعبد، فمن خير ذلك الغروب: أنه يذكّره بعظم هذه النعمة فيشكر الله تعالى عليها، فكم من إنسان لا يعلم فضل الشمس إلا حين تشرق وحين تغيب.

وقد كان يقال: "لا خير في بدن لا يُنكأ، ولا في مال لا يُرزأ"، وقيل: " لا يعرِف طعمَ النعمة إلا من نالته يد العلة والبلاء"، وقيل: "شيئان لا يعرِف فضلَهما إلا مَن فقدهما: الغنى والعافية".

ومن وجوه الخير لذهاب بعض العافية: حصول عبادة الصبر لمن صبر، فكم لأهل الصبر على البلاء من الأجور العظيمة عند الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة -حين يُعطى أهل البلاء الثواب- لو أن جلودهم كانت قُرِضتْ في الدنيا بالمقاريض»(١).

ومن الفوائد كذلك: أن ذلك يكسر كبرياء النفس وبطرها، ويجعلها ترحم أهل البلاء، وتحسن إليهم.

---

(١) رواه الترمذي، وهو حسن.

نظر إبراهيم بن آدهم إلى رجل قد أُصيب بمال ومتاع كثير وقع الحريق في دكانه، فاشتد جزعه حتى خولط في عقله، فقال له: يا عبد الله، إن المال مال الله، متعك به إذ شاء، وأخذه منك حين شاء، فاصبر لأمره ولا تجزع؛ فإن من تمام شكر الله على العافية: الصبرَ له على المصيبة، ومن قدّم وجد، ومن آخر فقدَ وندم. فيا من ابتُلي فصبر، أبشرْ. ولا تحزن؛ فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر:١٠].

لكن هذه الفضيلة لأهل البلاء لا تدعو إلى طلب البلاء وتمنيه؛ فإن الخير في العافية مع الشكر، قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»(١)، وقال ﷺ: «إن السعيد لمن جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، ولَمن ابتلي فصبر فواهاً»(٢).

قال مطرف بن عبد الله: " نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة، ولأن أُعافى فأشكر؛ أحب إلى من أن أُبتلى فأصبر".

فاللهم عافنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا.

هذا وصلوا على البشير النذير...

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود، وهو صحيح.

المرض والمرضى

حِكَم وأحكام(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى خلق هذه الدنيا فجعلها دار تكليف بالعمل الصالح فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[الملك:٢].وقد قضى الله عز وجل بأن يرافق ذلك التكليفَ ابتلاءٌ بالمكروهات؛

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ٢٣/١٠/١٤٣٧هـ، ٢٩/٧/٢٠١٦م.

لكي يرجع الناس إلى ربهم، وينشطوا للاستعداد بالعمل ليوم الجزاء، وحتى لا يركنوا إلى حياة الدعة والرخاء فينسيهم ذلك الدار الآخرة.

ألا وإن من صور الابتلاء بالمكروهات: الابتلاء بالأمراض والأوجاع التي تصيب البدن فتقعده عن نشاطه وسلامة حركاته، وتفقده الراحة والاستمتاع بحياته.

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[الأنبياء:٣٥].

قال: "ابن عباس: ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال"(١).

فبينا يُرى الإنسان متقلِّبًا في أعطاف العافية نشيطًا مبتسمًا متحركًا، يأكل ما يشاء ويشرب ما يشاء، وينام متى يشاء، ويذهب أينما يشاء؛ إذا به يهجم عليه مرض من الأمراض فيذبل بعد حيويته، ويعبس بعد بسمته، ويقعد بعد حركته، ويفتر بعد نشاطه، ويعاف مأكله ومشربه ومنامه، ويصبح طريح الفراش، تملأ المكان أصواتُ وجعه وألمه.

عباد الله، إن الله تعالى ذو حكمة بالغة، فلا يكون في قضائه شر ولا عبث، ولا تقدير فارغ من الحكمة.

فالمرض النازل بالخلق قضاء مشتمل على حكم كثيرة، فمن تلك الحكم:

أن المرض يرد المخلوقَ إلى خالقه، والعبد إلى معبوده وسيده؛ فالصحة قد تنسيه العبودية فيلهو عن الله بغيره، ويتعلق قلبه بسواه، فيزوره المرض ليقول له: ارجع إلى

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٤٢).

ربك، وتعلّق به، وانشغل به ولا تنشغل عنه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾[الأعراف:٩٤]. " يعني: { بِالْبَأْسَاءِ }ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام. { وَالضَّرَّاءِ} ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك {يَضَّرَّعُونَ}يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم"(١).

ومن حكم تقدير المرض: أن المرض يعرّف الإنسان ضعفه وعجزه، فمهما كان قويًا قادراً يمتلك أسباب العافية فإن المرض يحط رحاله عنده رغم أنفه؛ لكي يعلمه بأنه عبد ضعيف عاجز يحتاج إلى مولاه المعبود القوي القادر؛ ليستمد منه قدرة وقوة.

ومن حكم تقدير المرض: أنه يزهّد الإنسان عن الدنيا ويرغبه في الآخرة، بحيث يجعله يشتاق إلى الجنة فيسارع إلى العمل لها، ويباعده عن الانشغال بالدنيا المحفوفة بالأكدار والأحزان.

ومن حكم تقدير المرض كذلك: أن المرض يعلّم الإنسان دروس الرحمة والعطف على المرضى، فمن مرض ووجد ألم الوجع فإنه سيحس بأوجاع الآخرين، فإذا اعتبر فسيسرع إلى رحمة المرضى ومد يد الإحسان إليهم.

أيها المسلمون، إن المرض ينزل على الإنسان صغيراً وكبيراً، غنيًا وفقيراً، مسلمًا وكافراً. غير أن المرض في المؤمن الصابر يكون نعمة لا نقمة، وخيراً لا شراً، ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[النساء:١٩].قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٩).

شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»(١).

وتتجلى الخيرية والنعمة بالمرض في حق المؤمن: بكون المرض يستخرج من المؤمن عبودية الصبر والرضا بأقدار الله تعالى، والصبر من أعظم العبادات التي تربي النفس وتصقلها من شوائب الضعف والعجز والكذب، وترقيها إلى مراتب الصفاء.

والمرض يستخرج من العبد عبودية التضرع والابتهال بين يدي الله تعالى، فيدعو العبد السقيم دعاء صادقًا حاراً تكاد نفسه أحيانًا أن تخرج مع كل كلمة من شدة مناداته، ومن عظم الحاجة إلى إجابة دعواته. ومن ذلك الدعاء: الدعاء بالأدعية الواردة عن رسول الله ﷺ في المرض، فعن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أسلم. فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله. ثلاثًا. وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر» قال عثمان: قال: ففعلت ذلك فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر بها أهلي وغيرهم(٢).

والمرض إذا نزل بالمؤمن فصبر عنده كان سببًا لتكفير خطاياه، قال النبي ﷺ: «ما يصيب المؤمنَ من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»(٣). وقال رسول الله ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»(٤).

عباد الله، إن المرض زار خيرَ الناس: الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام فما وجد

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم ومالك.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الترمذي والحاكم، وهو صحيح.

عندهم إلا الصبرَ والرضا؛ فقد ابتُلي أيوبُ عليه السلام بالمرض الشديد فكان الصبر له عنوانًا، حتى ضُرب بصبره المثل، فما جزع ولا سخط، بل كان عبداً صابراً محتسبًا، وبذلك أثنى الله تعالى عليه، قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾[الأنبياء:٨٣-٨٤]، وقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾[ص:٤٤].

ورسولنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم مسّه السقم، وذاق مرارة الألم فلم يتضجر ولم يتسخط.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه وهو يوعك وعكًا شديداً وقلت: إنك لتوعك وعكًا شديداً!- وقوله: توعك أي: يصيبك الألم والتعب من الحمى- قلت: إن ذاك بأن لك أجرين؟ قال: «أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، قلت: ذلك أن لك أجرين، قال: أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»(١).

وفي مرض موته صلى الله عليه وآله وسلم نزل به من ألم مرض الموت ما نزل، قال أنس رضي الله عنه: لما ثقل النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل يتغشاه، فقالت فاطمة رضي الله عنها: وا كرب أباه! فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»(٢).

أيها الأحبة الفضلاء، إن على المسلم أن لا يحرص على المرض طلبًا للأجر، واختباراً للنفس على الصبر، بل العافية مع الشكر أفضل له من البلاء بالمرض، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

فاصبروا»[١].

فلهذا كان على المسلم أن يقي نفسه أسباب المرض، ويتخذ الوسائل الواقية من نزول السقم، والعملُ بالأسباب من التوكل على الله تعالى.

ولكن إذا نزل القدر بطل الحذر، فمتى قُدِّر على الإنسان حصول المرض فنزل به؛ فإن عليه:

أولاً: أن يصبر على مُرِّ ما نزل به، ولا يضجر مما حل به؛ فالخير فيما اختاره الله، ولا فرارَ مما قضى الله تعالى، ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:٥١].

وثانيًا: أن على المريض المسلم أن يحسن الظن بالله تعالى، ويعلم أن الله تعالى أراد له بذلك الخير: تكثيراً لحسناته، وتكفيراً لسيئاته، ورفعًا لدرجاته، وذلك من أمارات إرادة الخير له، قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يُصبْ منه»[٢].

وثالثًا: على المريض المسلم أن لا يسب المرض؛ لأنه قضاء الله، ولأن عاقبته حميدةٌ له في العاجل والآجل. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل على أم السائب أو أم المسيب فقال: «ما لك يا أم السائب أو يا أم المسيب تزفزفين؟!-يعني: ترتعدين-». قالت: الحمى، لا بارك الله فيها. فقال: «لا تسبي الحمى؛ فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد»[٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه مسلم.

رابعًا: على المريض أن يسعى في التداوي إن أراد، بالرقية الشرعية أو بالعقاقير والأدوية الطبية، قال النبي ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»(١). وقال: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل»(٢). وفي السنن وعند أحمد: (تداووا عباد الله).

ومن الدواء: الدعاء بالشفاء؛ كدعاء: اللّهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار، فمن حسنات الدنيا: العافية، فعن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفتَ فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللّهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله لا تطيقه - أو لا تستطيعه-! أفلا قلت: اللّهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار؟» قال: فدعا الله له فشفاه(٣).

أيها المسلمون، إن المرض نقص وضعف وعجز يصيب الإنسان؛ مما يدعو إلى رحمة المريض والعناية به، والإحسان إليه؛ ولذلك اعتنت الشريعة الإسلامية بالمريض عناية خاصة، فمن وجوه ذلك: ما شَرعت له من رخص التيسير في الأحكام الشرعية في حال مرضه، ففي الطهارة يجب على المسلم الصحيح أن يتطهر من الحدثين بالماء: الاغتسال في الحدث الأكبر، والوضوء في الحدث الأصغر، ولكن إذا مرض فصار استعمال الماء يضره فإن الله تعالى قد شرع له استعمال التراب-تيممًا- بدل الماء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[النساء:٤٣]. وإذا كان على بعض أعضائه جبيرة يضرها استعمال الماء مسح عليها وغسل بقية أعضائه.

وفي الصلاة أمر المسلم أن يأتي بأركانها كما هي من قيام وركوع وسجود واعتدال وغيرها، فإذا كان المسلم مريضًا لا يستطيع القيام فيصلي قاعداً، فإن لم يستطع صلى على جنب، فإن لم يستطع صلى على الحال التي يقدر عليها، ولا تسقط عنه الصلاة مادام عقله موجوداً، والمرض لا يُسقِط الصلاة ولكن يخففها، خلافًا لما يفعله بعض المرضى إذ يتركون الصلاة مطلقًا بسبب المرض وهم قادرون عليها على حال من الأحوال السابقة، وهذا منكر عظيم.

وفي الصيام: اشتُرِطَ في وجوبه على المسلم -مع بقية الشروط-: السلامةُ من المرض، فإذا كان المسلم مريضًا مرضًا يشق عليه الصيام معه شرع له أن يفطر ويقضي بعد ذهاب علته، فإن كان مرضه مزمنًا لا يمكن معه الشفاء أطعم بدل الصيام، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴿١٨٤﴾﴾[البقرة:١٨٤].

وهناك تخفيفات شرعية كذلك عن المريض في أبواب أخرى. وهذا كله يدل على أن شريعتنا السمحاء تراعي أصحاب الأعذار، وتبني أحكامها على اليسر ودفع المشقة. نسأل الله لنا ولكم ولجميع المسلمين العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله المعبود في أرضه وسمائه، والصلاة والسلام على سيد أنبيائه، وعلى آله وأصحابه خيرةِ أوليائه. أما بعد:

أيها الناس، وكما أن الشريعة الإسلامية اعتنت بالمريض في الأحكام الشرعية: أحيانًا بتغيير صفة العبادة وأحيانًا أخرى بالأسقاط لبعضها؛ فهي كذلك دعت المسلمين إلى العناية بالمرضى ورعايتهم، فمن صور ذلك: الحث على زيارتهم والاطمئنان على صحتهم، وقد جعل ديننا الحنيف عيادة المسلم لأخيه المسلم حال مرضه حقًا من حقوق المسلمين بعضهم لبعض، قال رسول الله ﷺ: «حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام وعيادة المريض...»(١).

وجعل زيارة المريض من أسباب استغفار الملائكة للزائر، قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عاد عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح، وكان له خريف في الجنة»(٢). وأيضًا: جعل زيارته من الأعمال التي يجنى منها الثواب العظيم.

قال رسول الله ﷺ: «عائد المريض في مخرفة الجنة حتى يرجع»(٣).

يعني: "العائد فيما يحوزه من الثواب كأنه على نخل الجنة يخترف ثمارها من حيث إن فعله يوجب ذلك"(٤).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي، والحاكم، وهو صحيح.

(٣) رواه مسلم.

(٤) فيض القدير (٤/ ٢٩٦).

عباد الله، عيادة المريض -كما سمعتم- عمل عظيم، لكن ينبغي أن يتسم بالآداب التي يحصل بها الثواب، وينتفع بها المريض، فمن الآداب أن على العائد: أن يختار الوقت المناسب للمريض وأهله؛ حتى لا يشق عليهم.

وأن لا يكثر من الزيارة، إلا إذا أحب المريض ذلك من غير حرج، وإذا وصل إليه دعا له بالشفاء، وتكفير ذنوبه بسبب المرض، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من عاد مريضًا لم يحضر أجله فقال عنده -سبع مرات-: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك، إلا عافاه الله من ذلك المرض»(١).

وعنه أن النبي ﷺ كان إذا دخل على مريض يعوده قال: «لا بأس، طهور إن شاء الله»(٢).

ويستحب له نصحه بالصبر والاحتساب، ومساعدته إن احتاج إلى مساعدة.

نسأل الله أن يديم علينا جميعاً وعلى جميع المسلمين نعمة الصحة والعافية، وأن يشفي مرضى المسلمين شفاء عاجلاً غير آجل، شفاء لا يغادر سقمًا.

هذا وصلوا وسلموا على خير البشر...

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان، وهو صحيح.

(٢) رواه البخاري.

الطب والأطباء

آداب ووصايا(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق القيل قيلُ الله، وخير الهدي هدي رسول الله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، إن الجسم الإنساني ذو شأن عظيم، وله عند الله تعالى وعند الإنسان قدر كريم، فهو الذي تقوم عليه العبادة التي بها صلاح الدنيا والآخرة، وبه تعمر الحياة، ويصلُح عيش الإنسان في هذه الدنيا.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في: ١٤٣٧/١١/٢هـ، ٢٠١٦/٨/٥م.

ولما كان كذلك فإن الإنسان العاقل يحافظ عليه بالسعي إلى تحصيل أسباب بقائه ونمائه، والبعد عن عوامل عِلله وفنائه.

وقد جاءت الشرائع السماوية فكان من مقاصدها العظمى: الحفاظ على الجسد الإنساني من كل ما يؤذيه إنْ عاجلاً وإن آجلاً.

ومما يدل على هذا: أن الله تعالى نهى عن الاعتداء على نفس الإنسان من قبل صاحبها، أو من قبل غيره، قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[النساء:٢٩]. وقال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الأنعام:١٥١].

فإذا حصل الاعتداء على النفس المعصومة- بجَرح أو قتل فإن الجاني عليها ينتظره القصاص أو الديات.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾[البقرة:١٧٨].وقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[المائدة:٤٥].

ومن نظر إلى دية الاعتداء على جسم الإنسان في الجراح والنفوس في الإسلام سيجد أن الجسد الإنساني ثمين جداً، فدية النفس: مائة من الإبل، ودية: العينين مائة، ودية الأذنين: مائة، ودية الرجلين: مائة، ودية اليدين مائة كذلك، إلى آخر ما يُذكر في كتاب الديات عند الفقهاء من التقديرات للدية والأروش والحكومات في حال الاعتداء على أعضاء جسم الإنسان ومنافع تلك الأعضاء.

عباد الله، وكما أن الشرع حمى الجسد الإنساني من الاعتداء عليه بما ذُكر سابقًا من العقوبات على الجُناة؛ فإنه أمر الإنسان بالمحافظة على جسمه بالغذاء والدواء، وبهما

تستمر الحياة الجسمية له إلى الأمد الذي كتبه الله له في هذه الدنيا.

ففي الغذاء يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف:٣١]. "قال علي بن الحسين بن واقد: "قد جمع الله الطب كله في نصف آية فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾[(١)].

وفي الدواء جاء الحث من نبينا ﷺ على التداوي بالدواء المعنوي، وبالدواء الحسي؛ فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، أفنتداوى؟ قال: «نعم، يا عباد الله، تداووا؛ فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد: الهرم»[(٢)].

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا نرقي في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: (اعرضوا على رُقاكم، لا بأسَ بالرُّقى ما لم يكن فيها شرك)[(٣)].

غير أن الغذاء متى ما كان ملائمًا للاستشفاء: قدراً وصفة وظرفًا فهو أولى من استعمال الدواء الحسي، قال الشوكاني: قال ابن رسلان: " وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالأخف لا ينتقل إلى ما فوقه، فمتى أمكن التداوي بالغذاء لا ينتقل إلى الدواء "[(٤)].

أيها المسلمون، إن النفس البشرية تقوم على ركنين أساسيين هما: الروح والبدن، فالروح علاجها: وحيُ السماء، والبدن علاجه: الغذاء والدواء.

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٢٢٥).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد والترمذي وأبو داود، وهو صحيح.

(٤) نيل الأوطار (٩/ ٧٩).

فعلوم الشريعة بما فيها من الهدى والنور هي دواء الأرواح، وأما الأبدان فدواؤها في علم الطب، ولهذا كان أفضل العلوم -بعد علوم الشريعة-: علم الطب البشري؛ لأنه يحافظ على الركن الثاني من ركني حياة النفس البشرية. قال الشافعي رحمه الله: " العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان". وقال أيضاً: "لا أعلم علماً -بعد الحلال والحرام- أفضل من الطب"[1].

فلهذا ينبغي للمسلمين الاعتناء بالطب اعتناء عظيمًا؛ لما له من أهمية كبيرة في الحياة البشرية.

فالإسلام أولى الطب عناية كبيرة في جوانب متعددة، كان من أبرزها: دلالته على أدوية نافعة زخرت بها نصوص السنة النبوية؛ ولذلك ذكر أصحاب الصحاح والسنن في كتب الحديث النبوي أحاديث عن رسول الله تتحدث عن قضايا طبية جعلوها تحت عنوان: كتاب الطب.

ولابن القيم رحمه الله كلام كثير نفيس عن الطب في السنة النبوية جعله تحت عنوان: الطب النبوي، في كتابه العظيم" زاد المعاد في هدي خير العباد" حريٌّ بالقراءة والمطالعة.

فمن الأدوية المعنوية التي كان يستعملها رسول الله ﷺ ويحث عليها ويقرّها: الرقية بالقرآن الكريم والأدعية المشروعة، فعن عائشة رضي الله عنها: (أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح

---

(١) الأحكام الشرعية والطبية للمتوفى في الفقه الإسلامي (ص: ٨٤).

بيده رجاء بركتها)[١].

وقوله ﷺ لأبي سعيد رضي الله عنه عندما رقى بالفاتحة سيد الحي فبرئ: (وما يدريك أنها رقية)؟[٢] على سبيل الإقرار.

قال ابن القيم: " ولقد مر بي وقت بمكة سقمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها -يعني: الفاتحة- آخذ شربة من ماء زمزم وأقرؤها عليها مراراً ثم أشربه فوجدت بذلك البرءَ التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع فأنتفع بها غاية الانتفاع "[٣].

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[الإسراء:٨٢].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يرقي بهذه الرقية: «أذهبِ الباس ربَّ الناس، بيدك الشفاء لا كاشف له إلا أنت»[٤].

ومن الأدوية التي حث عليها رسول الله ﷺ: الحبة السوداء، قال رسول الله ﷺ: «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام -يعني: الموت-»[٥].

ومن ذلك أيضًا: العسل والحجامة، والكي -مع كراهته، من غير تحريم على الصحيح، قال النبي ﷺ: «الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٦٢).

(٤) رواه مسلم.

(٥) متفق عليه.

بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكي»[١].

ومن الأدوية النبوية: التمر، ومنه العجوة، قال رسول الله ﷺ: «من تصبّح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر»[٢].

ومن ذلك كذلك: العود الهندي والقُسط البحري، قال النبي ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْعُودِ الْهِنْدِيِّ؛ فَإِنَّ فِيهِ سَبْعَةَ أَشْفِيَةٍ: يُسْتَعَطُ بِهِ مِنْ الْعُذْرَةِ، وَيُلَدُّ بِهِ مِنْ ذَاتِ الْجَنْبِ»[٣][٤].

وقال النبي ﷺ: «إن أفضل ما تداويتم به: الحجامة، والقُسط البحري»[٥].

هذه بعض الأدوية النبوية، وهناك منها سواها. غير أن هناك دواءً عظيمًا يشفي من الأمراض الحسية والمعنوية: ألا وهو أداء عبادة الله تعالى، فالروح إذا صلحت أهدت إلى البدن صحة ووقاية، فالمسلم حينما يحافظ على الطهارة ومنها: الوضوء والسواك، ويحافظ على الصلاة بصفتها الصحيحة، ويكثر من صيام النافلة، ويتحلى بالعفاف، ويتمسك بالأخلاق الحميدة، ويتعامل المعاملة المشروعة في بيعه وشرائه؛ فإن هذا يورثه عافية ووقاية وعلاجًا.

أيها الأحبة الفضلاء، وأما الطب التجريبي فقد اهتم به البشر على اختلاف

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) العذرة: وجع في الحلق يهيج من الدم، وقيل: قرحة تخرج بين الأنف والحلق، ولعله ما يسمى الآن بالتهاب اللوزات. يلد: من اللدود وهو ما يصب في أحد جانبي الفم من الدواء . ذات الجنب: هو ورم الغشاء المستبطن للأضلاع " من تعليق: د. مصطفى ديب البغا على صحيح البخاري (٥/ ٢١٥٥). ويستعط: من السعوط وهو صب الدواء في الأنف، حاشية السندي على ابن ماجه (٦/ ٤١٠).

(٥) متفق عليه.

عصورهم وأديانهم وأوطانهم اهتمامًا كبيراً؛ وذلك لحاجتهم الضرورية إليه. وقد ظلوا في تطور مستمر حتى عصرنا وهم يكتشفون يومًا بعد يوم علاجًا جديداً، وتطويراً لعلاج قديم، وتصحيحًا لخطأ طبي سابق.

ولأجل هذا تعلموا هذا العلم، وصنعوا الأدوية، وفي عصرنا أُنشئت الجامعات والكليات والمعاهد؛ لتخريج الأطباء ومساعديهم، وقامت شركات التصنيع الدوائي.

وقد كان للمسلمين دور بارز في هذا العلم؛ فما زالت الدراسات الطبية الحديثة تعتمد على ما خلفه الأطباء المسلمون السالفون من نظريات وأدوية وآلات طبية. ولكن الحقيقة تقول: إن مقود هذا العلم بيد غير المسلمين إلى اليوم في جميع المجالات الطبية.

أيها الإخوة الكرام، ما مضى حديث يسير عن الطب، وأما رَبُّ هذا الفن فهو الطبيب، ذلك الرجل العظيم الذي علّمه الله تعالى هذا العلم الشريف؛ ليحفظ به أجسادنا، ويخفف به من آلامنا.

والذي يهمنا من هذا هو الحديث عن أخينا الطبيب المسلم الذي ينبغي له أن يستشعر عِظم منّة الله تعالى عليه بهذا العلم الذي يقدم به مصلحة عظيمة لإخوانه المسلمين، فكم يفرج الله به من كربة، ويسكِّن به من ألم، ويطفئ به من وجع، حتى يعيد بفضل الله إلى الجسم نشاطه؛ ليعبد الله تعالى، ويقوم بمصالح دنياه.

فعلى الطبيب: أن يشكر الله على هذه النعمة وينوي بها التقرب إليه، ويحتسب عمله الطبي عبادة من العبادات. وعليه أن يكون أمينًا في عمله، فلا يغش مرضاه، أمينًا على أسرارهم الجسدية فلا يفشيها، وأن يكون حسن الأخلاق مع مرضاه، رفيقًا بهم،

صابراً عليهم، ناصحاً أميناً لهم.

وأن يكون: متقنًا لعمله وتخصصه حتى لا يخطئ في وصف حالة المريض، وفي نعت الدواء له. وأن يبقى على اطلاع مستمر على الأبحاث الطبية المستجدة، والأدوية الحديثة، فيكثر من القراءة والبحث في مجال تخصصه؛ لأن الطب في تطور دائم. وعليه كذلك: أن لا يقحم نفسه فيما لا يعرف؛ فليس كل طبيب يداوي كل مرض، بل عليه أن يبقى في تخصصه وما يحسنه فيه، ولا يتجاوز ذلك إلى تخصص غيره.

والطبيب المسلم يعتقد أن الشافي هو الله تعالى وحده، وليس الشفاء بيده هو، وهذا يورثه الاستعانة بالله دائمًا؛ طلبًا للتوفيق، ويجعله كذلك متواضعًا غير متكبر على الناس بمهنته.

ومن الأمور المهمة التي ينبغي أن تتوفر في الطبيب المسلم: أن يكون عنده فقه شرعي في مجاله الطبي؛ حتى يعلم الحلال من الحرام في عمله، ومن ذلك: أن تكون عنده معرفة شرعية بأحكام الطهارة والصلاة والصيام والموت، والنظر والجنايات والجراح، وغير ذلك.

وهذا الفقه الشرعي لا يُدرس في الكليات الطبية، وللأسف، مع أن بعضه قد يكون من الواجب على الطبيب المسلم معرفتُه؛ فلذلك عليه أن يحصل هذه المعرفة الشرعية بالدراسة أو القراءة أو البحث والسؤال لأهل العلم.

أيها الأفاضل، إن الطبيب المسلم يمارس عمله الطبي تحت مظلة الإسلام التي يتلقى فيها تعاليمه النيّرة فيعمل المباح، ويترك المحظور. فالطبيب المسلم لا يعالج مرضاه بما حرم الله تعالى عليهم، ولا يقوم بعمل طبي محرم ولا يعين عليه؛ مثل ما يسمى بقتلِ الرحمة، والإجهاض المحرَّم، والجراحات التجميلية غير المشروعة، وغير

ذلك.

والطبيب المسلم لا يتخذ من مهنته عملاً تجاريًا يبتز به أموال المرضى من غير حق؛ كأن يتفق مع شركة طبية أو صيدلية على تصريف دواء معين من غير حاجة ذلك المريض لذلك الدواء في مرضه، أو يقرر للمريض إجراء عملية جراحية، وكان يمكن علاجه بغير العملية التي تطلب منه المال الكثير.

والطبيب المسلم شاهدُ عدل وصدق، فلا يزور التقارير الطبية، ولا يصف الحالة المَرضية على خلاف ما هي عليه.

والطبيب المسلم عفيف شريف، بعيد عن الحرام مع الجنس الآخر؛ فلا يعالج في مشفاه النساءَ مع وجود طبيبات لعلاج ذلك المرض، إلا في حال انعدامهن، أو في حال الضرورة التي تستدعي تدخله الطبي، وهو في علاجه للنساء في تلك الحالات يراقب الله تعالى فلا يخلو بالمريضة إلا ومعه غيره، ولا يطلب منها كشف مكان من جسدها زائدٍ عن موضع العلاج، ولا ينظر من المريضة إلا إلى ما يستدعي النظر الطبي إليه. والخطاب كما هو للطبيب المسلم هو للطبيبة المسلمة كذلك، كما أن عليها أن تحافظ على عفافها وحجابها وحشمتها، وأن تبعد عن نفسها كلَّ ريبة.

فهذه بعض الآداب والوصايا التي تحتاجها -أخي المسلم- إذا كنت ممن يعمل في المجال الطبي.

وبهذه الآداب الإسلامية والأخلاقية والمهنية تربح الدين والدنيا في مهنتك الطبية.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، إن الطب لما كان ذا أهمية عظيمة في الحياة الإنسانية، وصار أكثره وأحسنه بأيدي غير المسلمين؛ كان على المسلمين الاهتمام الكبير بهذا العلم، وإيلاؤه عناية عظيمة؛ حفاظًا على أجساد المسلمين، وتحرراً من أيدي غيرهم.

فمن وسائل الاهتمام: إنشاء الجامعات الطبية الراقية في جميع التخصصات، وتطويرها وتزويدها بالأجهزة الحديثة المواكبة للتطور الطبي الحديث.

ومن وسائل الاهتمام: جلب الطلاب النابغين إلى هذه الجامعات، وتأمين حياتهم الدراسية والمعيشية؛ لكي يفرغوا تفكيرهم ووقتهم وجهدهم لدراستهم؛ كي يبدعوا في تخصصاتهم.

وهذا سيحفظ عقول الطلاب من الانسلاخ الفكري الذي يعود به بعض الطلاب والطالبات الدارسين في بعض بلاد الكفر.

ومن الوسائل كذلك: اختيار الأطباء الأكاديمين الأكفَاء الذين يقومون بتدريس أولئك الطلاب المختارين.

ومن الوسائل أيضًا: بناء المستشفيات والمختبرات الطبية العملاقة المزودة بالأجهزة الحديثة، والأطباء والفنيين المبدعين في تخصصاتهم؛ حتى يكتفي المسلمون بذلك؛ لكي لا يضطروا إلى السفر إلى بلاد الكافرين.

ومن وسائل الاهتمام: الاعتناء بالحياة المعيشية الكريمة للأطباء المسلمين التي تؤمّن لهم حياة مستقرة تجعلهم يتقنون عملهم الطبي، ويزدادون معرفة في تخصصاتهم، ويؤثرون البقاء في بلاد المسلمين.

لأن توفير الحياة الكريمة للطبيب المسلم: يحرسه من الإغراءات الغربية التي تعرض على الأطباء المتميزين؛ لكي يغادروا من البلدان الإسلامية إلى الغرب مقابل الحياة المعيشية الرغدة المغرية، وكم قد هاجر من أطباء المسلمين إلى هناك وصار لبعضهم شهرة طبية عالمية.

أخيراً: على وزارة الصحة في بلاد المسلمين أن تراقب بعناية فائقة صادقة، وتتابع متابعة تامة متواصلة المشافي والعيادات والمختبرات والصيدليات والشركات الطبية؛ حرصًا على سلامة المسلمين.

فهناك ناس متطببون يعبثون بأجسام الناس، ولدى بعضهم شهادات مزورة، وهناك أخطاء طبية فادحة أودت بحياة بعض الناس أو أسلمتها إلى الإعاقة.

ولذلك كانت في الشريعة الإسلامية وكذا في القوانين الطبية ضمانات جنائية، ومساءلة قضائية في حال حصول الأخطاء الطبية التي جاءت بسبب الجهل الطبي أو الإهمال الدوائي.

قال رسول الله ﷺ: «من تطبب ولم يُعلم منه طب فهو ضامن»[(١)].

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، وهو حسن.

تفريجُ الكُروب(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

طُبِعتْ على كدرٍ وأنتَ ترومُها صفواً من الأقذارِ والأكدارِ
ومكلِّفُ الأيامِ ضدَّ طباعِها متطلِّبٌ في الماءِ جذوةَ نار

لا رخاء إلا ويعقبه بلاء، ولا راحة إلا ويتلوها تعب، ولا سرَّاء إلا تتبعها ضراء، ولا صحة إلا حُفّت بالسقم، ولا بسمة ارتياح إلا ستجيئ بعدها دمعة ألم.

هذه-أيها الناس- حقيقة الدنيا التي لا تُنكر، وقانون الحياة الذي لا يجحد، فمن

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١٤٣٢/٦/٣هـ، ٢٠١١/٥/٥م.

عاش في الدنيا فلن يسلم من كربة خفيفة أو ثقيلة، وقد تزول عنه وقد تطول معه. فمن لكروبنا، ومن لهمومنا، ومن لأوجاعنا، ومن لأحزاننا؟

فمَن لكروبٍ في الحياةِ تعدَّدتْ وضاقتْ بها النفسُ الكريمةُ في الورى

فليس لها فوقَ البسيطةِ كاشفٌ سوى اللهِ ربِّ العالمين بلا مرا

هذه هي الحقيقة: أن الكروب لا يزيلها إلا علام الغيوب، وقد أيقن بهذه الحقيقة بعض المشركين في الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام:٦٣-٦٤]، وقال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[العنكبوت:٦٥].

هذه حال بعض المشركين في الأمس، وأما حال بعض المسلمين اليوم فإنهم إذا مسهم الكرب تركوا الرب وتضرعوا بين يدي الغرب، أو تركوا سؤال الله تعالى وتوجهوا بالسؤال لأصحاب القبور. فسبحان الله العظيم!

أما أهل الإيمان فإنهم إذا اشتدت بهم الكروب، ونزلت بساحاتهم الخطوب وكلوا أمر تفريجها إلى خالقهم وراحمهم سبحانه وتعالى مع بذل الأسباب المباحة الممكنة، فعند ذلك تخفّ عليهم ويقرب رفعها عنهم.

عباد الله، إنه لا يسلم من لفح الكروب أحد ولد إلى هذه الحياة، حتى الأنبياء والرسل عليهم السلام، بل هم أشد فيها من غيرهم، قال رسول الله ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»(١).

(١) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وهو صحيح.

فهذا نوح عليه السلام اشتد عليه أذى قومه وعتوهم مع العمر المديد الذي قضاه في دعوتهم، حينها علم من الله أن لا هداية لهم، فلجأ إلى الله تعالى وحده في هذا الكرب فقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الأنبياء:٧٦-٧٧].

ولما تكبر فرعون وملأه عن قبول الحق الذي جاء به موسى وهارون عليهما السلام، وأراد قتلهما ومن معهما من بني إسرائيل لجأ موسى إلى الله وحده، فنجاهم الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[الصافات:١١٤-١١٥].

وعندما مسّ أيوبَ كربُ المرض والضر كشفه الله تعالى بلجوء أيوب إليه وحده، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[الأنبياء:٨٣-٨٤]، وقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص:٤٤].

ويونس عليه السلام المكروب في بطن الحوت، قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين؛ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب

الله له»[1].

وزكريا عليه السلام الذي ذاق مُرَّ العقم، فتضرع إلى الله وابتهل بين يديه فرزقه الله تعالى يحيى عليه السلام: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران:٣٩]. قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء:٩٠].

وإلى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي لم يسلم من عناء الكروب المتنوعة من جهات متعددة، ولكنه في كروبه المتلاحقة لم يترك الابتهال بين يدي ربه، وسؤاله كشف كربه. ففي غزوة بدر حين جاءت قريش بحدّها وحديدها تحاد الله ورسوله وتحارب أولياء الله بكبريائها وعنجهيتها حينها مد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه إلى السماء داعيًا مبتهلاً حتى سقط رداؤه وهو يقول: «اللّهم أنجز لي ما وعدتني، اللّهم آت ما وعدتني، اللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض»[2]. فاستجاب الله تعالى دعاءه في كربه فنصره على القوم الكافرين.

عباد الله، إذا نزل الكرب بالناس افترقوا فيه إلى فريقين: فريق يرى للكرب صورة مظلمة قاتمة لا خير فيها، وفريق يرى من خلاله بشائر وأفراحًا تعقب ذلك الكرب، وهذا الفريق الثاني هم أهل التفاؤل واليقين، فيصير الكرب عليهم -وهم على هذه الحال- نعمة لا نقمة، ما داموا مؤمنين صابرين.

قد يُنعمُ الله بالبلوى وإن عظُمتْ ويبتلي الله بعضَ القوم بالنِّعمِ

(١) رواه الترمذي والنسائي في الكبرى، وهو صحيح.

(٢) رواه مسلم.

وهذا الفريق الثاني هو الذي ينبغي أن نكون من أهله؛ لنؤجر على الكرب النازل، وليخفَّ علينا نزوله، ولننتظر الفرج القريب بيقين واستبشار؛ فإن الكروب في الدنيا لا تدوم، ولكنها تطول على الساخطين، وتقصر لدى المتفائلين.

عسى الكربُ الذي أمسيتَ فيه يكونُ وراءه فرجٌ قريبُ

وقيل:

فلا تيأسْ وإن لا قيتَ كربًا يحبسُ النَّفسا

فأقربُ ما يكونُ المرءُ من فرجٍ إذا يئسا

بمعنى: إذا اشتد الكرب فقد آذن بالفرج؛ كقول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[يوسف: ١١٠].

فمن الأمثلة في زوال الكروب العظيمة: زوال طوفان التتار الذي ساح في بلاد المسلمين، وقتل عدداً كبيراً من أهل الإسلام، وخرّب ديارهم، وأحرق ما يقبل الإحراق مما يعز على المسلمين فقدُه، وفعل ما فعل من التخريب والإفساد.

واسمع ما يقول بعض المؤرخين عن هذه الحادثة التاريخية المهولة، يقول ابن الأثير في "كامله" التاريخي: " قد بقيت عدة سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة؛ استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترْك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى

آدم، وإلى الآن، لم يبتلوا بمثلها؛ لكان صادقاً؛ فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث: ما فعله بخت نصر.ببني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد، التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؛ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج. وأما الدجال فإنه يبقي على من اتبعه، ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، شقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم".

فالكثير من المسلمين ظنوا أن لا تقوم للمسلمين بعد ذلك قائمة. ولكن انجلى الكرب بصباح الفرج الذي أعاد للمسلمين عزتهم وقوتهم، فاستعادوا بلدانهم، وهزموا عدوهم، بل دخل بعض التتار الإسلام. ثم أقام المسلمون الخلافة العثمانية بعد ذلك، وامتد الإسلام إلى أماكن لم يصلها من قبل.

ولرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى ذرعاً وعند اللهِ منها المخرجُ
ضاقتْ فلما استحكمتْ حلقاتُها فُرِجتْ وكنتُ أظنُّها لا تُفرج

وقبل حادثة التتار يذكر ابن كثير في" البداية والنهاية" في حوادث سنة(٤٤٩هـ) أنه كان الغلاء والفناء مستمرين ببغداد وغيرها من البلاد بحيث خلت أكثر الدور، وسُدت على أهلها أبوابها بما فيها، وأهلها موتى فيها، ثم صار المار في الطريق لا يلقى الواحد بعد الواحد، وأكل الناس الجيف والنتن من قلة الطعام، بل حتى أكلوا الكلاب والموتى.

ثم انجلت هذه الغمة وعاد الرخاء إلى بلاد المسلمين مرة أخرى.

أيها المسلمون، إن الكروب حينما تنزل بالمسلمين لا تنزل بهم عبثًا من غير حكمة، أو خِلواً من غير غاية، بل لها حكم وغايات حميدة، فمن ذلك: أن الكروب سبب لتكفير السيئات، وتكثير الحسنات، ورفع الدرجات، إذا صبر المكروب المسلم عندها، فكم من معصية لم تكفرها إلا كربة، وكم من ميزان ثقل لصاحبه يوم القيامة بكرب صبر عنده، وكم درجةٍ بلغها العبد بكربة نالته في الدنيا فاحتسب أجرها عند الله تعالى. قال النبي ﷺ: «ما يصيب المسلمَ من نصَب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «يود أهل العافية يوم القيامة -حين يعطى أهل البلاء الثواب- لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض»(٢).

ومن حكم تقدير الكروب: أنها تصقل إيمان المسلم وتصفيه حتى يخرج صافيًا من شوائب النفاق أو الكذب أو الضعف، قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٠-١٤٢].

ومن حكم القضاء بالكروب: أنها تسوق الناس إلى ربهم وسيدهم بعد أن شردتهم عنه النعم والشهوات والشبهات، فيرجعون بالكروب خاضعين منيبين، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الترمذي، وهو حسن.

يَرْجِعُونَ ﴾[الروم:٤١].ومن حكم حصول الكروب: أنها تعرِّف العبد بأنه لله عبد، فينكسر بين يديه، ويخلع عنه كبرياء النفس وترفُّعَها، فتأتيه الكروب لتجعله متواضعًا لله ولخلق الله.

ومن الحكم كذلك: أن الكروب تعلِّم الإنسانَ الرحمة والعطف على المكروبين من الناس، فمن مسه الكرب تذكّر، قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً فقال: نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر»[١].

ومن الحكم أيضًا: أن الكروب تشوِّق المسلم إلى الجنة دار السلام، التي يرتاح بها من كل عناء، فيصبر عند ذلك ويحتسب، ويتذكر بآلام كروب الدنيا آلام كروب الآخرة في نار جهنم فيستعد بالزاد الذي ينجيه من ذلك. ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢١٦].

قلت ما سمعتم، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

---

(١) متفق عليه.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها المسلمون، إن كروب الدنيا لا تدوم؛ ولذلك فإن الله تعالى برحمته بعباده قد جعل لكشف الكروب أسبابًا، فمن ذلك: الإيمان الصادق بالله تعالى؛ فإنه أعظم سبب للنجاة والخروج من الملمات، قال تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[يونس:٩٨].

ومن الأسباب: ادخار أعمال صالحة خالصة ليوم الكروب، كما نجى الله تعالى أولئك الثلاثة الذي أووا إلى غار فسدت عليهم صخرةٌ بابَ الغار فلم يستطيعوا الخروج، حتى توسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة الخالصة، كما جاء ذلك في الصحيحين.

ومن الأسباب كذلك: التفريج عن المكروبين، والتنفيس عن المعسرين، والجزاء من جنس العمل، قال رسول الله ﷺ: «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»(١).

ومن أسباب كشف الكروب: الدعاء الخاص والدعاء العام؛ فقد جاء عن رسول الله ﷺ أدعية تقال في أوقات الكروب، فمن ذلك: ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: «يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث»)(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي، وهو حسن.

وعن أبي بكرة رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوات المكروب: اللَّهم رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»(٢).

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أعلمكِ كلمات تقولينهن عند الكرب أو في الكرب: الله الله ربي لا أشرك به شيئًا»(٣).

وكذلك على العبد المكروب أن يتضرع بين يدي الله تعالى؛ ليكشف كربه، ويعافيه مما حل به، والله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ (٦٠)﴾[غافر:٦٠].

هذا وصلوا وسلموا على خير الأنبياء...

---

(١) رواه أبو داود والبخاري في الأدب المفرد، وهو حسن.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه، وهو صحيح.

خطبة عيد الفطر[١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، ولله الحمد.

أيها المسلمون، جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: «قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما: يوم الفطر، والأضحى»[٢].

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ١/١٠/١٤٣٦هـ، ١٧/٧/٢٠١٥م.

(٢) رواه أحمد وأبو داود، وغيرهما، وهو صحيح.

فهذا يوم عيد الفطر السعيد، يوم يأتي بعد أداء ركن من أركان الإسلام ألا وهو صيام شهر رمضان، كما يأتي عيد الأضحى بعد أداء الركن الخامس ألا وهو الحج لمن استطاع إليه سبيلا.

ليشير بذلك إلى أن العيد إنما هو عيد الطائعين الذين قاموا بطاعة الله تعالى فيجيء يوم العيد يوم فرح وسرور بهذا التوفيق من الله لتلك الطاعات. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس:٥٨].

عباد الله، إن هذا اليوم العظيم يوم لإظهار الفرح والسرور، والبهجة والحبور بنعمة الله وفضله، ويوم للتوسعة على النفس والأهل والأولاد، والأقارب والمساكين. لكن هذا السرور يجب أن يكون في حدود المباح، بلا خروج إلى معصية الله، واعتداء على حقوق الآخرين، فلا إسراف ولا غرور، ولا تعرٍّ ولا إزعاج، ولا إطلاق للجوارح لترتع في مراتع الحرام.

فينبغي أن يكون هذا اليوم يومَ تقرَّب إلى الله تعالى بعبادة الفرح؛ فديننا ليس دين الحزن والضيق، بل هو دين السرور والراحة، قال ابن القيم رحمه الله: " اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان، ولا من منازل السائرين؛ ولهذا لم يأمر الله به في موضع قط، ولا أثنى عليه، ولا رتب عليه جزاء ولا ثوابًا، بل نهى عنه في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:١٣٩].وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[النحل:١٢٧].وقال تعالى: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[المائدة:٢٦].﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة:٤٠]. "(١).

غير أنه يجب أن يكون فرحنا مضبوطًا بشرع الله، فلا يجرنا الفرح إلى ترك الواجبات،

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤١٨).

وارتكاب المحرمات.

فليس من الفرح المشروع ترك الصلوات، واستماع الملهيات. وليس من الفرح المشروع تبرج النساء وسفورهن، وخروجهن عن حصن الحياء.

وليس من الفرح المشروع: مصافحة النساء غير المحارم، وليس من الفرح الجائز: اختلاط الرجال بالنساء غير المحارم كذلك.

وليس من الفرح إزعاج الآخرين بالألعاب النارية، أو أصوات أجهزة التسجيل الصاخبة.

إنما الفرح: أن نظهر السرور بأن الله تعالى أتم علينا عدة الصيام ونحن في خير وعافية، وإنما الفرح أن نتناسى آلامنا وأوجاعنا فنشكر الله تعالى ونحمده على ما أنعم علينا من النعم الغزيرة التي تفوق الألم والوجع.

أيها المسلمون، ما أجمل أن يكون هذا اليوم يومًا للصفاء والمحبة بين المسلمين: القريب مع قريبه، والجار مع جاره، فلا قطيعة ولا هجران، ولا عبوس ولا بغضاء، ولا تنافر ولا شحناء.

إن هذا اليوم يوم يدعو إلى الاتحاد والتآلف؛ إذ هو شعيرة واحدة لجميع المسلمين، ويوم لإذابة الأحقاد والاختلافات التي طحنت الجمع المسلم.

فما أحسنَ الأمة لو اقتبست أنوار مسيرها إلى الله من مشكاة شعائرها؛ كشعيرة العيد؛ لكي تعود إلى طريق النور والسيادة، بعد أن اعوجّ سيرها، وأضلت طريق عزها.

العيد يقول للأمة -وهي تلبس الجديد، وتتعطر بالطيب-: أن تلبس على ذلك

لباسَ الأخلاق الحسنة الصادقة على الوجوه والأعمال، فما أحسن الأمة بخصالها الفاضلة، وحبها المبثوث بينها، أخلاق حسنة كلباسها الحسن، وسمعة طيبة كرائحتها الطيبة.

أيها الأحبة الفضلاء، إن عيد الفطر هو أول اختبار للفائزين في رمضان: هل يواصلون السير على طريق الجد، بعد أن قضوا أيام رمضان ولياليه في المسابقة إلى الخيرات؛ لأن رمضان كان دورة تدريبية يتزود منها المتزودون لإصلاح العمل بعد رمضان، وذلك حينما ذاقوا حلاوة الطاعة، ونعيم الانعتاق عن كثرة الخطيئة.

فليس من الشكر لله تعالى على نعمة رمضان وبلوغ عيد الفطر: أن يعود المسلم إلى ما ألف من المعاصي قبل رمضان، وأن يترك ما تعوّد من الطاعات أثناء رمضان، وليس من شكر هذه النعمة: أن تهجر المسجد-أيها المسلم- بدخول العيد لتصلي في البيت، أو تترك قراءة القرآن بعد الأوقات السعيدة التي قضيتها معه في رمضان.

وليس من تمام النعمة: أن تفارق القيام، وتفتر عن كثرة الدعاء والتضرع.

فاستمر على خير رمضان ما استطعت، وإياك أن تصاحب الخطايا، وتميل إلى مجالسها، وتعاشر أهلها، فالمسلم المسابق في رمضان قد صار حراً طليقًا من قيود الشهوات ورقها وهو كذلك ما دام عليه بعد رمضان وإلا عاد إلى الأسر والرق.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله.

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، ولله الحمد.

أيها المسلمون، لقد شرع الله تعالى زكاة الفطر طهرة للصائم في رمضان من اللغو والرفث، وطعمةً للمساكين، وأمر رسول الله ﷺ بأدائها قبل مجيء هذه الصلاة: صلاة العيد، فمن أداها قبل أداء هذه الصلاة فقد قام بما أوجب الله عليه، ومن لم يؤدها -وهو غير معذور على تأخيرها- فقد خالف أمر رسول الله ﷺ، فعليه أن يتوب إلى الله تعالى من هذه المعصية، كما عليه أن يؤديها اليوم قبل أن تغرب شمسه، ولا تسقط عنه بهذا التأخير.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»(١).

عباد الله، من رحمة الله وفضله: أنه جعل نافذة للذكرى يطلّ منها المسلم على رمضان فيتذكر العبادة العظمى فيه ألا وهي عبادة الصيام، فشرع سبحانه صيام أيام من شوال، وجعلها ستًا؛ لكون الحسنة بعشر أمثالها فيكون أجر صيام رمضان بعشر أشهر، وصوم الست من شوال بأجر شهرين وذلك عام كامل، وهكذا فمن صام رمضان وأتبعه ستًا من شوال كان كصيام السنة، فيا سعد من يفعل ذلك كل عام!

---

(١) رواه أبو داود، وابن ماجه، وهو صحيح.

قال رسول الله ﷺ: «من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر»(١).

والأفضل للمكلف-ذكراً أو أنثى- إذا كان عليه قضاء أن يبادر إليه قبل صيام الست، فإن شق عليه فلا حرج في صيامه الست وتأخير القضاء إلى ما بعد ذلك، كما كانت تفعل ذلك عائشة رضي الله عنها.

حيث قالت رضي الله عنها: (كان يكون علي الصوم من رمضان فما أستطيع أن أقضي. إلا في شعبان)(٢).

ولا يشترط في صيام هذه الست التتابع، فلو تابعها، أو فرّقها فكل ذلك جائز، والله أعلم.

نسأل الله تعالى أن يديم علينا كل نعمة وخير، ويصرف عنا كل شر وضير، وأن يجعلنا من أهل السعادة في الدنيا والآخرة، وتقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

مَدرَسةُ الاعتِبار(١)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، اعلموا أن الله تعالى خلق للإنسان عقلاً يعقله عن المكروهات، ويطلقه في طلب المحبوبات، ويقرأ به عِبَر الزمان، وحوادث الأيام؛ ليفيد منها دروسًا نافعة في الحياة.

فمن كان أوفى عقلاً كان أكثر اعتباراً بما ينفعه في العاجل والآجل، فأسرع -بعد اتعاظه- إلى الاقتداء بصالح التجارب، والانزجار عن سيئها. فالاعتبار بالعِبَر،

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٢٧/١/١٤٣٨هـ، ٢٨/١٠/٢٠١٦م.

والاتعاظ بالغِيَر من نتائج العقول الكاملة، والأحلام الصافية.

ولـذلك فـإن الله تعـالى حيـنما يـذكر في كتابـه الكـريم مواضـع العـبر والعظـات كالقِصص القرآنية يختم ذلك ببيان أن المستفيد من تلك الآيات البينات هـم أولـو الألباب الـذين أناروها بـالتفكر، فربحـوا بـذلك الاعتبار الـذي يحجـز العـاصي عـن عصيانه، ويدفع المبطئ عن إبطائه في طاعة ربه.

فمـن تلـك الآيـات قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَتَفَكَّـرُونَ﴾[الجاثية:١٣]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم:٢٤]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِلْمُتَوَسِّـمِينَ﴾[الحجـر:٧٥]، وقـال: ﴿فَـاعْتَبِرُوا يَـا أُولِي الأَبْصَـارِ﴾[الحشر:٢].

عباد الله، إن الحياة الإنسانية تسير على سنن متشابهة، وقوانين حياتية متقاربة، والجديد فيها هم السائرون عليها، فالحاضر يحاكي الماضي، والمستقبل يقارب الحاضر، والتاريخ يعيد نفسه كما قيل.

فالتجارب البشرية، والأحداث الإنسانية التي يراها الإنسان، أو يسمع عنها، أو يقرأها هي مدرسة للاعتبار التي ينجح فيها من اعتبر بها، واتعظ بنتائجها وعواقبها، فأخذ منها الطريقة الصحيحة للتعامل بها في حياته الخاصة والعامة.

فلما تحزّبت أحزاب الكفر من أجل غزو المدينة لاستئصال المسلمين أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بخطة حكيمة تقي أهل الإسلام شرَّ تلك الأحزاب الحاقدة، فقال: (يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، ولم تكن تعرفه العرب قبل

ذلك)[١]، فأعجب ذلك الرأي المسلمين فعملوا به.

فهذه تجربة إنسانية احتفظت بها ذاكرة سلمان رضي الله عنه لتكون احتذاء حميداً على مثال ما كان يجري في أرض فارس عند الحصار.

أيها المسلمون، إن القرارات الحكيمة، والمواقف الصائبة، الخاصة منها والعامة هي التي تُبنى على رويّة تامة، ورؤية ثاقبة، ومن القواعد الراسخة التي تقوم عليها: التأمل في مواطن العظات، والإفادة منها لبناء قرارٍ ما وإنشائه على أسس متينة.

ويوم يكسب الإنسان العبرة من غيره ليقدم على أمرٍ ما أو يحجم عنه فذلك من السعادة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "والسعيد من اتعظ بغيره"[٢].

ولهذا فإن من الصواب: أن قراءة التاريخ والسير، والأمثال والقصص ليس المراد منها التسلية، والقضاء على الفراغ، بل المراد: نقل الصالح منها إلى واقع حيٍّ من القول والعمل، وتجنب أسباب الهلاك التي أودت بأهلها إلى ما لا تحمد عقباه.

ومن هنا كثرت الآيات القرآنية التي تسرد قصص الغابرين؛ لكي تكون عبرة للمعتبرين، وذكرى للمتذكرين.

فأما إن كان الإنسان من أهل الحق، الماضين في الطريق المستقيم فإنه حينما يقرأ قصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم وما جرى لهم فسيرى إكرام الله السابغ، وفضله الواسع في إنجاء المؤمنين، ودفاعه عنهم، وحراسته لهم.

يقول تعالى في سورة يونس عن قصة يونس عليه السلام: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ

---

(١) مختصر سيرة الرسول(ص: ٣١٤).

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٣٧).

آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[يونس:١٠٣].وقال عنه في سورة الأنبياء: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنبياء:٨٧-٨٨]. فمن العبر التي يستفيدها المؤمن من ذلك: أن يستبشر وهو يسير في طريق الحق أن الله تعالى معه، وسينجيه من المهالك ما دام على الصراط المستقيم.

ومن جهة أخرى فهو عندما تدلهم عليه الخطوب، وتحيط به الكروب، وتصل إليه أذية أهل الأذى، وتضيق عليه الأرض بما رحبت فيقرأ تلك القصص عمن سبقه في طريق الحق فإنه يعتبر بأولئك السلف السابقين، ويصل إلى حقيقة: أنه ليس أولَ من أُوذي، ولا أشد بلاء من غيره، ففي كل وادٍ بنو سعد، وقد يلقى سواه أكثر مما لقي، فعند ذلك يخف ألمه، ويهون عليه مصابه، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[البقرة:٢١٤].

ولقد كان رسول الله ﷺ يداوي بالاعتبار من اضطُهِد من صحابته الأخيار ﵃، فعن خباب بن الأرت ﵁ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ -وهو متوسد بُردةً له في ظل الكعبة- قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء

إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(١).

أيها الأحبة الفضلاء، وأما إن كان الإنسان من الحائدين عن طريق الهدى، الصادين عن الحق، الظالمين للخلق فقرأ أو سمع قصص الذين خلوا وكانوا مجرمين كيف جاءتهم الذكرى فلم يتذكروا، وامتد لهم الإمهال فلم ينزجروا، فحينها أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، والخزي يحيط بهم، وما ربك بغافل عما يعملون.

ولذلك كانت السور المكية غزيرة القصص القرآنية من أجل أن يسمعها كفار قريش لينظروا ماذا حل بأسلافهم الطغاة العتاة فلعلهم أن يتعظوا فيتركوا الاستمرار في سبيل الطغيان، والصد عن سبيل الرحمن.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:٤٣-٤٥].

وفي قصص أولئك الغابرين العاصين يذيِّل الله الآيات في ذلك بجملة مؤكدة تبين أن ما سبق من الخبر عمن غبر فيه عبرة لمن اعتبر، يقول تعالى في نهاية قصة فرعون في سورة النازعات: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾[النازعات:٢٦].

وقال تعالى في نهاية سورة يوسف: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف:١١١].

---

(١) رواه البخاري.

فمن كان عادلاً عن الصراط المستقيم وقرأ تلك الآيات التي تذكر مصارع المكذبين، ومهالك العاصين، وكان له عقل راجح، وقلب واعٍ فإنه سيعتبر، وسيعود عن طريقه المعوج إلى سلوك سبيل الحق القويم.

أيها الإخوة الكرام، من الموارد التي يُفاد منها الاعتبار بعد القرآن الكريم: التاريخ والسِّيَر، فالتاريخ الإنساني مخزن مليء بالعظات في جميع جوانب الحياة، كالجوانب الدينية، والسياسية، والعسكرية والاقتصادية، والاجتماعية، وغيرها. فهو سجل حافل، ومخزون واسع من الدروس المفيدة التي قد تصنع نجاحات في الحاضر والمستقبل لمن أحسن الاعتبار بها.

فالتجارب الإنسانية -وهي جزء من التاريخ- ليست حكراً على أهلها، بل هي حق مشترك لجميع الناس، يأخذ المتأخر العبرة من المتقدم.

قال ابن خلدون: " اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم، وسياستهم؛ حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا "(١).

وقال الشاعر:

اقرإِ التاريخَ إذ فيه العِبرْ ... ضلّ قومٌ ليس يدرون الخبرْ

فمن كان عنده وعي تاريخي فسيعرف به سنن الله في خلقه، حيث يرى من سقط لماذا سقط، ومن ارتقى لماذا ارتقى، ومن عوقب لماذا عوقب، ومن عزّ لماذا عز؟

---

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ١٨).

وأحوجُ الناس إلى هذا الوعي التاريخي من المسلمين: أصحاب القرار أو التأثير في المجتمع؛ لأنهم إذا كانوا وعاة معتبرين، وفيهم حرص على الخير للمسلمين؛ فإنهم سيرسمون لأهل الإسلام طريق الحاضر والمستقبل على معالم مستوحاة من الإرث الديني والتاريخي الحق.

وإن من الأشياء التي تدعو للعجب: أن التاريخ الإسلامي غني بالعِبَر التي لو أحسن أولو الأمر من المسلمين استيعابها واستثمارها في واقع المسلمين لعاد للمسلمين عزهم، وارتقت حضارتهم المعاصرة إلى صفوف متقدمة.

أيها الفضلاء، إن أعداء المسلمين اليوم قد أصبحوا أكثر خبثًا منهم بالأمس؛ فقد صاروا يكيدون للإسلام والمسلمين كيداً ليس له مثيل، وينتهجون لهذه الغاية الماكرة طرقًا عديدة، ومن ذلك: الاعتبار بالتاريخ؛ فاليهود اليوم يؤججون نيران حقدهم بوقود من عِبَر التاريخ: فبنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وما جرى لهم من عدل السماء على الأرض ما زالت روح الانتقام لهم، والثارات لدمائهم الغادرة، وجلائهم العادل؛ حاضرةً في العقلية اليهودية اليوم. وخيبر وحطين ونحوهما من الملاحم لم تغب عن الذهن اليهودي كذلك.

وطريق تعاملهم مع الآخرين -خصوصًا مع المسلمين- لم تزل مُشعلَة بالاعتبار بأزمنتهم الماضية، وما جرى منهم ولهم فيها، وعلى سبيل المثال: فثقافة الاحتقار، ونقض العهود قانون يسيرون عليه في كل زمان ومكان، فكيف يُرجى معهم سلام مع أهل الإسلام؟!

قال تعالى: ﴿وَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[البقرة:١٠٠]. والغرب النصراني اليوم أيضًا ما فتئت الحملات الصليبية ترفرف في

خياله، وتحتل مكانًا واسعاً في باله، وجدول أعماله؛ إذ ما يزال ينتقل من حملة إلى حملة إلى بلاد المسلمين بطريق مباشر أو غير مباشر، ولكنه غيّر أسلوب حملاته إلى طريق خبيث مخبَث ألا وهو أسلوب خوض الحرب بأقل الخسائر، أو بالتكلفة الصفرية تحت مِظلة الفوضى الخلاّقة.

بحيث يجعل بلاد المسلمين بؤرة صراعات مستديمة بأيدي أهلها، ومهمته في هذه المعارك المصنوعة أحيانًا: التأجيج، ورسم الخطط لعملائه، وبيع السلاح لطرفي الصراع، والإشراف المستمر على المعركة، وتحديده النهاية التي يريدها.

فمتى ستحصل اليقظة التاريخية -معشر المسلمين-، وينقشع ضباب الغباء التاريخي؛ لنعرف أن العدو النصراني اليوم هو خليفة عدو الأمس النصراني، وأن زعماء الحملات المعاصرة هم خلفاء لويس التاسع وغيره من قادات الحملات الصليبية الخالية.

أيها المسلمون، إن من موارد العبرة أيضًا: الواقعَ الذي يعيش فيه الإنسان، ففيه عبرة لمن أراد الاعتبار.

وذلك آت من النظر والتأمل في ماضي الإنسان، وسنوات عمره السالفة؛ فإنه كلما امتد به الزمان، وتعاقبت عليه أحداث الأيام، فإن كان عاقلاً فسيأخذ من زمانه الفائت دروسًا حياتية لزمانه الآتي: لحاضره ومستقبله، فيستدرك ما فات، ويصلح ما أفسد، فيصير بذلك حكيمًا يضع الأمور في مواضعها، فلا يقدم على أمر جلل إلا ولديه بصيرة تنير له الطريق، ولا حكيم إلا ذو تجربة، كما قيل.

وكما يأتيه الاعتبار من واقعه هو، يأتيه كذلك من واقع الآخرين وما جرت لهم من أحداث ومواقف. وذلك أن الحياة تجري بالناس من غير تريث، حيث يشاهد

الإنسان أولئك الناس، أو يسمعهم، أو يقرأ أخبارهم، فإن كانت تجاربهم، وأحوالهم آلت إلى غاية حميدة في أمر ديني أو دنيوي -والطريق إلى ذلك مشروعة- اقتدى بهم، وسلك سبيلهم؛ لينال ما نالوا أو يقارب.

وهذا الائتساء سيخفف عنه الجهد والوقت، والتفكير الطويل، والبحث عن أسباب النجاح، فجاءت إليه تلك التجربة الناجحة مجانًا بعد أن ذاق أهلها مشقاتٍ متنوعة حتى وصلوا إليها.

وإن كانت تجاربهم قد صارت إلى نهايات سيئة، وعواقب غير محمودة اجتنب ذلك الطريق الذي سلكوه، والنهج الذي انتهجوه حتى وصلوا إلى تلك الغاية المخفقة، فعرف عند ذلك أن تلك الطرق غير صالحة للاقتداء، وغير آمنة العواقب لمن سلكها.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون، وبعد هذا: فإن المطلوب منا أن نكون من أهل الاعتبار، وأن نظل من أهل الادكار، نعتبر بما ذكره القرآن، والسير والتاريخ، والواقع من الأحداث البشرية فنقتدي بما يصح فيه الاقتداء، ونحذر التجارب السيئة التي تؤدي إلى الشقاء، فلا نجرِّب المجرب السيئ؛ إذ تجربة المجرَّب السيء حمق.

فالمؤمن كيِّس فطِن، ليس بالخِبِّ ولا الخب يخدعه، يعتبر بغيره، ولا يكون عبرة ذميمة لمن تلاه.

كما أنه لا يُلدغ من مكان واحد مرة بعد مرة؛ لأن اللدغة الأولى تكفي لاستيقاظ من كان ذا عقل وبصيرة، وأما فاقد الوعي فإنه يظل يستقبل اللدغات لدغة إثر لدغة من غير اتعاظ. يقول النبي ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»(١).

قال الخطابي: " هذا لفظه خبر، ومعناه أمر، أي: ليكن المؤمن حازمًا حذراً، لا يؤتى من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرى، وقد يكون ذلك في أمر الدين، كما يكون في أمر الدنيا وهو أولاهما بالحذر "(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥٣٠).

وقال أبو عبيد: "معناه:ولا ينبغي للمؤمن إذا نُكِب من وجه أن يعود إليه"[١].

وقد قيل في سبب هذا الحديث: إن: " أبا عَزَّة الجمحي - وهو الذي كان قد منّ عليه (رسول الله) من أساري بدر ؛ لفقره، وكثرة بناته، على ألا يظاهر عليه أحداً، ولكنه نكث وغدر، فحرض الناس بشعره على النبي ﷺ والمسلمين..، وخرج لمقاتلتهم في أحد -؛ فلما أخذه رسول الله ﷺ قال: يا محمد، أقلني، وامنُن عليَّ، ودعني لبناتي، وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ: «لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين! لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»، ثم أمر الزبير، أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه"[٢].

قال الْفِنْدُ الزِّمَّاني في حرب البَسُوس:

صَفحْنا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ ... وَقُلْنا الْقَوْمُ إخْوَانُ
عَسَى الأَيَّامُ أنْ يَرْجعْـ ... ـنَ قَوْمًا كَالَّذِي كَانُوا
فلَمَّا صَرَّحَ الشَّرْ ... رُ فَأَمْسَى وَهْوَ عُرْيانُ
وَلَمْ يَبْقَ سِوَى العُدْوَا ... نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا
مَشَيْنا مِشْيَةَ اللَّيْثِ ... غَدَا واللَّيْثُ غَضْبَانُ
بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ ... وَتَخْضِيعُ وإقْرَانُ
وَبَعْضُ الحِلْمِ عِنْدَ الجَهْـ ... ـلِ لِلذِّلَّةِ إذْعَانُ
وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حِيـ ... ـنَ لاَ يُنْجِيكَ إِحْسَانُ[٣]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الرحيق المختوم (ص: ٢٦١).

(٣) ديوان الحماسة (١/ ٧).

أيها الأحبة الفضلاء، إن الاعتبار بالأحداث أمر يحتاجه كل إنسان؛ نظراً لتكرر مثيلات الأحداث السابقة في الأزمنة اللاحقة، أو ما يقارب تلك الأحداث.

فنحن المسلمين-على اختلاف تخصصاتنا- نحتاج إلى ذلك، فالحاكم والعالم، والعسكري والتربوي، والاقتصادي والاجتماعي، وغيرهم؛ لابد أن يكون عند هؤلاء قراءة تاريخية واعية في تاريخ البشرية، والتجارب الإنسانية للاستفادة منها في التوجيه والعمل فيما يصلح أحوال المسلمين.

كما نحتاج إلى ذلك في علاج ظاهرة الاختلاف المتأجج بين المسلمين، فمن اعتبر سيجد أن الاختلاف شر؛ لما له الآثار السيئة، وأن الاجتماع خير؛ لما له من الآثار الحسنة. قال الطغرائي:

كونوا جميعًا يا بَنيَّ إذا اعترى خَطبٌ ولا تتفرّقوا آحادا
تأبى العِصيُّ إذا اجتمعنَ تكسُراً وإذا افترقنَ تكسَّرتْ أفرادا

كما نحتاج إلى ذلك أيضًا في علاج ظاهرة الظلم-العام أو الخاص-، فمن الظلم: منع حقوق الناس، أو الاستيلاء عليها بغير حق، وقلة الإنصاف أو عدمه في الحكم على الآخرين-أفراداً وتجمعات-، فمن اعتبر: سيكف عن ظلمه؛ لأن الظلم يعجل العقوبة.

يذكر أن يحيى بن خالد البرمكي-أحد وزراء بني العباس-وقال له بعض بنيه وهم في السجن والقيود: يا أبتِ، بعد الأمر والنهي والنعمة صرنا إلى هذا الحال؟! فقال: يا بني، دعوةُ مظلوم سَرتْ بليل ونحن عنها غافلون، ولم يغفل الله عنها، ثم أنشأ يقول:

رُبَّ قومٍ قدْ غدوا في نعمةٍ زمنًا والدهرُ ريَّانٌ غَدِقْ
سكتَ الدهرُ زمانًا عنهمُ ثم أبكاهمْ دمًا حينَ نَطَق(١)!

كما نحتاج إلى ذلك كذلك: في معرفة واقع العدو الحقيقي، ومكره وخططه، وحقده وعمله على حرب الإسلام وأهله، فمن اعتبر: سيجد أنه مهما استرضى ذلك العدو فلن ينال رضاه، بل سيكون واحداً من ضحاياه، وإن تأخر دوره، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾[البقرة:١٢٠]. وأن العز في الدين والدنيا هو في معاملة أولئك الأعداء حسب منهج الله تعالى.

كما نحتاج إلى ذلك أيضًا: في عودة العاصي منا إلى ربه فيما بينه وبينه، فمن اعتبر سيبادر إلى التوبة والإنابة، ففيما يرى الإنسان أو يسمع من النهايات الأليمة للعصاة ما يؤزُّه إلى تغيير مسيره أزًّا.

عباد الله، إن السادرين في غيهم، الذين لم يعتبروا بالعِبر، ولم يتعظوا بالغِيَر، سيؤدبهم الزمان القريب أو البعيد لا محالة، فالمنافقون لم تؤدبهم المصائب والفضائح في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[التوبة:١٢٦].. والكفار الصرحاء لم يدّكروا بما جرى لأسلافهم، ولكن يوم القيامة يحضرهم الاعتبار في غير مكانه وزمانه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك:١١].

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٠٥).

ونحن المسلمين اليوم نتلقى نكبة إثر نكبة، فمتى نعتبر؟!

فطوبى لأهل الاعتبار الذين ظفروا بالربح والسلامة، وسلموا من الخسران والندامة، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧].

هذا وصلوا وسلموا على سيد البشرية...

شفاء الأحزان

في

سورة آل عمران[١]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد: فإن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي نبيه محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لا يسلم الإنسان في دنياه من غم يؤلم قلبه، وكآبة تظلل وجهه، وضيق يسجن نفسه، وزائر معنوي غير مرغوب يُذهِب فرحه وسروره.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني في ٩/ ١١/ ١٤٣٧هـ، ١٢/ ٨/ ٢٠١٦م.

هذه الحال التي تُلمّ بالإنسان تسمى: الحزن الذي يستدعيه فراق محبوب، أو امتناع مرغوب.

ولم يكن الحزن من العبادات التي يطلب من المسلم أن يسعى إلى تحصيلها؛ لأن الحياة بالسرور والسعادة مطلب حياتي، ومطلب شرعي، ولكن إذا نزل الحزن بالمسلم فصبر عنده أجر عليه كأجره على بلية من البلايا.

فلهذا فإن العبد يؤجر على سبب الحزن ومصدره الداعي إليه، ولا يؤجر على الحزن ذاته، بل المطلوب منه إزالة أسبابه الممكنة، والبعد عن طرقه وموارده.

والسبب في هذا: أن الحزن إذا استمر فإنه يلد آثاراً نفسية وجسدية سيئة؛ فيعقوب عليه السلام ابيضت عيناه من تواتر حزنه وبكائه على يوسف عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾[يوسف:٨٤].قال ابن القيم رحمه الله: " اعلم أن الحزن من عوارض الطريق، ليس من مقامات الإيمان، ولا من منازل السائرين؛ ولهذا لم يأمر الله به في موضع قط، ولا أثنى عليه، ولا رتب عليه جزاء ولا ثوابًا، بل نهى عنه في غير موضع؛ كقوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:١٣٩]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[النحل:١٢٧]. وقال تعالى: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[المائدة:٢٦].﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾[التوبة:٤٠]". فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها؛ ولهذا يقول أهل الجنة:﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾[فاطر:٣٤].فحمدوه على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول في دعائه: «اللّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن...». والمقصود: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل الحزن مما يستعاذ منه؛ وذلك لأن الحزن يضعف القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا

شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[المجادلة: ١٠].

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره؛ كالمرض والألم ونحوهما، وأما أن يكون عبادة مأموراً بتحصيلها وطلبها فلا، ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات، وما يثاب عليه من البليات، ولكن يحمد في الحزن سببه ومصدره ولازمه لا ذاته(١).

أيها المسلمون، إن من الخير للمسلم أن يبقى سعيداً؛ لكي يكون طريقه إلى الله تعالى مشرقًا؛ فإذا أظلم بدجى الأحزان كان عليه أن يسعى إلى إزالة تلك الظلمات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومع تتابع الأحزان الخاصة والعامة وتواردها على قلب المسلم في أيامنا هذه حتى صارت كعقد منظوم انفرطت حباته واحدة تلوى الأخرى، فكلما تولى حزن وِلِد مكانه حزن آخر أشد منه؛ كما قال ﷺ: «وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرَها بلاءٌ وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه»(٢).

ففي هذا الجو الملبَّد بغيوم الأحزان أقول: إذا لم يسعَ المسلم في معالجة أحزانه أو التخفيف من آثارها السيئة فإنها قد تمرضه أو تسلمه إلى أَسر الأمراض العقلية أو

---

(١) طريق الهجرتين (ص: ٤١٨-٤١٩).

(٢) رواه مسلم.

النفسية أو الموت، إلا أن يشاء الله.

فالعاقل يبحث عن الدواء قبل استفحال الداء.

وأعظم العلاج في هذا الباب هو: العودة إلى القرآن الكريم: تلاوة وتدبراً، وعملاً وتحاكمًا واستشفاء.

عباد الله، فمن هذا المنطلق سنكون اليوم- بعون الله تعالى- مع سورة كريمة من سور القرآن العظيم زخرت بأدوية نافعة لأهل الإيمان يخففون بتدبر آياتها ما قد يعتريهم من الأحزان والغموم، هذه السورة الكريمة هي سورة آل عمران التي نزلت على النبي ﷺ في المدينة بُعيدَ الهجرة. وقد جاء عن النبي ﷺ في فضلها عدة أحاديث.

إن هذه السورة الكريمة إذا قرأها الحزين آية آية قراءة متدبرة تحت مِظلة الإيمان فإنها ستجعله يشعر بالسكينة والطمأنينة، وهو يتنقل بين تلك الآيات التي عرضت بعض الأحزان وبينت الأدوية الشافية منها.

أيها الأحبة الكرام، إن المسلم ليحزن حينما يرى أو يسمع أعداء الإسلام يقتلون المسلمين، بل يقتلون العلماء والناصحين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

وليس في يديه شيء لدفع ذلك الظلم عنهم، فيجيئه نص قرآني في هذه السورة الكريمة يخفف حزنه مضمونه: أن تلك الدماء الطاهرة لن تذهب عند الله هدراً؛ فإن الله تعالى قد أعد للمعتدين عليها-إذا لم يتوبوا- عذابًا أليمًا لا ينصرهم منه أحد، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾[آل عمران:٢١-٢٢].

فإذا كان رسول الله ﷺ قد نهى عن سب الديك؛ لكونه يعين على طاعة واحدة وهي القيام للصلاة فقال: «لا تسبوا الديك؛ فإنه يوقظ للصلاة»(١). فكيف بقتل من يدعو إلى الله، ويعلِّم الناس الخير-وليس هناك موجب شرعي لقتله؟!

معشر المسلمين، يظن بعض الناس أن تصريف بعض الأمور بيد الخلق: يؤتون الملك من يشاؤون، وينزعونه ممن يشاؤون، ويعزون من يريدون، ويذلون من يشتهون، فيولّد ذلك الظن الخاطئ في نفوس أولئك الظانين حزنًا وحنقًا إذا صاروا إلى نقمة بعد نعمة: إلى فقر بعد غنى، وذل بعد عز، وضيق بعد سعة، وغربة بعد إقامة. غير أن المؤمن عندما يقرأ قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران:٢٦].حين يقرأ هذه الآية بتدبر ينجلي حزنه بيقينه بتقلبات الدنيا، وعلمه بأن ما جرى هو بقدر الله لا بقدرة أحد، وأن قضاء الله لعبده المؤمن خير كله لا شر فيه مطلقًا. فكم من عطية خرجت من رحم بلية فكانت خيراً للمؤمن من بقائه فيما كان يظنه نعمة، وصرفه عنه نقمة، قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٢١٦].

أيها الإخوة الفضلاء، قد يصيب المسلمَ الحزنُ عندما يجد الكافرين يحاربون المسلمين بعدد وعُدّة أكثر وأقوى مما لدى المسلمين، لكن ذلك الحزن يتبدد حينما يوقن بأن النصر على أولئك الأعداء لا يكون بالعدد والعدة - وإن كان ذلك مطلوبًا- لكنه

(١) رواه أبو داود وابن حبان، وهو صحيح.

ليس السبب الوحيد للنصر، وإنما السبب الحقيقي هو: قوة الإيمان والتقوى ومصابرة العدو، وبذلك تنزل معونة الله تعالى، فمتى تم هذا السبب انتصر جند الرحمن على جند الشيطان؛ كما انتصر صحابة رسول الله المؤمنون المتقون الصابرون يوم الفرقان يوم التقى الجمعان عند مياه بدر.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[آل عمران:١٢٣-١٢٦].

أيها المسلمون، إذا انتصر أهل الباطل على أهل الحق وألحقوا بذوي الحق الهزيمة والخسارة؛ فإن ذلك يحزنهم، بل ويشكك بعض الضعفاء منهم في سلامة المنهج، وصحة الطريق.

ولو فكر أولئك الحُزَناء في الأسباب التي آلت إلى تلك النتائج المؤلمة، وفي العواقب الحميدة التي نتجت وستنتج عن تلك المصائب الموجعة؛ لهان عليهم الخطب، واستمروا على الطريق سائرين، وأعادوا ترتيب الأوراق المبعثرة لمرحلة جديدة من مراحل الكفاح والنجاح، فربما صحت الأجسام بالعلل.

ففي غزوة أحد لما أصاب الصحابةَ الكرام ﷺ وأرضاهم ما أصابهم من القتل والجراح والأحزان في الشوط الثاني من المعركة؛ نزلت الآيات القرآنية في سورة آل عمران بعد ذلك تعالج الموقف، وتضمِّد الجراح، وتأسو الأحزان، وتبين أسباب النكبة، وتسلِّي المؤمنين بما لذلك المصاب من الفوائد والمصالح.

فقد جاءت الآيات الكريمة تنهى الفئة المؤمنة عن الضعف عن قتال عدوهم، وتنهاهم عن الحزن لما أصابهم، وتكشف بجلاء أن الغلبة والعاقبة لهم ما داموا ثابتين على الإيمان، فقال: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩].

وجاءت تسلّيهم ﷺ بما فعلوا بكفار قريش يوم بدر من القتل والقروح حتى أصاب مشركي قريش من المأساة والحزن شيءٌ كثير، وبينت لهم سنة كونية من سنن الصراع بين الحق والباطل ألا وهي: سنة التداول من نصر وهزيمة، فلو كان المؤمنون ينتصرون دائمًا لَدخلَ فيهم من ليس منهم.

وتلك الهزيمة التي ذاقوها بسبب معصية الرسول كان من حِكمها: تمييز المؤمن الصادق من غيره، وإكرام بعض المؤمنين بالشهادة، وتصفية صف المؤمنين من المنافقين المندسين بينهم.

فقال تعالى: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٠-١٤١].

وقال: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾[آل عمران:١٦٥-١٦٧]، وقال: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ

أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[آل عمران:١٧٩].

ثم بين سبحانه وتعالى أن دخول الجنة لن يكون إلا بعد الابتلاء بالمكاره والشدائد، وظهور المجاهدين الصادقين في سبيله، والصابرين في لقاء أعدائه. فقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[آل عمران:١٤٢].

فما أعظم هذه الآيات في إذهاب سحائب الأحزان من آفاق أهل الإيمان!.

عباد الله، إن القائد المؤمن العظيم له أثر كبير في ثبات المؤمنين، وبث روح القوة في نفوسهم، فإذا قتل هذا القائد أو مات أحدث انصداعًا في جدار القوة المؤمنة، وصار موته أو قتله جرحًا غائراً في صدور المؤمنين، فحدث بذلك الحزن الكبير.

ففي غزوة أحد وفي أوج اضطراب الصف المسلم، وإمعانًا من المشركين في خلخلة ما تبقى من صفوف المسلمين عن طريق الحرب الإعلامية؛ أشاع المشركون خبراً يقول: إن محمداً قد قُتل!، كذبًا منهم وزوراً.

فأثر ذلك على بعض المسلمين حتى قعد عن مواصلة القتال، حتى جاء أنس بن النضر رضي الله عنه فقال: "ما يجلسكم؟! قالوا: قُتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل"(١).

فجاءت الآيات الكريمة تعلّق على هذا الحدث لتُذهِب عن المسلمين غاية الحزن بموت القائد العظيم أو قتله لو حصل، مبيِّنةً أن على أتباع الحق أن لا يفتروا عن مواصلة الطريق بسبب قتل قائدهم أو موته، بل عليهم استلام الراية والمضي على دربه حتى الوصول إلى الهدف الذي كان ينشده.

(١) الروض الأنف (٣/ ٢٦٧).

ذاكرةً لهم رضي الله عنهم أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كغيره من الرسل عليه إبلاغ رسالة ربه، فإن مات بانقضاء أجله أو قتل -كما أُشيع- فإن ذلك لا يدعو إلى الرجوع عن طريقه، وكل إنسان لن يموت إلا بإذن الله تعالى.

فلا حزن إذاً يثني عن الهدف المنشود للمؤمنين ولو مات القائد؛ لأن كل إنسان سيموت

من لم يمتْ بالسيفِ ماتَ بغيرِه تعدّدتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ

وأن هذا الطريق هو طريق الأنبياء قبل محمد على الجميع الصلاة والسلام، الذين قاتل معهم جماعات من الصالحين والعلماء من أتباعهم فما ضعفوا عن قتال عدوهم بسبب القتل والجراح، ولا خضعوا لهم، بل ثبتوا واستمروا.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِينْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[آل عمران:١٤٤-١٤٨].

أيها الأحبة، إن فراق الإنسان لأحبابه من أب أو ابن أو أخ أو قريب أو صديق؛ شيء يحزن النفس، أولئك الأصفياء الذين قاسمهم السرور والأُنس في حياتهم، فجاء الموت فأنهى تلك الأوقات السعيدة التي قضيت معهم، فأعقب الحزنَ بعد تلك الأيام

السارَّة، فكيف إذا كان الفراق لهم قتلاً من قبل أعداء الإسلام والمسلمين؟

فالإنسان قد يحزن في ذلك المصاب حزنين: حزن الفراق للحبيب الراحل، وحزن الضعف عن القصاص من الكافر القاتل.

ففي هذه السورة الكريمة سورة آل عمران جاءت الآيات تسلِّي ذوي الحزن في موت أحبابهم فتقول لهم: إن كل نفس لابد أنَّ تموت، وإن خير ضروب الموت: الموتُ في سبيل الله، الذي ينتقل به الشهيد إلى حياة برزخية سعيدة عند الله تعالى، يجد فيها النعيم والسعادة بإكرام الله له حينما نال الشهادة في سبيله.

فمن كان من الشهداء في سبيل الله فلا ينبغي كثرةُ الحزن عليهم؛ لأنهم صاروا إلى خير جوار، وظفروا بما كانوا يتمنون، فمن حُبهم: حب الخير لهم.

قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾[آل عمران:١٨٥]، وقال: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران:١٦٩-١٧١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي خلق فسوى، وقدّر فهدى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى، وعلى آله وصحبه أهل التقى والنُهى، أما بعد:

أيها المسلمون، من المعلوم أنه لم يصل أهل الكفر المحاربون للإسلام والمسلمين في القوة العسكرية وما يساعدها إلى مثل ما وصلوا إليه في عصرنا؛ ولهذا فإن غرورهم بهذه القوة يدفعهم إلى استمرار حربهم للمسلمين، وتجدد تهديدهم ووعيدهم بين الحين والآخر لأهل الإسلام بالأسلحة الفتاكة والقوات الجبارة التي يمتلكونها.

ومع توالي التهديدات للمسلمين يصاب بعض المسلمين بالغم لرؤيته عجز المسلمين عن مواجهة تلك القوى الظالمة.

لكن جاءت الآيات الكريمة في هذه السورة العظيمة تحكي موقفًا مشابهاً -مع تباين الفوارق- لمشركي قريش الذين زهت بهم نشوةُ ما فعلوا بالمسلمين في أحد، حتى أرسلوا إلى رسول الله ﷺ من يخبره بأنهم قد جمعوا للمسلمين جموعًا، وإنهم آتون بها لاستئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم، مع ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الجراح الحسية والمعنوية عقب أحد.

فلما وصل ذلك الوعيد إلى رسول الله والمسلمين واجه قلوبًا تمكّن فيها التوكل والإيمان، وفارقها الخوف والأحزان، فاستعد المسلمون وخرجوا لمقابلة جمع المشركين في حمراء الأسد، فلما علم المشركون بخروج المسلمين للقائهم قُذف في قلوب المشركين الرعب فما جرأوا على اللقاء، مكتفين بما حققوه من مكاسب في غزوة أحد، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويًا عزيزاً.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران:١٧٣-١٧٤].

وكذلك المسلمون اليوم لو بلغوا درجة الإيمان البلوغَ الجمعي، وتوكلوا على الله حق توكله لما أحزنهم وعيد الكافرين المحاربين، ولا أغمهم تهديد الظالمين؛ لكونهم غيرَ ضعفاء ولا عاجزين ما داموا مؤمنين متوكلين.

عباد الله، قد يعجب الإنسان من إصرار الكافرين على كفرهم، وشدة جَلَدهم في حرب الإسلام والمسلمين، بل ومسارعتهم إلى حرب الله تعالى ورسوله ﷺ، مع أن دلائل الحق تلوح لهم في الآفاق ببطلان ما هم عليه. فهذه الأحوال قد تجعل بعض المسلمين يحزن، فجاء الخطاب من الله في هذه السورة سورة آل عمران للنبي ﷺ -والخطاب له ولأمته- بأن لا يحزن؛ فإن الكافرين لن يضروا الله شيئًا، وإن تمتعوا بمتاع الدنيا القليل فسيعقبه عذاب الآخرة الطويل، فقال تعالى: ﴿وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران:١٧٦].

أيها الأحبة الكرام، إن المسلم ليحزن حينما يرى الكفار المحاربين مازالوا يرتكبون في المسلمين المجازر تلو المجازر، ومازال حلم الله تعالى مسبَلاً عليهم، وما أنزل بهم غضبه وعقوبته العاجلة، فيتساءل: متى نصر الله للمظلومين؟

فنقول: رويداً رويداً: إنه ليس هناك قوة وقدرة تقف أمام قوة الله وقدرته، وليس هناك أحد أرحم من الله تعالى بالمظلومين، وليس هناك أحد أعلم من الله بعواقب الأمور ومآلاتها، وليس هناك حاكم أعدل من الله تبارك وتعالى.

فليذهب حزنك -أيها الحزين- بعلمك بأن الله أقوى من كل قوي، وأقدر من

كل قادر، وأرحم من كل راحم، وأعلم من كل عالم، وأعدل من كل حاكم.

فإمهاله لأولئك الكافرين، أو الظالمين السفّاكين شر لهم لا خير لهم فيه؛ بسبب تماديهم في جبروتهم، فدع أمر الخلق إلى الخالق فهو أعلم بما يجري في خلقه تعالى؛ لهذا قال عز وجل في هذه السورة: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[آل عمران:١٧٨].

أيها المسلمون، وهناك من المسلمين من يصيبه الحزن عندما يشاهد بلاد الكفار وهي تنعم بالرخاء المعيشي، والترف الحياتي، والاستقرار الأمني، والتقدم الاقتصادي والعلمي، فيقارن ذلك بما عليه أكثر المسلمين فيغتم لذلك ويحزن.

وهذه النظرة الدنيوية التي أوصلته إلى الحزن نظرة قاصرة، ورؤية خاطئة؛ أفلا ينظر إلى حياتهم الدينية والأخلاقية وما هم عليه فيها من الانحراف والفساد، أو لا يعلم كذلك أن أولئك القوم عُجِّلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، وأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وأن الدار الحقيقية هي الدار الآخرة، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور!.

فإذا تفكر المسلم العاقل في هذا وأمثاله انقشعت عنه سحابة حزنه، ورضي بقدر الله وقَسمه.

لهذا قال تعالى في هذه السورة المباركة: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٨].

هذا وصلوا وسلموا على النبي الكريم...

حياة المشاعر[(١)]

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[آل عمران١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾[النساء١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[الأحزاب٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي رسوله محمد بن عبد الله، ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

أيها الناس، لقد أودع الله تعالى بين جنبات الإنسان الحي أنواعًا من الحياة، يحيا بكل نوع منها جانبٌ من جوانب حياته العامة. فمن الناس من يتعاهد تلك الأنواع بسقيها بحسن الأفعال، وجميل الأقوال فتنبض بالحياة والنماء، ومن الناس من يسعى- بقصد أو بغير قصد- إلى إماتة بعض أنواع تلك الحياة، فيصير بذلك فاقداً لحياة ما ترك تعاهده.

---

(١) ألقيت في مسجد ابن الأمير الصنعاني، في ١٤/٣/١٤٣٧هـ، ٢٥/١٢/٢٠١٥م.

فمن أنواع الحياة التي تزهر بها الحياة وتشرق: حياة المشاعر، واستقامة الأحاسيس، فمن دبّت بين جوانحه هذه الحياة واستمرت فإنه يتأثر بما حوله فيتخذ لذلك أقوالاً أو أفعالاً أو يُولَد لديه شعور داخلي استجابة لتحرّك مشاعره تجاه تلك المواقف والأحوال. أما الذين ذبلت عندهم المشاعر أو انحرفت عن مسارها الصحيح فإن بعض أعمالهم تسوء، وبعض مواقفهم تذم؛ إذ يصبحون بذلك بعيدين عن حياة الأحياء بقدر بُعد مشاعرهم عن الإحساس بالآخرين.

إن المشاعر الحية النقية بلسمٌ للنفوس ودواء للقلوب، تحيا المجتمعات بحياتها، وتذبل بجفافها، والمشاعر الجارحة والمسيئة تَفصم عرى الروابط المحمودة، وتشد أسبابَ الشقاق والقطيعة، وتنفِّر النفوس من النفوس، والقلوب من القلوب، وتدعو إلى الافتراق والحياة الفردية الموحشة.

عباد الله، إن النفوس البشرية تحب من يحسن إليها، ويشاركها مشاعرها وأحاسيسها، وتكره من لا يهتم بها، ولا يشعر بما تشعر به.

وإن من الحصافة والكياسة أن يحرص الإنسان على كسب النفوس والاقتراب منها، ومما يساعده على ذلك: مراعاة مشاعر الناس باستعمال الأفعال والأساليب والأخلاق المشروعة التي تدل على حب الخير لهم والاهتمام بأحوالهم.

وهذا الشعور الحي يجعل الناس متقاربين غير متباعدين، ومتحابين غير متباغضين، ومتآلفين غير مختلفين.

ولهذا جاء الإسلام الحنيف حاثًّا على الاهتمام بمراعاة مشاعر الناس، والرفق بأحاسيسهم، وقد ظهر بعض ذلك في أحكام شرعية شرعها، وآداب إسلامية دعا

المسلمين اليها. فمن ذلك:

أن الشرع حرم الخِطبة على الخطبة، وحرم البيع على البيع، وأوجب على الزوج العدل بين زوجاته، وعلى الوالدين العدلَ بين أولادهما.

وأمر بإعطاء المطلقات شيئًا من المال بعد الطلاق؛ تعويضًا لوحشة الطلاق وانكسارِ مشاعر المرأة المطلقة، هذا إذا حصل عقد ودخول، فإن حصل العقد وتسمية المهر من غير دخول فطلقت المرأة فإنها تعطى نصفَ المهر المسمى.

وكذلك شرع الإحداد للمرأة، فأمرها أن تحد على الزوج أربعة أشهر وعشر.ليال، وعلى القريب الميت أباح لها الحداد ثلاثة أيام. وأباح البكاء على الميت من غير نياحة وأفعالٍ تدل على الضجر من نزول القدر. وكذلك دعا الورثة والأوصياء عند تقسيم تركة الميت إلى إعطاء الأقارب غير الوارثين واليتامى والمساكين شيئًا من المال تطييباً لمشاعرهم، وحرّم تخصيص بعض الورثة بزيادة على نصيبهم من التركة.

كما أنه دعا إلى الإحسان إلى اليتيم والأرملة والمسكين، ودعا إلى التمسك بآداب الاستئذان، وآداب المجالس، وآداب قضاء الحاجة، ودعا إلى الشكر والمكافأة على المعروف، وغير ذلك من الأحكام والآداب. وهذا التشريع لهذه التشريعات- يا عباد الله- كان من حِكمه: مراعاة المشاعر، وجبر القلوب، وكسب النفوس.

أيها المسلمون، إن من أسباب الحياة الطيبة والعيشة الهنية: أن يعيش المسلم بين مجتمعه حيَّ المشاعر، مرهف الحس، يشعر بما يشعر به الناس، مرافقًا لهم في آمالهم وآلامهم، قريبًا منهم غير بعيد عنهم.

وإن من أسباب الشقاء: أن يكون الإنسان جافّ المشاعر، متبلّد الإحساس، لا يهمه غير نفسه، ولا يبحث إلا عن مصلحته، ولا يعيش إلا في عالم صغير هو نفسه

فقط.

فدعونا اليوم -أحبتي الكرام- نعرض بعض الأقوال والأعمال التي تَنمُّ عن مشاعر حية لدى أهلها، وبعض الأفعال والأقوال التي تُفعل مراعاة للمشاعر، وبعض الأعمال والأقوال التي تنبع من مشاعر جافة، وأحاسيس شبه ميتة.

ولن يكون عرض هذه المشاعر بنوعيها: الحية والميتة عن صنف معين، ولا في مكان محدد هي فيه، بل سنراها بين الأقارب، وبين الأصدقاء، وبين الجيران، وبين الناس عامة.

وسنراها في بيوتنا ومجالسنا ومنتدياتنا، وشوارعنا وأسواقنا، وأعمالنا ووظائفنا، ومساجدنا ومراكزنا، ومدارسنا وجامعاتنا، وعلى المنوال نفسه في كل مكان كنا فيه.

عباد الله، إن من أعظم الناس حقًا أن تكون المشاعر حية معهم: الوالدان؛ فإن الواجب نحوهما عمومًا: البر بهما، وعدم عقوقهما. ومن مظاهر المشاعر الحية معهما: إبداء الاحترام والتوقير، والإجلال والاهتمام بالأقوال والأعمال، وتقديمهما في العطاء والكلام والمكان في البيت وفي السيارة، وغير ذلك.

ومن جفاف المشاعر معهما: ترك السؤال عن أحوالهما، وقلة الاتصال بهما إذا كانا بعيدين، وتقديم الزوجة والأولاد عليهما.

ومن الناس الذين تنبغي مراعاة المشاعر معهم: الأولاد، فمن الشعور الحسن معهم: العدل بينهم، وإظهار الحب والاهتمام بهم وبدراستهم وبهواياتهم المباحة. ومن جرح مشاعرهم: التفوّه بالأفعال، أو إظهار حركات تتعلق بالممارسة الجنسية، ومدح أولاد الآخرين أمامهم والتحجيم من أقدارهم.

أيها الأحبة، إن الحياة الزوجية تحتاج أيضًا إلى أن تعيش فيها حياةُ المشاعر؛ لأنها تزيد رسوخها، وتبهج مسيرتها. فمن مراعاة المشاعر فيها: الثناء المتبادل بين الزوجين على الفعل الحسن والقول الجميل؛ كأن تصنع المرأة لزوجها شيئًا تريد به كسب ودّه، ومثل أن يهدي الزوج زوجته هدية يروم من ذلك إكرامها وزيادة حبها. وغير ذلك من الأمثلة.

وإن من جفاف المشاعر وانحرافها: ثناء الزوج على امرأة غير زوجته وإظهار إعجابه بها، وإبداء الزوجة إعجابها برجل غير زوجها والإطراء عليه أمام زوجها، ومن جرح المشاعر: إساءة الزوجة إلى أقارب زوجها في وجهه، وشتم الزوج أقرباء زوجته وهي حاضرة.

معشر المسلمين، لابد أن يكون المسلم حيَّ المشاعر مع أقاربه، فمن مظاهر حياة المشاعر معهم: مشاركتهم في أفراحهم وأحزانهم، والسؤال عنهم، والإحسان إليهم بالقول والفعل والمال والصلة.

ومن جرح مشاعرهم: الإحسان إلى غيرهم وترك الإحسان إليهم، والتباهي عليهم بالنعمة من مال أو جاه وعدم التواضع لهم، وتناسيهم وقت الشدائد والحاجات.

ومن أقرب الأقربين: الأخوة، فمن المشاعر الحية: أن يحترم الأخُ الصغير الأخَ الكبير فيقدمه ويسمع قوله في الحق، فيكون كالولد البار، وأن يظهر الأخ الكبير عطفه ورحمته بالأخ الصغير، فيكون كالأب الحاني، ومثل ذلك يقال في الأخوات فيما بينهن. وقد ضرب نبي الله يوسف عليه السلام مثالاً رائعًا في مراعاته لمشاعر إخوته، وهو في عز السلطان والملك، وهم بين يدي نعمته محتاجون إليه، فانظروا كيف كان حي المشاعر

معهم:

فإنه عليه السلام قال -كما قال الله تعالى-: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾[يوسف:١٠٠]. فذكر أذيةَ العزيز له بسجنه، ولم يذكر أذيتهم له بإلقائه في الجب، وقال: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ فلم يقل: جاءت بكم الحاجة والفقر إليّ، وقال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فذكر السبب وهو الشيطان ولم يذكر الفاعل المباشر وهم إخوته. هكذا يصنع الكبار، فذكرُ الجفاء أيام الصفاء جفاء، كما قيل.

أيها الأحبة الفضلاء، وللأصدقاء حق من المشاعر الحية، ويبدو ذلك في: تفقّد أحوالهم، وزيارتهم والاتصال بهم، والاهتمام بهم في سرائهم وضرائهم، فالصداقة الصادقة هي التي يعيش فيها الأصدقاء بمشاعر مشتركة بعضهم تجاه بعض، وفي جثوم الأزمات والخطوب المدلهمات يَعرف الصديق من يحبه ممن لا يحبه، ومن هو صادق المودة له ممن يصادقه لمصلحة يجتنيها منه، فإذا نالها ألقى صديقه كقِنِّينة الماء بعد قضاء الحاجة منها، فلله كم في الشدائد من تمييز وغربلة ودروس ومعرفة بحقائق الناس وخبايا قلوبهم نحو غيرهم.

ومن الناس الذين ينبغي الرفق بالمشاعر معهم: الجيران، ومن صور ذلك: مساعدة غنيهم فقيرَهم، وقويهم ضعيفهم، وتقاسم الأفراح والأتراح معهم. ومن جرح مشاعر الجار: نسيانه إذا سافر، وتركُ السؤال عنه، وعمن ترك من أهل وولد، والفخر عليه بالنعم، وتعييره- تصريحًا أو تلميحًا- بالقلة أو العيلة أو الدنوّ الاجتماعي. وغير ذلك.

عباد الله، ما أجملَ أن يكون الإنسان حي المشاعر مع العلماء، ومع كبار السن، ومع الأطفال، فمن مظاهر حياة الشعور مع هؤلاء: إنزال العلماء منزلة الاحترام

والتبجيل باستعمال كل قول وفعل يدل على ذلك، من غير مغالاة ولا تقديس، وإجلال كبار السن وتوقيرهم، والرحمة بالأطفال والابتسامة في وجوههم، والمزاح الذي يدخل عليهم السرور. قال رسول الله ﷺ: «ليس من أمتي من لم يجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»(١). وكان لأخٍ لأنس بن مالك رضي الله عنه عصفورٌ يلعب معه يقال له: نُغَر، فمات فحزن عليه الصبي فجاء رسول الله ﷺ يسلِّيه وقال له: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»(٢).

أيها المسلمون، ما أحسنَ أن يكون المسلم ذا مشاعر حية في بيوت الله، ومن صور ذلك: أن لا يؤذي المصلين برائحة كريهة صادرة عنه، ولا بصوت مرتفع، ولا برنة جوال مزعجة.

وما أطيبَ أن تحيا المشاعر في أماكن التعلم والتعليم من مدارس وجامعات، بين المعلمين والمتعلمين، فالمعلمون يحسنون تقديم المادة العلمية، ويحسنون التعامل مع من يتلقى تلك المادة عنهم، وأن تكون معاملاتهم لتلاميذهم كمعاملة الأب الشفوق لأولاده.

وعلى المتعلمين الترفق بمشاعرهم نحو معلميهم، فلا يعملون أعمالاً تستثير غضب أساتذتهم، كعقد المقارنة العلمية بين معلميهم ومعلمين آخرين وإبداء أن أولئك أحسن تعليمًا منهم.

وأجمِلْ بالمضيف والضيف حينما تبدو على أقوالهما وأفعالهما مراعاةُ المشاعر، فربُّ الضيافة يحسن الاستقبال بالبسمة الصادقة والسرور الكبير، والإكرام المستطاع،

---

(١) رواه أحمد والحاكم، وهو حسن.

(٢) متفق عليه.

والضيف يحسن الزيارة بالاستئذان في الأوقات المناسبة، وأن يكون خفيفًا لطيفًا، وأن لا يهجم على صاحب البيت هجومًا كاسحًا يغتال عليه الراحة والعمل الذي يحتاج الاستمرار معه من غير قاطع.

وأعظِمْ بالمجالس التي يجتمع فيها الفقراء والأغنياء وتكون المشاعر الحية حاضرة، وخشونة المشاعر غائبة، فمن حسن المشاعر: أن لا يتحدث الأغنياء عن صفقاتهم وأرصدتهم ونفقات سفرياتهم وأموالهم الكثيرة من غير ضرورة؛ حتى لا يكسروا قلوب جلسائهم الفقراء. ومن حسن المشاعر لدى الفقراء: أن لا ينظروا إلى الأغنياء نظر حقد أو طمع أو استعطاء ولا يعرضوا ما هم عليه من الفاقة والأقدار المؤلمة التي تحتاج إلى مال؛ فإن هذا قد يضيق على الأغنياء مجلسهم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

أيها المسلمون، إن من المظاهر العامة لحياة المشاعر التي تؤثر على النفوس وتجذبها: الزيارة بين الأقارب والأصدقاء والجيران؛ من أجل تعاهد رياض المودة؛ لأن تلك الرياض تذبل بالجفاف والقطيعة. ومن الزيارة المأجور عليها أجراً عظيمًا: زيارة المريض؛ لأنها من إدخال السرور عليه، وتخفيف ألمه؛ إذ يحس أن هناك من يشعر بوجعه. لكن على أن تكون الزيارة –عمومًا– من غير إكثار ولا إملال، فزر غِبًّا تزددْ حباً.

ومن المظاهر الحسنة التي تنم عن المشاعر الطيبة وتنمّي المشاعر كذلك: مناداة الناس بأحب الأسماء والألقاب والنعوت الصادقة التي يحبونها، من غير تنابز أو تعييب أو تنقيص.

ومن المظاهر: سماع حديث المتكلم والإنصات لكلامه، والنظر إليه وعدم مقاطعته؛ لأن هذا الأدب يشعر المتحدث أن كلامه مسموع، وأن سامعه محترم لحديثه.

ومن المظاهر كذلك: استئذان صاحب الحق في استعمال حقه، ومن أمثلة ذلك: السيارة، والجوال.

ومن المظاهر: الستر على عيوب المسلمين المشاهدة أو المسموعة، خاصة في المجالس، كأن السامع لم يسمع، والرائي لم يرَ.

ومن المظاهر: العيش مع المسلمين بقلب حي، وضمير متقد يفرح بأفراح المسلمين في أي مكان، ويحزن لأحزانهم.

ومن المظاهر: الثناء على المحسنين، وشكر المنعِمين، سواء كان الإحسان حسيًا أم معنويًا، وهذه المكافأة على جميلهم تحملهم على الاستمرار في العطاء.

عباد الله، وفي مقابل هذه المظاهر التي تدل على حياة المشاعر تبدو من أناس آخرين أعمال وأخلاق أخرى تُظهِر تصلّب مشاعرهم وتكلُّسَها بسبب نقصان عناصر الحياة فيها، فجفاف مشاعرهم، وانحراف أحاسيسهم، وبرود عاطفتهم هي الأحوال المسيطرة عليهم.

فمن نتائج تلك المشاعر المريضة أو الميتة: الاستهزاء بالآخرين: بخَلقهم أو خُلقهم، أو بلدانهم أو قبائلهم ومناطق سكنهم، أو بلغاتهم أو لهجاتهم، أو بوظائفهم ومِهَنهم.

ومن النتائج: عتاب المخطئ في العلن من غير داعٍ للإعلان، والإسراف في التوبيخ والتقريع.

ومن النتائج: شرب الدخان في الأماكن العامة، وإجبار الناس على سماع ما يكرهون من الباطل بأساليب متعددة، والإسراع بالسيارة أو الدراجة النارية بين الناس إذا أدى إلى إفزاعهم وإيذائهم أو كسر قلوبهم.

وغير ذلك من النتائج والمظاهر.

أيها المسلمون، وبعد هذه الإشارات إلى هذا الموضوع المهم نقول: إن الحديث ذو شجون، وأمثلة هذا الموضوع ألوان وفنون، فلا يمكن عدها مهما تحدث المتحدثون،

وكتب الكاتبون. لكن ما سبق نثره إنما هو منارات على طريق الحياة تشير إلى غيرها.

ومن يعش بين الناس فليأت للناس ما يحب أن يأتوا به إليه من الأقوال والأفعال والأحوال؛ فإن الناس لديهم مشاعر كما لديه مشاعر، يفرح مشاعرَهم ما يفرح مشاعره، ويجرح أحاسيسَهم ما يجرح أحاسيسه، وجزاء الإحسان الإحسان، وكما تدين تدان، والأيام دول، والعيش لا يبقى على حال، فمن حسنت مشاعره حُمِدت معاشرته، ورسخت في القلوب محبتُه، وعظُمت بين الناس منزلتُه، فطابت بذلك حياته، واستراحت نفسه، وانشرح صدره.

هذا وصلوا وسلموا على النبي المختار...

فهرس المحتويات

المقدمة ٥
حتى تنفخ الروح في كلماتنا ٧
فمن الإحسان الداخلي: ١٠
أما الإحسان الخارجي فيكون في: ١١
أُسوةٌ حسنة ١٤
الخطبة الثانية ٢٧
نسائم المعروف ٢٩
الخطبة الثانية ٣٦
صفات المؤمنين في سورة المؤمنين ٣٩
الخطبة الثانية ٤٧
نعمة الحُبِّ ونقمته ٤٩
الخطبة الثانية ٥٨
آداب السفر وأحكامه ٦١
الخطبة الثانية ٧١
ابن الأمير الصنعاني: العالم العامل ٧٥
الخطبة الثانية ٨٣
دعوة المظلوم: تبشير وتحذير ٨٥
الخطبة الثانية ٩٥
رسائل عجلى مع بدء العام الدراسي ٩٧
الخطبة الثانية ١٠٥

سليمان ـ عليه السلام ـ وملكة سبأ: دعوة وحكمة..١٠٩

الخطبة الثانية ١١٨

مع الجوال وخدماته..١٢٠

الخطبة الثانية ١٣٠

السوق.. آداب وأحكام...١٣٣

الخطبة الثانية ١٤١

بهذا وصَّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ١٤٥

الخطبة الثانية ١٥٦

وعظُ المَشاهد ١٥٩

الخطبة الثانية ١٧٠

رحلة الموت: آداب وأحكام...١٧٣

الخطبة الثانية ١٨٣

الفراغ من دفن الميت: آداب وأحكام..١٨٦

الخطبة الثانية ١٩٣

أنباء القبور..١٩٦

الخطبة الثانية ٢٠٦

مشاهد من عرصات القيامة ٢٠٨

الخطبة الثانية ٢٢١

دار الشقاء: أهوال وأحوال ٢٢٣

الخطبة الثانية ٢٣٣

دار النعيم: أوصاف وأفراح...٢٣٥

الخطبة الثانية ٢٤٧

علاج نبوي ناجع ٢٤٩

الخطبة الثانية ٢٥٨

فتية الكهف ٢٦٠
الخطبة الثانية ٢٦٧
قوارب المغفرة ٢٦٩
الخطبة الثانية ٢٧٧
نبي الله داود عليه السلام: سيرة، وعبرة (الجزء الأول) ٢٨٠
الخطبة الثانية ٢٩١
نبي الله داود عليه السلام: سيرة، وعبرة (الجزء الثاني) ٢٩٣
الخطبة الثانية ٣٠٥
أحكام شَعرِ الإنسان ٣٠٧
الخطبة الثانية ٣١٨
القوة بين النقمة والنعمة ٣٢٢
الخطبة الثانية ٣٢٨
الطريق إلى مدين ٣٣٢
الخطبة الثانية ٣٤١
نعمة المطر ٣٤٤
الخطبة الثانية ٣٥١
أحكامُ عِددِ النِّساء ٣٥٣
الخطبة الثانية ٣٦٣
التواضع في ضوء القصة القرآنية ٣٦٥
الخطبة الثانية ٣٧٤
فضل الإطعام في يوم ذي مسغبة ٣٧٧
الخطبة الثانية ٣٨٦
الحياة بالتفاؤل ٣٩٠
الخطبة الثانية ٣٩٨

نعمة العافية...٣٩٩

الخطبة الثانية ٤١٠

المرض والمرضى حِكَم وأحكام..٤١٢

الخطبة الثانية ٤٢٠

الطب والأطباء آداب ووصايا..٤٢٢

الخطبة الثانية ٤٣١

تفريجُ الكُروب...٤٣٣

الخطبة الثانية ٤٤١

خطبة عيد الفطر...٤٤٣

الخطبة الثانية ٤٤٧

مَدرَسةُ الاعتبِار...٤٤٩

الخطبة الثانية ٤٥٨

شفاء الأحزان في سورة آل عمران...٤٦٣

الخطبة الثانية ٤٧٣

حياة المشاعر ٤٧٦

الخطبة الثانية ٤٨٤

فهرس المحتويات ٤٨٧